قراءات إفريقية

مجلة ثقافية فصلية محكّمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية
العدد السابع - محرم-ربيع أول ١٤٣٢هـ / يناير-مارس ٢٠١١م

قراءة في المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية

المنظمات (الإنسانية) الغربية ... وإفريقيا

- لماذا لا تزال فرنسا تدعم حكام إفريقيا المستبدّين؟
- الشيخ **أحمد ديدات** رائد دعوة النصارى

ثقافية فصلية محكّمة
متخصصة في شؤون القارة الإفريقية
تصدر عن المنتدى الإسلامي

العدد السابع - محرم - ربيع أول ١٤٣٢هـ / يناير - مارس ٢٠١١م

المحتوى

التنمية في إفريقيا.. الإنسان هو البداية
التحرير ٢

الخلاوي القرآنية في إريتريا
د. جلال الدين صالح ٤

التنصير في إفريقيا - السودان نموذجاً
محمد فرج مصباح ١٣

الهجرة في واقع الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا
د. آدم بمبا ٢٦

التحصيل العلمي لدى الطلاب في غرب إفريقيا بين الواقع والمأمول
د. محمد أحمد لوح ٣٦

قراءة في المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية
أ. محمد العقيد محمد أحمد ٤٣

إعداد: هيئة تحرير المجلة ٥٩

الإطار القانوني لعمل المنظمات الإنسانية في إفريقيا
د. أيمن سلامة ٧٣

المنظمات الإنسانية الأجنبية في إفريقيا الوجه الآخر للدوافع النبيلة
د. أيمن السيد شبانة ٧٩

المنظمات الإنسانية الأجنبية في دارفور بين الإنسانية والسياسة
د. الوليد سيد علي ٨٦

إقليم أوجادين: انتقائية الإغاثة الإنسانية
أ. د. السيد فليفل ٩٣

الشيخ أحمد ديدات رائد دعوة النصارى إلى الإسلام في القرن العشرين
إعداد: محمد نور عبدالله ٩٨

لماذا لا تزال فرنسا تدعم حكام إفريقيا المستبدين؟
هيئة التحرير ١١٠

أسعار البيع:
إفريقيا: ١,٥ $ - أوروبا ودول الخليج: ١٠ ريال سعودي أو ما يعادلها
أسعار الاشتراك السنوي:
إفريقيا: ٨ $ - أوروبا ودول الخليج: ١٥ $ - المؤسسات الحكومية: ٢٥ $

رئيس مجلس الإدارة
خالد بن عبد الله الفواز
fawaz@qiraat.org

رئيس التحرير
د. إبراهيم العامر

الهيئة الاستشارية
المشير: عبدالرحمن سوار الذهب (السودان)
د. إبراهيم أبو عباة (السعودية)
أ. إبراهيم كنتاو (مالي)
د. حقار محمد أحمد (تشاد)
أ. د. حمدي عبد الرحمن حسن (مصر)
د. عبدالرحمن السميط (الكويت)
أ. د. عبدالغفور البوسعيدي (كينيا)
د. محمد أحمد لوح (السنغال)
د. محمد الثاني عمر (نيجيريا)

التحرير
editors@qiraat.org

المراسلات
بريطانيا - لندن:
7 Bridges Place,
Parsons Green Fulham,
London SW6 4HW, UK
هاتف: 0044-207-4718261
فاكس: 0044-207-7364255
المملكة العربية السعودية - الرياض:
هاتف: 0096614944949
فاكس: 0096614942900

التسويق / التوزيع
marketing@qiraat.org

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

التنمية في إفريقيا.. الإنسان هو البداية

تعتمد التنمية في كل مجتمع على أركان أساسية ثلاثة هي: الإنسان المؤهل للقيام بعملية التنمية، والموارد الطبيعية الموجودة في المجتمع، والنظام الإداري الناجح الذي يدير عملية التنمية ويسخّر الموارد لخدمة الإنسان المنتِج والمستفيد. ولابد أن يسبق ذلك الرؤية والاستراتيجيات والخطط الواضحة، مع وجود الوفرة المالية.

إذا تحدثنا عن الإنسان في إفريقيا سنجد أن عدداً من الدول في السنوات العشرين الأخيرة واجهت مجموعة من المخاضات؛ ترتَّب عليها سقوط كثير من الأنظمة العسكرية والاستبدادية والديكتاتوريات، وحلّ محلّها أنظمة أكثر انفتاحاً على الشعوب؛ وهو ما نقل الإنسان الإفريقي إلى مرحلة وجد فيها قدراً من الاعتماد على نفسه في اتخاذ قراراته، واهتزت في نفسه مشاعر التوجس والحذر من الاستعباد والاستغلال، الذي عاش فيه زماناً طويلاً تحت وطأة الاحتلال، الذي نهب خيرات بلاده وموارِدها عقوداً عديدة، كما هو حال الاحتلال الفرنسي والبريطاني والبرتغالي والبلجيكي والإيطالي والهولندي والإسباني.

كل هذه الدول تناوبت على احتلال إفريقيا، وتقاسمت ثرواتها، ومارست كل أنواع الإذلال لشعوبها الإفريقية على مدى عقود من الزمن، سعت في تحويلها إلى شعوب متخلّفة.

وما أن تحررت هذه الشعوب من ربقة العبودية والاستعمار؛ حتى عانت بعده استبداد ما خلّفه وراءه من نُظُم دكتاتورية، لكن الشعوب الإفريقية لم تستسلم حتى ذاق العديد منها طعم الحرية، ومضى يستعيد حقوقه شيئاً فشيئاً، ويسعى نحو التنمية بخطى دؤوبة.

الجانب الآخر في قضية التنمية هي «الموارد»، وإفريقيا في هذا الجانب قارة تزخر بكثير من الموارد الطبيعية، فهي غنية بكمٍّ عظيم من الموارد المائية والكهرومائية والأراضي الخصبة والمحاصيل الزراعية المتنوعة؛ مثل الزيتون والفول السوداني والقطن والكاكاو والفواكه، والموارد المعدنية مثل الكروم والفاناديوم والماس والذهب والبلاتينيوم والحديد والألمونيوم والنحاس والفضة والفوسفات والمنجنيز والكوبالت وغيرها، وهي تملك كذلك احتياطيات عالية من الغاز الطبيعي والفحم، وكذلك تزخر بكثير من العناصر النادرة كاليورانيوم، والأحجار الكريمة كالماس وغيره، ويوجد البترول في بعض الدول كالسودان ونيجيريا وجنوب إفريقيا وتشاد وغيرها، وهذا هو السبب الرئيس في طمع كثير من الدول الغربية في إفريقيا، فهي قارة تبشر بمستقبل واعد لهذه الدول الغربية إذا تمكنت من السيطرة على إدارة هذه الموارد.

يأتي بعد ذلك العامل الثالث، وهو النُظُم الإدارية التي تحكم هذه الدول، وليس خفياً أن تفوّق النظم يسهّل استثمار الإمكانيات والموارد والطاقات الموجودة في البلدان الإفريقية؛ ويحوّلها إلى طاقة دافعة تنطلق بهذه الدول

وتحولها إلى دول استثمارية وصناعية غنية.

لكن هل بلغت النُظُـم الإدارية في إفريقيا هذا المستوى المنشـود أو اقتربت منه؟ وهل الموارد التـي تملكها تكفـي وحدها لتحقيق التنمية؟

دعونـا نعقد مقارنة بسـيطة فـي عملية التنميـة، وذلك بيـن دولة بتروليـة عضو في منظمة «أوبك» وتملك كثيـراً من الموارد مثل نيجيريا، ودولة لا تملـك من الموارد الطبيعية إلا القليل مثل اليابان، فالمقارنة تبين لنا الفارق العظيم بين نُظُم الإدارة في الدولتين، فالنظام الإداري المتفوق حـوَّل دولة (اليابان) – وهي بلا موارد – إلى قـوة اقتصادية عظيمة، ولأن نيجيريـا المكتنزة بالموارد تفتقد إلى مثل هذا النظام الإداري المتفوق بقيت دولة فقيرة يعيش فيها الملايين تحت خط الفقر!

يبقى أن نقرر بأن الاسـتثمار في الإنسان هو أحد أكبر التحديات التي تواجه كل مشروع تنموي، وبخاصـة في إفريقيا[1]، فالتركيز على صناعة الإنسـان المتميز الجـاد المنتج الذي يعتمد على نفسـه ويشـعر بالتحديـات التي تواجهـه، والذي يملك القـدرة على تحويل ما لديه مـن موارد وطاقـات وإمكانيات إلى قوة كبيرة يسـتطيع بها أن يسـابق غيره؛ يبقى هو التحدي الأكبر في المجتمع الإفريقي.

فالاسـتثمار الأمثل هو أن تتجه المنظمات والمؤسسـات الخيريـة والقطـاع الخاص بل الدول صوب «بناء العنصر البشري» أو «صناعة الإنسـان»، فهو العامل الرئيس في كل مشروع تنموي يهدف إلى الارتقاء بالمجتمعات وتحويلها إلى مجتمعات غنية مكتفية، تعتمد على نفسها في صناعتها وزراعتها وطعامها.

مـن المفارقات العجيبة فـي إفريقيا أنها تضـم دولاً ثرية وأخـرى متقدمـة صناعياً، كجنوب إفريقيا، لكنها تعاني الخلل الاجتماعي وإهمال التنمية البشـرية، فهذه الدول مع أنها تعيش نهضة ونمواً اقتصاديـاً وصناعياً؛ نجد فيها فئاماً كثيرة من البشـر فـي حالة مريرة من الفقر والحاجة، ونجـد نيجيريا – مثلاً – وهي عضو مؤسس في «منظمة أوبك»، وتتمتع بمقومات زراعية واعدة[2]، وعلى الرغم من ذلك تعيش حالة جعلت طاقـات هذا البلد وموارده في يد فئة قليلة دون سـائر الشـعب، وهو ما حوّلها إلى بلد فقير يعاني البطالة، ويتدنى فيه مستوى المعيشة إلى درجة أن يستجدي شعبها لقمة العيش.

لذا نقـرر ونؤكـد أن التنميـة الحقيقية فـي المجتمع هي التنمية البشـرية التي تبدأ بالإنسان وتنتهي بالإنسان.

١) جاء في تقرير (مؤشرات التنمية في إفريقيا) الصادر عن البنك الدولي. وهو يحتوي أكثر من ٤٥٠ مؤشراً على صعيد الاقتصاد الكلي والقطاعات والأوضاع الاجتماعية. تغطي ٥٣ بلداً إفريقياً:
- نسبة الأطفال الذين يلتحقون بالصف الأول من التعليم ويستكملون الصف الخامس في تشاد لا تزيد على ٣٧٪ في حين تصل إلى ٩٩٪ في موريشيوس.
- يوجد معلم لكل ٢٢ تلميذاً في المدارس الابتدائية في موريشيوس؛ في حين يصل هذا المعدل إلى معلم لكل ٩١ تلميذاً في جمهورية إفريقيا الوسطى.
- تتمتع نسبة ٢٩٪ من السكان في الصومال بإمكانية الحصول على مياه الشرب النظيفة من مصدر مأمون. بينما تصل هذه النسبة إلى ١٠٠٪ في موريشيوس.
- وفي العام ٢٠٠٤م وجد أن ٢٠٪ من المعلمين في المدارس الابتدائية بالمناطق الريفية غرب كينيا غير موجودين بالمدارس في أثناء ساعات العمل الرسمية. في حين وجد استقصاءان أن معدلات تغيب المعلمين في أوغندا بلغت ٢٧ و ٢٠٪ في عامي ٢٠٠٢م و ٢٠٠٧م على التوالي.
- وأشارت بعض الدراسات إلى أن أكثر من ٥٠٪ من الأدوية والعقاقير الطبية المباعة في الصيدليات في نيجيريا في تسعينيات القرن الماضي كانت مزيفة.

٢) مثل اتساع المساحة الصالحة للزراعة - ٣٤٪ من المساحة -. ووفرة التربة الخصبة والمياه وبخاصة في الجنوب والوسط. وملاءمة المناخ المداري الجاف. ووفرة اليد العاملة حوالي ٣٠٪ من الفئة النشطة.

الخلاوي القرآنية في إِرِيْتْريا

د. جلال الدين محمد صالح(*)

أقدم تعليم عرفته إريتريا هو التعليم في «الخلاوي القرآنية»، وتُعد «الخلاوي القرآنية» مَعْلَماً من معالم التراث الإسلامي في كل المدن الإريترية ذات الوجود الإسلامي المؤثر، فهي إرث ثقافي عريق، ونمط تعليمي تليد، ما زال المسلمون الإريتريون يتوارثونه أباً عن جد، وخلفاً عن سلف، ويلتزمونه أينما حلّوا واستقروا، تعبيراً عن اهتمامهم بالقرآن الكريم، وتعميقاً لانتمائهم الثقافي، وتثبيتاً لهويتهم الإسلامية؛ لذا لا غرابة أن تجعل كل المدن الإريترية من «الخلاوي القرآنية» أول محاضن التنشئة الإسلامية، وأولى خطوات التربية الصحيحة في الاهتمام بالأبناء وتربيتهم على القيم النبيلة، فقد عرفت - صانها الله - عديداً من «الخلاوي القرآنية» التي أشرف عليها وجهاؤها من أهل الفضل والإحسان، وقام بالتعليم فيها مشايخ كرام، مَنَّ الله عليهم بحفظ كتابه، والسهر على تعليمه وتلقينه، فحازوا بذلك رضوان الله، ثم تقدير المجتمع، وتكريمه إياهم، وذكرهم بخير في حياتهم وبعد مماتهم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

ما من شاب مسلم وُلد في إريتريا ونشأ فيها وإلا وكانت الخلوة أول مكان جلس فيه بين يدي الشيخ، يكتب بأصبعه السبابة على الأرض الحروف الهجائية (أ ب ت ث...)، ثم على اللوح بقلم مَبْرِيٍّ من القصب، يغمسه في مداد أسود، يُعرف بالدواة، يُصنع من نفاية دخان الأثافي العالق بظهر قدور الطبخ، أو بمسحوق أسود يُستخرج من داخل حجر المذياع (بطارية الراديو)، يُخلط معه مقدار من الصمغ العربي، وقطع صغيرة من القماش المهترئ، في وعاء معدني صغير الحجم، أو قنينة حبر، أو ما شاكل ذلك وشابهه.

وأجود أنواع (المداد) وأحسنه ما أبرز الحروف، وحَسَّنَ الخطوط، وجمّل السطور، يخط به القارئ ما يمليه عليه الشيخ من آيات الذكر الحكيم على لوحه الخشبي ليحفظها صباحاً، ثم يعرضها على الشيخ من حفظه مساءً، ليأذن له بمحوها غسلاً، والانتقال منها إلى مقطع آخر، وإلا أعاده وألزمه بإتقان حفظها، وهكذا تمضي أيامه حتى يكمل سورة بعد سورة، وجزءاً بعد آخر، إلى أن يختم القرآن الكريم كلّه، ويقيم بذلك حفل ختام، تُسر به الأسرة وتفخر، ويُكرّم فيه الابن والشيخ معاً.

■ معنى الخلوة:

الخلوة في الأصل من الاختلاء، أي الانفراد في مكان لا مخالطة فيه، ثم صار مصطلحاً يُطلق على المكان الذي يختلي فيه معلم القرآن مع الصبيان بعيداً عن الضوضاء؛ ليعلمهم نطق القرآن وكيفية حفظه على رواية من الروايات المتداولة، في تلقينه وتعليمه، كما هو معروف في السودان، وبعض مناطق إريتريا، ولا سيما مناطق المنخفضات التي هي شديدة التأثر بالأجواء الثقافية في السودان؛ لكون كثير من المشايخ الذين تولوا تعليم القرآن فيها تلقوا تعليمهم القرآني في خلاوي السودان، في شماله وشرقه، من هذه الخلاوي التي قصدها الإريتريون في السودان على سبيل المثال خلوة

(*) أستاذ مشارك في جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.

«أم ضبان» سابقاً، التي حملت لاحقاً اسم «أم ضَوّاً بان» ، وخلوة «أسوت» بشرق السودان، وغالب «الخلاوي القرآنية» في إريتريا عموماً إن لم يكن كلها تُعلّم القرآن على رواية حفص.

■ نشأة الخلاوي وتطورها:

دخل الإسلام إريتريا منذ هجرة الصحابة رضي الله عنهم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة في عام ٦١٤م، ثم أخذ الإسلام ينتشر في مختلف الأقاليم، وكانت إريتريا أول موضع تطأه أقدام الصحابة خارج الجزيرة العربية. أما بعد رجوع الصحابة فلم ينته النزوح من مكة والمدينة، فقد قدم إلى إريتريا بعض الدعاة المسلمين وتزاوجوا مع الإريتريين وتناسلوا وتكاثروا وساهموا في نشر الإسلام، وأقاموا «الخلاوي القرآنية»، وقاموا بدور في نشر اللغة العربية والفقه الإسلامي[1].

وبعد ذلك كان انتشار الإسلام بواسطة التجار ثم العلماء من أهل البلاد، خصوصاً في العهود التي ساد فيها الجهل وعمّت الأميّة، فكانوا يقيمون الخلاوي لتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الدينية وتعليم الناس مبادئ الإسلام.

وبجانب القرآن الكريم كان يتم تعليم اللغة العربية والنحو (ألفية بن مالك) والفقه والحساب، وغير ذلك من العلوم في أمور الدين، في الخلاوي (الكتاتيب) في شرق إريتريا وغربها، وغيرها من المناطق التي يقطنها المسلمون، ثم يشدون الرحال إلى خلاوي شرق السودان مثل خلاوي (الشيخ القرشي)، وشمال السودان والجزيرة في معاهد وخلاوي أم درمان وأم ضواً بان وبربر.. إلخ، وبعد ذلك يسافرون إلى مصر للاستزادة من التعليم في الأزهر الشريف وغيره من مراكز اللغة العربية والدين الإسلامي[2].

المصطلح الشائع استعماله في إريتريا:

مع أن مصطلح «الخلوة» هو الاسم الغالب إطلاقه على مكان تعليم القرآن في السودان، إلا أنَّ كلمة «قرآن» هي الكلمة الشائع استعمالها بين أهالي إريتريا في الإشارة إلى الخلاوي القرآنية، وتسمية الإريتريين الخلوة بهذا الاسم «قرآن»؛ لكونها مكاناً لتعلّم قراءة القرآن وحفظه.

وينادي الإريتريون شيخ الخلوة بـ «سيدنا» أو «شيخنا» أو «أبو شيخنا» إذا ما كان طلاب الخلوة من أبناء الجبرتة، و «أبو» هنا للتعظيم، وإذا كانت من تُعلّم الطلاب امرأة دعوها «شيخايت»، وهو عُرف درج عليه الآباء والأبناء في مخاطبة شيخ الخلوة احتراماً وتقديراً له؛ لكونه حاملاً لكتاب الله ومعلماً إياه، فهو سيد بتسويد القرآن له، أما الطلبة فيسمونهم «درسة» أي الدارسون.

الأب عندما يصطحب ابنه إلى القرآن:

يصطحب الأب ابنه إلى القرآن (الخلاوي) وهو يحمل هموم تربيته على القيم الإسلامية، فـ«القرآن» في حس الآباء ليس هو محل لتعلُّم القراءة والكتابة فحسب، وإنما هو فوق ذلك بيئة مناسبة لتشكيل سلوك الأبناء وتوجيههم وجهة حسنة، تحفظ حياتهم من الانزلاق في الانحرافات الأخلاقية.

من هنا يطلب الأب أول ما يطلب من الابن حين يأتي به إلى «القرآن» تقبيل يد الشيخ دليلاً على الاحترام والتوقير لمكانة الشيخ، ثم يأخذ الابن مكانه ليبدأ كتابة الحروف الهجائية بأصبعه السبابة على الأرض الرملية، تحت

---

١) إريتريا طريق الهجرات والديانات ومدخل الإسلام إلى إفريقيا. محمد سعيد ناود. الناشر: شركة دار الكويت للصحافة (الأنباء).

٢) تاريخ ومكانة اللغة العربية في إريتريا. آدم محمد صالح فكاك. انظر:
http://www.sudaneseonline.com/ar/printer_21759.shtml

إشـــراف الشـــيخ، أو من يوكله الشيخ من كبار طلابه، إن كان هذا الطالب لا علم له بالحروف الهجائية، أو يمسك بلوحه الخشبي ليجلس أمام الشيخ على هيئة جلســـة التشهد في الصلاة، وقدّامه دواته، وبيده قلمه، ليكتب ما يُمليه عليه الشيخ من حفظه أو من المصحف.

وليـــس لحضـــور «القرآن» لباس رســـمي يرتديـــه طلابه، ولكن المعتـــاد أن يخيط الأب لابنه قميصاً يُدعى «عراقي» و «ســـروال» من قماش يُســـمى «أبو جديد» لرخصـــه أولاً، ثم لتحمله تبعات الجلوس على الأرض، وما يتناثر عليه من قطرات الدواة.

وربما قليل من يعـــرف أن تعلم القرآن قبل الســـتينيات كان حكراً علـــى الذكور، ثم أصبح بعد الستينيات حقاً مشاعاً للذكور والإناث معاً، وهكذا بـــدأت الفتاة الإريترية تأخذ مكانها في الخلوة القرآنية أسوة بشقيقها، لكن مع الفصل التام بين الذكور والإناث.

■ نظام الخلاوي التعليمي:

الخلوة تتبع نظام التعليـــم الفردي، والذي يمثِّل فيه كل طالب وحدة أو فصلاً قائماً بذاته غيـــر مرتبط بالآخرين فـــي مقدار ما يتحصل عليه من حفـــظ للقرآن الكريـــم، أي لا توجد فـــوارق زمنية (فصل أولى، ثانية، ثالثة)، بل كل طالب يسير قدر طاقته في الاستيعاب والحفظ.

كما تأخذ بالاقتصار على تعليم مادة واحدة في الوقت الواحد، وبعد الانتهاء من المادة يتم الانتقال إلى الأخرى.

كما أنَّ الخلوة لا تضع حدّاً لعدد الملتحقين بها، كما لا تحدد عدداً من السنوات للبقاء بها.

وتعتمد الخلوة على نظـــام المعلم الواحد، فالشيخ يمكن أنْ يشرف على عدد من الطلاب قد يصلون إلى المائـــة بمعاونة المتقدمين من الطلبة في القراءة لـــه في التدريس، حيث يتم توزيع الطلبة الجدد على الطلبة المتقدمين في الدّراسة ليقوموا بتدريس إخوانهم، كما يُشرف الشـــيخ على هؤلاء المتقدمين في الدراســـة مع مراقبة قـــراءة إخوانهم، وهذه الطريقة قد أثبتت نجاحهـــا وأعطت ثماراً طيبة في معرفة المســـلمين لحفظ القرآن الكريم طوال القرون السابقة.

كذلـــك فإن اللوح والـــدواة والقلم القصبي وأصبـــع الطفـــل والمصحف (الختمـــة) كما يســـمّونه، والأرض الرملية، كلهـــا أدوات تعلُّم ضرورية وأساسية.

وأول ما يقـــرأ الطالب فـــي (القرآن) هو الحروف الهجائيـــة (أ، ب، ت، ث...ألخ) حتى يتـــقن نطقها ورســـمها وحفظها على الترتيب الذي وضعت عليه، ويخرجها من مخارجها.

ثم ينتقل بعد ذلك إلـــى التدرّب على نطق الحركات (النصبة، الكســـرة، الضمة، السكون) وكتابتهـــا على الحروف الهجائية نفســـها. كما يتدرّب أيضاً علـــى تركيب كلمات منها، وهكذا يرتقي حتى يتمكن من القراءة والكتابة، ويكون مؤهلاً لالتقاط ما ســـيُمليه عليه الشـــيخ من السور القرآنية وكتابته.

الرمي والعرض:

«الـرمـــي» و «العـــرض» مصطلحـــان من مصطلحـــات الثقافة الإســـلامية، ذات الصلة الوثيقـــة بأصول التراث الإســـلامي، في عهود توثيـــق الحديث النبوي وتدوينـــه، اعتدنا على تداوله وســـماعه ونحن طلاب فـــي «القرآن»، الشيخ «يرمي» والطالب «يعرض».

والمقصـــود بالرمي هو إملاء الشـــيخ من حفظـــه، أو مـــن المصحف، المقطـــع المقرر حفظه على الطالب ليكتبه على لوحه الخشبي، وذلك صباح كل يوم من أيام القرآن.

أما العرض فالمراد منه عرض الطالب من حفظه على الشيخ ذلك المقطع المقرر عليه حفظه مساء كل يوم من أيام القراءة، ليجيزه الشيخ، ويسمح له بمحوه غسلاً.

وعند الرمي يأخذ الشيخ مكانه ساعة الشروق، ويتحلق الطلاب حوله على شكل حرف (ن)، الشيخ مثل النقطة في الحرف، والطلاب نصفه الدائري، جلوساً على هيئة جلوس التشهد في الصلاة.

والشيخ يرمي من حفظه إن كان حافظاً، أو من المصحف إن لم يكن حافظاً، في لحظات متقاربة من ساعة الرمي، على أكثر من طالب، في أكثر من سورة قرآنية، وغالباً ما يكون هؤلاء الطلاب من خيرة وأكفأ من عنده، ثم بعد ذلك يوكل إليهم الرمي على من هم دونهم في السنّ والحفظ.

عند الساعة التاسعة، أو الثامنة والنصف صباحاً تقريباً، يكون الرمي قد انتهى، وفي بعض الخلاوي يعود الطلاب إلى منازلهم للإفطار، ويأخذ الشيخ قسطاً من الراحة من بعد تناول إفطاره، وشرب القهوة، ثم يعودون من بعد ساعة تقريباً، أو نصفها، ويقرؤون حتى الثانية عشرة والنصف ظهراً، وبعد أداء صلاة الظهر ينفضون ليعودوا عند الساعة الثانية ظهراً، ويقرؤون إلى صلاة العصر، وقبل العصر يبدأ الطلاب في عرض ما حفظوه مما رمي عليهم صباح هذا اليوم على الشيخ؛ ليجيز منهم من يجيز، ويعاقب منهم من يعاقب، ويسمون هذا الفعل منهم «العرض».

والطالب المجاز يغسل مقطعه من لوحه الخشبي في خانة مخصصة لغسل الألواح، في ركن من أركان الخلوة، عليها أحجار متوسطة الأحجام، يغسل عليها الطالب لوحه، ويمسحه بمادة تسمي «الجير»، وهو نوع من (الحجر) لكنه سهل التفتيت.

وفي بعض الخلاوي (القرآن) يتلقّى الطالب بجانب قراءة القرآن شيئاً من مبادئ الفقه، والعقيدة، ونصوصاً أدبية مختارة من محفوظات اللغة العربية، والأناشيد الإسلامية، من ذلك حسبما أذكر منظومة في العقيدة كان الطلاب ملزمين بحفظها.

وكذلك أنشودة الآباء التي كثيراً ما كنا نرددها عند نهاية اليوم القرآني، أو أيام الاحتفالات.

خلاوي القرآن والرعاة:

إذا كان في «القرآن» طلاب يشتغلون بالرعي ولا يمكنهم الحضور على النحو الذي يلتزم به من سواهم؛ حملوا معهم ألواحهم إلى البر من بعد أن يرمي عليهم الشيخ المقطع الذي يتوجب عليهم حفظه، وهنالك في الخلاء وتحت ظل الأشجار وعلى التلال وبطون الأودية ينفرد الراعي بلوحه فيحفظ مقطعه، وفي المساء بعد عودته يعرض على الشيخ ما حفظه فيجيزه، وفي الصباح قبل الانطلاق إلى الرعي يرمي عليه الشيخ مقطعاً جديداً وهكذا.

وقليل من الخلاوي القرآنية (القرآن) يقيم شيوخها حلقات القرآن الليلية بعد صلاة المغرب إلى العشاء، وقد اختفت هذه الظاهرة تماماً عندما سلط المستعمر الإثيوبي على المجتمع قانون حظر التجول، وممن كان يسير على هذا المنوال (القرآن) الذي أسسه والدي الشيخ محمد صالح حاج حامد، مؤسس «مؤسسة أصحاب اليمين التعليمية» في الستينيات من القرن الميلادي المنصرم باسم «مدرسة الإرشاد الإسلامي»، عندما استقدم بعضاً من أبناء الكوناما والبازا، وأجلس لهم شيخاً يعلمهم القرآن، وذلك في المسجد المجاور لمنزلنا، مسجد الخليفة جعفر، كذلك كان الشيخ طاهر بن شقيق الشيخ قاضي عمار يقيم ليالي قرآنية.

وقـــرآءة (القرآن) ليلاً هـــي جزء من تراث الثقافة الإســـلامية، عرفه مسلمو منخفضات إريتريا، في القرى والحضر، إذ يتحلق الطلاب على نار موقدة، تتعالى ألسنتها لتضيء الساحة، وتبعـــث على الأنفس روح الهمـــة، وتطرد عنها النعاس، إذ يأت كل طالب بعود من الحطب، ثم تُشعل النار، وعلى ضوئها يقرؤون، خلال الفترة المخصصة من الليل؛ إذ لم تكن ثمة كهرباء.

■ العقوبة في «الخلاوي القرآنية»:

يُعطي الأب لشيخ القرآن كامل الصلاحية في تهذيب ابنه وتأديبه من أول يوم يسلمه فيه، حتى لو اقتضى الأمر ضربه، قائـــلاً له: «لنا العظم، ولك اللحم»، وبقدر ما تُعطي هذه المقولة الشيخ صلاحية ضـــرب الابن؛ تضع حداً لهذا الضرب وتقيـــده، بحيث لا يبلغ ضـــرره إلى القدر الذي يكســـر العظم، وبهذا يدرك الشيخ حدود سوطه أو عصاه فلا يتعداها، فهي مثل عقد تربوي بينه وبين الأب في معاقبة الابن إذا ما عصى.

لا يوقع الشيخ عقوبة الضرب إلا عند عبث الطلاب ســـاعة الحفظ، وانشغالهم بالمحادثة الجانبية بعضهم مع بعض، أوعند غياب الطالب من غير عذر مقبول أو استئذان مسبق، أو عند إخفاقه في حفظ مقطعه.

■ دور الخلاوي التربوي:

هناك جملة من الآداب التي يتعلمها طلاب الخلاوي، وتشمل تقديراً خاصاً للشيخ وللكبير واحترامهما، والتعاون فيما بينهم في تقســـيم رائـــع للعمل، فمنهم من يُحضر ماء الشـــراب، ومنهم مـــن يتكفل بميـــاه الوضـــوء، وآخرون يقومـــون بتنظيف الخلـــوة من التـــراب، وهم يستمعون لتعاليم شيوخهم، كما يرتدون الأبيض من الثياب، وكذلك يحاولون تمثّل صفات حامل القـــرآن: «أن يُعرف بليله إذا النـــاس نائمون، وبنهـــاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا النـــاس يضحكون... ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً».

وكذلك عندما ينتهـــي طلاب الخلاوي من عرض ألواحهم يقومون بمســـحها في مكان لا تدوسه الأقدام، وتوضع الألواح في مكان مرتفع تكريمـــاً لمكانتها، وهذا من باب احترام القرآن والأدب معه[1].

■ دور الخلاوي الاجتماعي وتفاعلها مع المجتمع وتأثيرها فيه:

يكتســـب الشـــيخ هالة واحترامـــاً خاصاً أصبغها عليه تفرغه وانقطاعه للقرآن وهجرانه الدنيـــا لتعليمه وتحفيظه، فـــإذا طلب الإبريق جـــاءه مملوءاً بالماء، وإذا طلب الســـراج جاءه مضـــاءاً، وهو ذو حيثية كبيـــرة بين أهل القرى المحيطة الذين يتوســـمون فيه الصلاح والخير والعـــدل، وكان في الماضي يقوم بدور القاضي الذي يقضي فـــي النزاعـــات، والمجير الذي يســـتجير به المظلوم، والأمن الذي يستظل به الخائف، ويساعد الطلاب شيخهم في مزرعته التي هي وقف للخلوة، وربما تمتد مســـاعدتهم لأهالي القرى المحيطة في روح تعاون نادر.

التكافل الاجتماعي في تعليم القرآن:

ومن قرى الريف ما ليس فيه (قرآن) وشيخ متفرغ لتعليم القرآن، إما لأن أهل القرية رحّل، تســـوقهم المواشـــي إلى حيث الكلأ ومنابت العشـــب، وليس لهم اســـتقرار، وإما لأنهم لا يستطيعون تحمل تكاليف القرآن، وإما لأنهم لم يجدوا شيخاً مناســـباً، أو لسبب آخر من الأســـباب، وفي هذه الحالة يأتي الحريصون منهم على تعليـــم أبنائهم القرآن أقرب مدينة

١) انظر:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1180421311460&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture/ACALayout

إلى ريفهم، ويبحثون عمن يتكفل بتعليم ابنهم القرآن من الأسر الميسورة، وقد عرفت كثير من المدن الإريترية هذا النوع من التكافل في تعليم القرآن، وتكفلت بعض أسرها أطفالاً من أبناء القرى، يأتي بهم آباؤهم، ويسندون أمر تعليمهم القرآن إلى أسرة من الأسر، إما لقرابة تربطهم، وإما لمعرفة سابقة تصلهم، وإما من باب الإحسان والتعاون على البر والتقوى، ومن جانبهم لا يقصر هؤلاء الطلاب الوافدون في خدمة الأسرة المضيفة، والمشاركة في تقديم الخدمات المنزلية، مثلهم في ذلك مثل أبنائها.

■ دور الخلاوي الثقافي:

الخلاوي تعلم بها الكثيرون من الإريتريين، وهي مراكز إشعاع ثقافي، فهي مصدر تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومبادئ الدين الإسلامي، ثم يشق الطالب بعد ذلك طريقه إلى الأزهر أو غيره من معاهد العلوم سواء الدينية أو الدنيوية.

■ الإجازات في القرآن، وأجرة نهاية الأسبوع:

القرآن أو الخلاوي القرآنية بصفتها حقل من حقول التربية والتعليم لا بد أن تكون لها أيام ومناسبات للإجازة (العطلة) ترويحاً عن الطلاب وتنشيطاً لهم، والإجازات في الخلاوي القرآنية أو (القرآن) - كما تعودنا على تسميته - منها ما هو أسبوعي، ومنها ما هو سنوي، فالإجازة الأسبوعية في يومي الخميس والجمعة، لكن جرى العرف على أن يسدد كل طالب الذي عليه من أجرة نهاية الأسبوع، تعطى للشيخ مساء يوم الأربعاء، بجانب ما يُعطى له آخر الشهر، أما الإجازات السنوية فتكون في عيدي الفطر والأضحى، ورأس السنة الهجرية، ويوم المولد النبوي.

■ الشّرّافة والختمة:

«الشّرّافة» و«الختمة» و «العودة المرة» مصطلحات طالما تداولتها الخلاوي القرآنية في المدن الإريترية، «الشُّرَّافة» بضم الشين المشددة، وفتح الراء المشدد، على وزن (فُعّالة) وهي صيغة المبالغة في اللغة العربية، مأخوذة من «شرف الشيء إذا علا قدره، وعظم شأنه»، والمراد بها هنا السورة القرآنية التي نال الطالب بوصوله إليها مرتبة من مراتب الشرف القرآني، وعلا بها قدره، وعظم شأنه، وعليه أن يظهر ذلك بإقامة حفل في اليوم الذي يبدأ فيه الشيخ رمي هذه السورة عليه، وبهذه المناسبة يلزمه تزيين لوحه برسم جامع بمنارة وقبة، يقوم برسمه واحد من ذوي الموهبة الفنية من طلاب الخلوة.

وعمل الشّرّافة يُشعر الطالب بأنه أنجز شيئاً مهماً في تعلمه للقرآن، ويرفع من معدلات حماسه لإكمال المشوار القرآني، والمضي في ارتقاء درجاته العليا، ويجد من الأسرة تشجيعاً، ودفعاً معنوياً، عندما تخبز له الأم خبزة سواء في مخبز المنزل أم بإرسالها إلى المخبز الآلي، وكل أسرة تحرص على حسن سمعتها، وتتجنب قدر الإمكان إحراج ابنها، فتبذل أقصى ما تستطيع في الاهتمام بجودة ما تعده من الخبز والشاي، لتصل الشّرّافة إلى القرآن وهي في أحلى طعم وأجمل منظر.

ثم تقطع تحت إشراف الشيخ إلى قطع بعدد طلاب القرآن، ثم توزع على الجميع.

وفي يوم الشّرّافة يطرق بعض الطلاب ومعهم ألواحهم المزينة برسم الجامع أبواب بعض المتاجر في السوق، يعرضون ألواحهم، ويترنمون ببعض الأناشيد التي منها (عندنا شرافة، شرافة نبينا محمد)، ويحظون ببعض الجوائز والهبات المشجعة.

وأمـــا «الختمة» فهي التـــي تكون عند ختم القرآن بإكمال ســـورة البقرة، رمياً من الشيخ، وعرضاً من الطالب.

و«العودة المرة» تُطلق على العودة الأولى بعد الختمة في بعـــض «القرآن»، لكونها أصعب من العودة التي تليها، فربمـــا أعاد الطالب القرآن مرتين أو ثلاثاً ليتقن حفظه.

و«المصحف» يُســـمى في عرف مســـلمي إريتريا «ختمة»؛ لكونه يحوي القرآن من أول ما نزل منه إلى آخر ما خُتم به، أو لأنه خاتم الكتب السماوية، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل عليهم السلام جميعاً.

سور الشّرّافة:

وسور الشّـــرّافة في (القرآن) محددة، فقد تعارفـــت الخلاوي القرآنية عندنا على أن تكون الشّـــرّافة في الســـور التالية: النبـــأ، الملك، المجادلة، الرحمن يقدم الطالب خبزاً وشاهياً. ســـورة يس ويذبح القادر من الطلاب شاة، وإلا قدم خبزاً وشاهياً.

أما «الختمة» فهي أعلى درجات الاحتفال، ولا تكون إلا بعـــد ختم القرآن بإكمال ســـورة البقرة، والطالب الميسور يذبح بقرة، وما رأيت أحداً فعل هذا في مدينتي «كرن».

■ المصاحف في القرآن:

اللوح الخشـــبي كما أســـلفت هو وســـيلة التعليم الأولى في «القرآن»، عليه يكتب الطالب مقطعه، ومنـــه يحفظه، أما المصحف فهو بيد الشـــيخ، يرمي منه ويراجع فيه، وكان الشـــيخ لا يكلـــف الطالب بشـــرائه لغـــلاء ثمنه وندرة وجوده، وبعض من المشـــايخ يحتفظ بمصحف مخطوط بخط يـــدوي، ثم صار حصول طلاب القرآن على المصحف أمراً ميسوراً، وذلك حين أحضر والدي الشـــيخ محمد صالح حاج حامد رحمه الله، مؤســـس «مؤسسة أصحاب اليمين التعليمية»، من بلاد الحرمين الشـــريفين كمية من المصاحف القرآنية المطبوعة، وُزعت على خلاوي إريتريا كافة مقابل خمســـة وعشـــرين سنتاً إثيوبياً تغطية لتكاليف الشحن.

■ القـرآن والدراسـة في المدارس الحكومية:

من شدة حرص كثير من الأسر الإريترية على ارتباط أبنائها بالقرآن؛ ظلت تسعى إلى التوفيق بين دراستهم في المدارس الحكومية وقراءتهم في «القرآن»، فإذا كانت الدراســـة صباحاً من نصيب المدرســـة فإن الفترة المســـائية تكون مـــن نصيب «القرآن»، وإذا تعذر التوفيق بينهما لأمر ما كأن تكون الدراســـة المدرسية صباحاً ومساءً؛ فإن الطالب يأتي إلى الشيخ مبكراً في الصباح، ويكتب مقطعه مـــن القرآن ثم يذهب إلى المدرسة، وفي المساء بعد المغرب يحفظ مقطعه، ويعرضه على الشـــيخ وهكذا، مثله في ذلـــك مثل الراعي، وعلى هـــذا المنوال ارتبط نفر من الطلاب بالقرآن بالرغم من دراســـتهم في المدارس الحكومية، ونمـــت فيهم الثقافة القرآنيـــة، وتكونت عندهم حصانة إســـلامية، تذكرهم بماضيهم الإســـلامي كلما حاولت فئة ضالة إضلالهم.

■ واقع الخلاوي اليوم:

بعد تحرير إريتريا مـــن الاحتلال الإثيوبي بواسطة جميع الإريتريين دون استثناء في أبريل ١٩٩١م، وتكويـــن الحكومة الإريترية برئاســـة إســـياس أفورقي، استبشـــر الإريتريـــون خيراً بهذا النصـــر العظيم، وعقدوا آمالاً عراضاً في الحكومـــة الجديدة لإعادة الحقـــوق الطبيعية للشـــعب الإريتري السياســـية منها والثقافية، ولكن بعد فترة قصيرة من التحرير كشف نظام

إســياس عن وجهه الحقيقي الكنسي والطائفي الكالــح، وقــام بتجاهــل الحقوق السياســية والثقافية للمســلمين، فقد تفتقت في أذهانهم الحاقدة فكرة تفتيت وتشتيت المسلمين ثقافياً، وفرض الجهل عليهم بحرمانهم من لغتهم العربية بالتدريج وفرض اللهجات المحلية عليهم.

لقد فقد الشــعب الإريتري في عهد النظام الطائفي الحالي أكثر مما فقده في عهد إثيوبيا، وأُغلقت معاهد وخلاوي لــم تغلق من قبل في عهد الاستعمار، وكذلك أغلقت المساجد، ومنع الشباب من تأدية العبادة.

■ الخلاوي تراث إريتري لا بد من حمايته:

هذا التراث الإريتري فــي العناية بالقرآن وتربيــة الأبناء على تلاوته وحفظه هو بالتأكيد تراث كل مسلمي إريتريا، في مدنهم وقراهم، ولا بد مــن المحافظة عليه، وإحياء ما اندرس منه واختفى، ففي ذلك بناء الشــخصية الإسلامية الإريتريــة على أسســها الحضاريــة، وربطها بثقافتهــا الإســلامية، وحمايتها مــن التلوث بالأفكار التحريفية، والتوجهات الانحرافية.

ولا بــد من تطوير الخلاوي القرآنية بحيث تواكب تطور عصرهــا، ويجد فيها الطالب من المحفزات ما يدعوه إلى التوجه إليها، ويشجعه على القراءة فيهــا، وذلك بتكوين لجان مهتمة، وجمعيات متخصصة في التعليم القرآني، توثّق تاريخ الخلاوي القرآنية في إريتريا كلها، وتاريخ من قام عليها من المشــايخ الذين علموا فيها، والأسر التي أنشأتها.

وتقوم أيضــاً بتوفير المصحــف، والمعلم المجــود، وتهيــئ المكان المناســب، وترصد الجوائــز للحفظــة مــن الطــلاب، وتجري المســابقات بين حفاظ المدن أو الريف على مســتوى الوطن كله، ثم بيــن الفائزين منهم، لتختــار منهم مــن يمثل مســلمي إريتريا في المســابقات الدولية لحفظ القــرآن التي تقام سنوياً هنا وهناك في عالمنا الإسلامي، وتتصل بالمحســنين الإريتريين وغيرهم من أجل بناء أوقــاف خاصة بالخــلاوي القرآنية، ينتفع من دخلها الشــيخ المعلم، ويصرف من ريعها على «داخليات» تستقبل أبناء الريف الذين لا يجدون من يكفلهم من أســر المدينة، وتوفر لهم الزاد اليومي، ويتخرج من هــذه «الداخليات» طالب القرآن وهو يتقــن بجانب حفظه للقرآن صنعة يعيش منها، من نجارة، وكهرباء، وأسس التجارة وأسلوب تعاطيها، وترجمة شــفهية وتحريرية مــن لغة إلى أخرى، وفــن التعامل مع الأجهزة الإلكترونيــة، والتعامل مــع الكمبيوتر، وذلك بإدخــال المتفوقيــن، والمقتدريــن من هؤلاء الطــلاب معاهد ومــدارس وكليات متخصصة على حساب هذه الأوقاف ونفقتها.

وبهذا تساهم الخلاوي القرآنية بمؤسساتها الاقتصادية في تخريج طلاب من أبناء المجتمع ذوي كفاءات علمية متنوعة، ونماذج يُحتذى بها في الحياة العلميــة والعملية، وليس بالضرورة أن يتخصص كل طلاب القرآن في الدراســات الشرعية بدخول المعاهد الإسلامية والكليات الشــرعية، كمــا كان مــن قبــل، وإن كان من الضــروري تطوير المعاهــد الدينية الإريترية أيضــاً من خلال التفكير فــي تطوير مناهجها ومصادر تمويلها.

وكم هو جميل أن تنشــأ نقابة باسم اتحاد الخلاوي القرآنية الإريترية، تكون تحت إشراف دار الإفتــاء الإريترية، وتكــون لها فروعها في كل المــدن الإريترية، وتقوم ببعض المهام التي تندرج في مجال التكافل الاجتماعي، كتأسيس صندوق تأمين تعاوني، يُقتطع له مقدار من دخل

كل شـــيخ عضو في الجمعية، ويستقبل الهبات والتبرعات مـــن أهل الخير، والـــزكاة النقدية وغير النقدية، ويوظف في اســـتثمارات مناسبة بأيد أمينـــة، وتُبنى منه أوقـــاف، ثم يعود إلى الشيخ في سن التقاعد، أو عند إصابته بمكروه، من مرض يعجز معه عـــن أداء مهمته، أو يعود إلى ذرية له ضعـــاف عند الوفاة، وبهذا يُحفظ للشـــيخ قدره، ويُوفى له حقه، ولا يكون القرآن والقائمون عليه عالة على غيرهم، وهكذا نحيي تراث (القرآن)، ويشارك المجتمع في الحفاظ على الهوية الإسلامية في إريتريا، ويحمي ذاته كما حماها من قبل يوم أراد المستعمر الإثيوبي طمســـها وتذويبها في ثقافتـــه الأمهرية، لغة وعقيدة، وبذلك يكـــون القرآن جزءاً لا يتجزء من التكوين الثقافي لمجتمعنا.

رحم الله جميع من رحل عن حياتنا هذه من حملة لواء القرآن، من الذين ســـبقونا بالإيمان؛ من مشايخنا الكرام، وتسببوا في تعليمنا، وبارك في الذيـــن خلفوهم، واهتدوا بهداهم في تعليم القرآن، والسهر على حفظه وتحفيظه، «خيركم من تعلّم القـــرآن وعلمه»، «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، ورد كيد المتآمرين على القـــرآن وخلاويه؛ من الذين حرضوا على إغلاقها، ويرون في إحيائها تخلفاً ورجعية، من فلول الماركســـيين والملحدين، ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠].

التنصير في إفريقيا
السودان نموذجاً

محمد فرج مصباح (*)

واجه الإسلام منذ بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تحديات كثيرة ومحاولات عديدة من يهود ونصارى ومشركين وغيرهم للقضاء عليه وطمس معالمه، وما تاريخ الدعوة الإسلامية منذ بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا إلا حكاية عن هذا الصراع الطويل، ومن أكبر الحملات ضد الإسلام اليوم من حيث الإمكانات والدعم الذي تجده من أكبر دول العالم حملات التنصير.

ولأهمية هذا الموضوع وخطورته أفردته بالبحث والدراسة.

وقد تناول هذا الموضوع عدة محاور:

- المحور الأول: التعريف بالتنصير وأهدافه.
- المحور الثاني: التنصير في إفريقيا، وسبب التركيز عليها.
- المحور الثالث: أساليب التنصير وأدواته.
- المحور الرابع: التنصير في السودان نموذجاً.

أولاً: التعريف بالتنصير وأهدافه:

التنصير في معناه اللغوي: هو إدخال غير النصارى في النصرانية، ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل مولود يُولد على الفطرة؛ فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه».

تطور مفهوم النصرانية عبر الأزمان، واختلطت بهذا المفهوم الفلسفة اليونانية ونظرتها لطبيعة المسيح عليه السلام، كما أثر في هذا المفهوم الاختلاط بالثقافات الأخرى مثل الفارسية والهندية وغيرهما؛ مما أكسبه بعداً وثنياً أبعده عما جاء به عيسى عليه السلام من الدين الحق.

وقد ارتبط التنصير بمسمّى آخر مخفف وهو «التبشير والمبشرون»، وارتبط الاثنان بالاستعمار الغربي، وقبله بالكشوفات الجغرافية، وقد طوّق التنصير والاستعمار العالم الإسلامي وحاصرا أطرافه، واستوليا عليه عن طريق الحملات الاستعمارية وتقسيم العالم الإسلامي بين الدول الاستعمارية: إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال وألمانيا، وأخيراً أمريكا، وتزداد اليوم حملات التنصير في المجتمعات الإسلامية والأقليات والجاليات المسلمة، آخذة بأساليب عديدة متجددة تختلف عن المفهوم الأساس المتمثل في محاولة إدخال غير النصارى في النصرانية.

التنصير ظاهرة متجددة ومتطورة في آن واحد، يأتي تطورها من تعديل الأهداف والوسائل ومراجعتها بين حين وآخر، ومن ذلك اتخاذ الأساليب العصرية الحديثة في تحقيق الأهداف المعدلة حسب البيئات وانتماءات المجتمعات التي يتوجه إليها التنصير، وقد أضحى التنصير علماً له مؤسساته التعليمية ومناهجه ومقرراته الدراسية.

(*) باحث مصري

لقد تنبه المسلمون إلى حملات التنصير منذ القدم، ووقف لها العلماء والولاة والمفكرون وعامة الناس على مر العصور، كل بحسب قدراته العلمية وسلطته، ورُصدت الأنشطة التنصيرية في المجتمعات المسلمة بخاصة وفي العالم بعامة، وصدرت الكتب والمجلات والرسائل التي تحوي الدراسات والمقالات والأبحاث، وقدّم هذا الإنتاج العلمي والفكري المتنوع في شكله ومجالاته تنبيهات وردوداً علمية على النصرانية المحرَّفة، وبدا الإقبال على التعرف على الحملات التنصيرية واضحاً، وتنامى الوعي والشعور بوجود تيارات تتحدى الإسلام والمسلمين، وتعمل على منافسته في عقيدة الناس ومنهج حياتهم.

ثانياً: التنصير في إفريقيا وسبب التركيز عليها:

علاقة القارة الإفريقية بكل من الدين الإسلامي والنصرانية موغلة في القدم، وثابتة في كتب التاريخ، ومع أن الديانة النصرانية سبقت الإسلام إلى إفريقيا بما لا يقل عن ستة قرون؛ فإن الإسلام استطاع في أقل من نصف قرن أن ينتشر في القارة بالشكل الذي جعل مراكز النصرانية جزراً صغيرة وسط بحار الإسلام الذي صار هو الأصل في القارة حتى طرأت النصرانية على القارة من جديد.

وقد جاء تدخل الغرب ليحول دون استمرار تقلص النصرانية من جهة، ودون إحراز الإسلام الانتشار والتقدم من جهة أخرى، فمع بدء القرن الخامس عشر الميلادي وجدت ظروف وأحداث أعادت ترتيب التاريخ الإفريقي، وأثرت في الجوانب الدينية والثقافية والحضارية في إفريقيا، وذلك بدخول الاستعمار الغربي في حلبة الحياة الإفريقية.

وبعد الغزو العسكري الاستعماري لإفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين اتجه الغربيون للغزو الفكري والثقافي والإعلامي لجعل الدول المحتلة ضعيفة الإمكانات، مسلوبة الإرادة، منهزمة معنوياً، وأصبح الفاتيكان يعتمد على الغزو العسكري والفكري ليمهد له الطريق أولاً، ثم تدخل الكنائس لتجد الجو مهيئاً لها للعمل وسط الفقراء والمعوزين؛ ولذا بدأ بابا الفاتيكان جون بول الثاني زيارة لإفريقيا في مايو ١٩٨٠م من زائير (الكنغو الديمقراطية حالياً) والكنغو ثم كينيا وغانا وبوركينا فاسو وساحل العاج قائلاً: «إنني أرجو أن يكون بحلول عام ٢٠٠٠م قد تنصرت إفريقيا جميعها»[1].

وفي فبراير عام ١٩٨٢م قام البابا بزيارة أخرى لإفريقيا ذات صبغة دينية؛ لتوحيد أعمال التنصير والمطالبة بالإصلاح الداخلي، وبدأها بنيجيريا منادياً بالعدالة والسلام والتقدم والدعوة إلى زيادة عملية التنصير، وخاطب البابا النصارى أمام حاكم كادونا المسلم وأخبره بضرورة تعاون النصارى مع المسلمين وإزالة التمييز بين الأفراد، ونادى بممارسة العمل لمصلحة البلد.

ثم زار دولة بنين، وقوبل برفض السيطرة الأجنبية في إفريقيا والنظام الفاشستي في بريتوريا، ونادى بتوسيع الحريات المدنية للكاثوليك لوقفتهم ضد قوانين الدولة المقيِّدة للتنصير والتي ستمنح بنين قفزة للأمام، وزار الجابون، وفي غينيا الاستوائية مدح الكاثوليك لوقفتهم أمام الرئيس السابق نجوما الذي حظر الكنيسة عام ١٩٧٨م، ونادى بالمصالحة بين الناس من أجل الصالح العام والتقدم، وزار أوغندا كذلك.

(١) التنصير في إفريقيا. نصر الهادي مصطفى.
http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=30

وعلى الرغم من مدح البابا للثقافة الإفريقية في زائير (الكنغو الديمقراطية)؛ فإنه رفض أن تُضمن العبادة الزائيرية في القداس البابوي، فشعر رجال الكنيسة المحليون بإهانة بالغة وأرسلوا وفداً للفاتيكان محتجين على ذلك الحظر، ورأوا أن إخوتهم الأفارقة المسلمين يجدون الراحة النفسية في اعتناقهم الإسلام، ويرون أن الإسلام واقعي في مواجهة مشكلاتهم الفردية والجماعية، وأنه نموذج مناسب لهم كأفارقة لسهولة شعائره ومواجهة الحياة، ويمنحهم الحرية في ممارسة شعائرهم.

على الرغم مما قدمته الكنيسة من مأكل ومشرب وتعليم وتوطين وعلاج، وأن هذه الأرقام خادعة، وقال البابا يمكننا فقدان مسيحيين كثر إذا لم تغرسوا الإيمان الديني الحقيقي الصلب في النصارى.

سبب التركيز على إفريقيا:

لم يأت اهتمام المنصّرين بهذه القارة من فراغ؛ فإفريقيا هي القارة الوحيدة التي يمكن تسميتها بالقارة المسلمة من بين قارات العالم، وكل شيء يشير إلى أن الإسلام هو دين المستقبل في هذه القارة، وأنها قارة المستقبل للإسلام، كما أن حاضر القارة يشهد واقعاً إسلامياً ملموساً تنطق به الحقائق الآتية:

١ - قرابة ٧٠٪ من المجتمع العربي المسلم في إفريقيا.

٢ - ٧٥٪ من الأراضي العربية الإسلامية في إفريقيا.

٣ - أكثر من ٦٠٪ من مجموع السكان مسلمون.

٤ - تشهد الدعوة الإسلامية صدى وتجاوباً لدى الأفارقة، وتسير بخطى واسعة.

المنصِّرون يخافون الإسلام ويعلمون مدى انتشاره وخطورته على دعوتهم في إفريقيا وغيرها من قارات العالم، فقد قال المنصّر بلس: «إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التنصير بالنصرانية في إفريقيا، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا؛ لأن انتشار الإنجيل لا يجد معارضاً لا من جهل السكان، ولا من وثنيتهم، ولا من مناضلة الأمم النصرانية وغير النصرانية»، ويقول فيليب فونداسي: «الإسلام يؤلف حاجزاً أمام مدنيتنا المبنية كلها على مؤثرات مسيحية ومن مادية ديكارتية.. فإن الإسلام يهدد ثقافتنا الفرنسية في إفريقيا السوداء بالقضاء عليها»[١].

لم يتوقف الدعم الأمريكي للتنصير وبخاصة في القارة السوداء، فكارتر الرئيس الأمريكي الأسبق بدلاً من أن يقيم ويرعى نشاطاً اجتماعياً في أمريكا كغالبية الرؤساء الأمريكيين، مثل (مكتبة ريجان، مركز روزفلت، مركز كيندي، مركز هوفر، جامعة أيزنهاور)؛ أقام مع زوجته (مركز كارتر) في مدينة أطلنطا مدعوماً من كنيسته من أجل البحث عن السلام في العالم، أو على حد قوله: «إننا نقوم بفتح صدورنا وقلوبنا للناس ونشر كلمة الله»[٢].

وقام المركز الذي يعمل من خلاله بمهام بارزة في العالم، وله نشاط في أكثر من ثلاثين دولة إفريقية ويتدخل المركز في جنوب السودان دائماً برجاله وإمكاناته ومنصِّريه، ولم يُخف كارتر اهتمامه بالسودان وبخاصة الجنوب السوداني، وعبَّر عن ذلك صراحة.

وتدخل حملات التنصير في إفريقيا تحت ستار المساعدات الإنسانية، فهناك ٥٠٠٠ طبيب و ٧٠٠٠ ممرض وممرضة، و ٢٨٩ ملجأ للأيتام، و ١٩٥ ملجأ للعجائز، و ١٦٣ ملجأ للمكفوفين، و ١٠٥٠ صيدلية توزع الأدوية مجاناً، و ٨٠٠٠ مستشفى متكامل

١) غزو تنصيري لإفريقيا، أحمد أبو زيد. http://www.alukah.net/articles/١/٨٤٧/aspx

٢) المصدر السابق نفسه.

الخدمات، و ١٧ ألف مركز طبي، و ١٧١ كلية ومعهداً عالياً، و ١٨٥٧١ مدرسة ابتدائية، و ١٠ آلاف مدرسة ثانوية، و ٢٠٠٠ مدرسة مهنية[١].

أطماع التنصير في إفريقيا:

تقول الدكتورة زينب عبد العزيز: (نطالع في بحث أجراه داود بيلار D. Beylard رجل الاقتصاد الكنغولي، في مجلة «إفريقيات» (وهي مجلة اقتصادية لكل إفريقيا)، يتضح أن مجمل الثروات الإفريقية يصل إلى ستة وأربعين ملياراً ومائتي مليون دولار؛ إذ يقول: «إن القيمة المالية للمناجم الإفريقية في المواد الخام الأولية التي تم اكتشافها حتى الآن تصل إلى ٤٦,٢٠٠ مليار دولار، لماذا إذن لا تفلح إفريقيا في الاستفادة من مثل هذه الثروات؟ إنها ثروة تكفي بكثير لتحويل القارة الإفريقية إلى واحدة من القوى العظمى في العالم...

وها هو ذا مثال آخر يقدمه الباحث: «هناك شركات مناجم بلا إمكانيات معقولة، وأحياناً بلا عاملين ولا مكاتب، تتبع شركات مساهمة مجهولة، مقيدة في السجلات الضريبية، وتصل بفضل الوعود والاستعراضات إلى إقناع الحكومات الإفريقية بأن تُسند إليها تنازلات منجمية ضخمة لاستغلالها، وما أن يتم الحصول على العقد فإن هذه الشركات تسارع في الحصول على تمويل شحيح، عادة ما يكون من كندا، لإضفاء قيمة على الأسهم الإفريقية وأخذ أرباح بفائض قيمة ضخم؛ حتى قبل أن يتم رفع جرام واحد من أرض المناجم التي حصلوا على حق استغلالها»، وهو ما يعني عملياً أنهم يحققون ثروة بضمان الموارد الإفريقية دون أن تكون هذه الموارد قد تم استغلالها فعلاً والأدهى من ذلك دون أن تأتي بأرباح للملاك الحقيقيين من الأفارقة أصحاب الحق المهضوم! ويا له من موقف فاضح وبخاصة حين نعرف أن نظام التمويل الدولي يستنزف الدول الإفريقية بمطالبتها بالفوائد المركبة للديون التي تتورط فيها عن طريق صندوق النقد الدولي![٢].

تتجه سياسة الفاتيكان منذ سنوات نحو تكثيف العمل التنصيري في القارة الإفريقية، فلأول مرة في تاريخ الفاتيكان يخرج البابا بنفسه من مقره البابوي ليزور الدول الإفريقية ثلاث مرات خلال خمس سنوات فقط؛ في حين ظلت سياسة الفاتيكان عبر تاريخ اهتماماته بإفريقيا مقصورة على إيفاد البعثات التنصيرية الكاثوليكية.

ويتزايد عدد الكاثوليك بشكل يدعو إلى القلق في القارة الإفريقية، فالكنيسة الكاثوليكية تكسب في كل عام مليوني إفريقي، وإفريقيا اليوم بها ٦٥ مليون كاثوليكي يمثلون ١٦٪ من سكان قارة إفريقيا، ويسعى الفاتيكان بكل وسائله إلى أن يصبح عددهم مائة مليون نصراني كاثوليكي، في حين أن أعدادهم في عام ١٩٠١م لم يتجاوز مليون نسمة فقط، وقد شهدت هذه الزيادة أعلى معدل لنموها في السنوات الأخيرة فقط[٣].

ثالثاً: أساليب التنصير في إفريقيا وأدواته:

أساليب عديدة ساعدت المنصِّرين، وظروف معدة هيأت لوصولهم للمجتمعات الإفريقية وتحقيق أهدافهم التنصيرية، ومن هذه الأساليب:

١) المصدر السابق نفسه.

٢) تنصير إفريقيا.
http://www.muslm.net/vb/showthread.php?t=366119

٣) الفاتيكان.. التنصير الكاثوليكي بالأرقام. محمود بيومي.
htm.5446-http://www.islamtoday.net/bohooth/artshow-14

١ – الاحتلال:

الاحتلال والتنصير وجهان لعملة واحدة، وتلك حقيقة أثبتت الواقع صدقها، فما أن يسيطر الاحتلال على بلد إلا ويبدأ فيها التنصير وتقام الكنائس، وقد يمهد التنصير للاحتلال والتوافق بين المحتلين والمنصِّرين حقيقة أثبتها التاريخ بصورة مطردة.

ويرى المنصِّرون أن السيادة الغربية في قُطر إسلامي معناها تسهيل انتقال المسلمين للنصرانية، يصرح بذلك الأب (دوفوكو) بقوله في مذكراته: «أعتقد أنه إذا لم يتم تنصير المسلمين في مستعمراتنا بشمال إفريقيا؛ فإن حركة وطنية ستقوم بها على غرار ما حدث في تركيا».

ويمكن القول بأن المنصِّرين يقومون بدور فعّال في التمهيد والدعوة إلى الاستعمار، وفي هذا يقول المنصِّر الأمريكي (جاك مندلسون): «لقد تمت محاولات نشطة لاستعمال المنصّرين لا لمصلحة الكنيسة، وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية»، ويقول (نابليون الأول) في مجلس الدولة بتاريخ ١٨٠٤/٥/١٢م: «إنه في نيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً لي في آسيا وإفريقيا وأمريكا، سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار، إن ملابسهم تحميهم وتخفي أي نوايا اقتصادية أو سياسية»[1].

٢ – الاحتواء السياسي:

دأبت الإرساليات النصرانية في إفريقيا للتأثير في القادة السياسيين لكسب عطفهم، ومن ثم إتاحة الفرصة لهم للعمل بحُرية، كما أن أغلب الدفعات الأولى من الطلبة في مدارس التنصير كانت من أبناء الزعماء والشيوخ والرؤساء المحليين ومن الطبقات المتميزة في المجتمع، وبعد التخرج يعمل هؤلاء رؤساء وموظفين مسؤولين ونافذين في الدولة، وبخاصة بعد خروج المستعمر، وخير مثال لذلك «ليوبولد سنغور» في السنغال و «جولويوس نيريري» في تنزانيا، وتحت مظلة أمثال هؤلاء تستطيع الكنائس أن تمارس التنصير الظاهر والخفي وسط المسلمين وغيرهم.

ومن أمثلة الدعم والاحتواء السياسي التي برع فيها الكاثوليك أخيراً زيارات البابا المتكررة لإفريقيا منذ عام ١٩٦٩م، فهذه الزيارات أظهرت أنه أصبح لإفريقيا أولوية لدى البابوية، وقد أعطت هذه الزيارات زخماً للنشاط الكاثوليكي في إفريقيا.

٣ – استغلال الفقر والمرض والجهل:

ما تعانيه الدول الإفريقية من انتشار الأمراض والفقر والكوارث الإنسانية؛ كان سبباً مهماً استغله المنصّرون لدخول هذه الدول تحت مسمّى أعمال الإغاثة الإنسانية وغيرها من المسميات التي تختفي تحتها نياتهم في تنصير هذه المجتمعات؛ لذلك تراجع نشاط العديد من المنظمات الإسلامية الخيرية، كما حدث مثلاً في النيجر التي يشكل المسلمون غالب عدد سكانها البالغ ١١ مليون نسمة؛ بسبب الحملة التي شنها الغرب ضد هذه المنظمات بدعوى أنها تدعم الإرهاب، وهو ما أتاح الفرصة أمام المنظمات التنصيرية أن تكثف نشاطها.

ومن أخطر تلك المنظمات منظمة «شهود يهوه»، و «الأخوة الكومبيون»، و «منظمة العمل

١) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته. أ. د. علي بن إبراهيم الحمد النملة.
http://www.islamhouse.com/files/ar/ih_books/single/ar_Baptism_is_understandable_goals_methods_and_ways_to_confront_it.doc

من أجل المسيح»، ومنظمة العمل من أجل تنمية النيجر، وقد حذَّرت الخارجية المصرية من هذه المنظمة التي اتخذت من النيجر مقراً لها للانطلاق لباقي الدول الإفريقية التي تعاني الفقر والجهل، والعمل على تنصيرهم عبر إلحاقهم بالمدارس وتقديم الخدمات الصحية لهم.

٤ - محاولات الفصل العرقي بين القوميات الإسلامية:

وإحياء النعرات القبلية في كل مكان دنسته القدم الاستعمارية، وقد تخصصت إنجلترا في ذلك بقاعدتها المعروفة (فرِّق تسد)، ولعل قانون المناطق المقفولة في السودان يعطي مثالاً حياً لذلك، وكذلك محاولات فرنسا في السنغال لفصل الجنوب عن الشمال، ومحاولات إيطاليا في الصومال، وتعاني هذه الدول اليوم نتائج تلك السياسات فيما تشهده من صراعات وحروب قبلية تهدد بتمزيق كياناتها وانفصال بعض أقاليمها.

٥ - ضرب اللغة العربية:

وهي لغة القرآن الكريم التي لا يمكن للإسلام أن ينتشر ويزدهر بغيرها، وقد عرف المستعمرون الصليبيون هذه الصلة فبذلوا كل جهدهم لإقصاء اللغة العربية من الميدان، وجعل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية اللغة الرسمية لبعض الدول، ولغة الطبقات المثقفة المؤثرة والقائدة في المجتمع، وحاربوا اللغة العربية في شمال إفريقيا وغربها وشرقها، كما فعلت فرنسا حين أصدرت (الظهير البربري) وأحيت (الأمازيغية) عند البربر لطمس اللغة العربية، وكما حدث في منطقة الهوسا حين استبدلت بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وفي شرق إفريقيا حين كتبت السواحلية بالأحرف اللاتينية.

■ وسائل (أدوات) التنصير:

١ - وسائل الإعلام:

وسائل الإعلام بأشكالها المختلفة من أخطر الوسائل التي اعتمد عليها التنصير في نشر أفكاره ودعوته، والوصول بها إلى جميع بقاع العالم.

لم يترك المنصّرون وسيلة إعلامية إلا استغلوها لخدمة أهدافهم وبث سمومهم؛ حتى وصل الأمر إلى استغلال كل جديد في أجهزة الإعلام من أقمار صناعية وبث مباشر وإنترنت، وتملك المنظمات التنصيرية كثيراً من الصحف والإذاعات الموجهة إلى البلاد الإسلامية، وقد أثبتت الدراسات وجود أكثر من مئة إذاعة كنسية في إفريقيا تبث برامج تنصيرية بمختلف اللهجات واللغات الإفريقية، كما يستغل المنصّرون وسائل الإعلام المحلية في البلاد الإسلامية نفسها لبث أفكارهم على عامة المسلمين، فما من بلد إسلامي إلا ونجد فيه صحيفة تنصيرية أو أكثر ما عدا بعض الدول القليلة كالمملكة العربية السعودية.

أشارت أحدث إحصائية صدرت عن التنصير في السنوات الأخيرة إلى أن عدد المجلات والدوريات والنشرات التنصيرية التي توزع في العالم تبلغ ٢٢٧٠٠ مطبوعة، أما محطات الإذاعة التنصيرية المسموعة والمرئية في العالم كله فتبلغ نحو ١٩٠٠ محطة.

٢ - توزيع «الكتاب المقدس»:

يُظهر الجدول أدناه تزايد الأعداد الموزعة من الكتاب المقدس بعهديه (القديم والحديث) والنشرات التنصيرية الأخرى:

الكتاب	عام ١٩٩٨م	عام ٢٠٠٠م	عام ٢٠٠٥م
توزيع الكتاب المقدس (العهد القديم) سنوياً	٢٢ مليوناً	٢٣,٩ مليوناً	٢٧,٣ مليوناً
توزيع العهد الجديد سنوياً	٣٤ مليوناً	٣٦,٨٠	٤٤ مليوناً
توزيع الكتب المقدسة والنشرات الأخرى	٦ ملايين	٦,٨ ملايين	٩,٧ ملايين

٣ - الإذاعات ومحطات التلفاز بالعالم:

يلاحظ من خلال الأرقام الآتية مدى اهتمام المنصّرين بوسائل الإعلام (الإذاعة والتلفاز)؛ حيث بلغت نسبة زيادة عددها أكثر من ٥٠٪ في عام ٢٠٠٥م عما كانت عليه في عام ١٩٩٨م:

البيان	عام ١٩٩٨م	عام ٢٠٠٠م	عام ٢٠٠٥م
عدد الإذاعات ومحطات التلفاز بالعالم	١١٠٣	١٢٠٦	١٥٩٨

٤ - أساليب حديثة في التنصير:

مع ظهور شبكة الإنترنت التي تتميز بسعة الانتشار على مستوى العالم؛ بدأت منظمات التنصير في التفكير في استغلال هذه الشبكة لتنصير العالم، وقامت عام ١٩٩٧م بإنشاء (اتحاد التنصير عبر الإنترنت)، والذي يعقد مؤتمراً سنوياً عاماً يحضره ممثلو الإرساليات التنصيرية والقائمون على الصفحات التنصيرية على الشبكة الدولية، وذلك لدراسة أفضل السبل لاستخدام إمكانات الإنترنت في عملية التنصير.

وقد أثمر هذا النشاط التنصيري الكبير من خلال شبكة الإنترنت، حيث أنشئت آلاف المواقع التنصيرية التي تفوق عدد المواقع الإسلامية بعشرات المرات، فالإحصائيات تؤكد أن عدد المواقع التنصيرية يزيد عن المواقع الإسلامية بمعدل ١٢٠٠٪، وأن المنظمات النصرانية هي صاحبة اليد العليا في الإنترنت حيث تحتل نسبة ٦٢٪ من المواقع، وبعدها المنظمات اليهودية، أما المسلمون فيتساوون مع الهندوس في عدد المواقع الذي لا يزيد عن ٩٪ من مواقع شبكة الإنترنت.

رابعاً: التنصير في السودان نموذجاً:

السودان من البلاد القليلة في العالم التي لها شخصية سياسية مستقلة في الأسرة الدولية؛ بسبب عدم انصهار عناصره القومية ومجموعاته القبلية في وحدة وطنية، وعدم الانسجام الكامل بين ثقافاته المختلفة، فقد ظلت كل فئة محتفظة بعاداتها ولغاتها، بالرغم من اتساع موارد السودان الاقتصادية، وأدى التنصير دوراً كبيراً في عدم الاستقرار وإعاقة التفاعل والانصهار القومي، وكان للحملات التنصيرية دور رئيس في التخطيط والمشاركة الفعلية في دعم الاستعمار البريطاني.

■ تاريخ التنصير في السودان:

دخلت النصرانية الى بلاد السودان منذ القرن الأول الميلادي، وفي منتصف القرن السادس الميلادي وهي الفترة التي غلبت فيها النصرانية على البلاد؛ كانت الهجرات العربية من مصر والجزيرة العربية تتجه صوب الممالك النصرانية المزدهرة في الشمال (نبتة، وعلوة، والمقرة)، وهو ما ترتب عليه نشر الثقافة العربية وظهور السلطنات الإسلامية الكبرى في القرن السادس عشر الميلادي.

وبعد خضوع البلاد للحكم التركي عام ١٨٢٠م أخذ النشاط التنصيري يزداد للعوامل الآتية:

١ - اختراق عقبة السدود النباتية:

كانت منطقة السدود النباتية المنتشرة في شمال المديريات الجنوبية العقبة الكؤود التي منعت دخول العقيدتين الإسلامية والنصرانية عن طريق النيل جنوباً؛ وهو ما أدى إلى عزلة القبائل الجنوبية عن العالم كله إلى أن جاءت المبادرة المصرية باختراق عقبة السدود النباتية لأول مرة؛ وبخاصة الرحلة الكشفية التي كانت بقيادة سليم قبطان (١٨٣٩م - ١٨٤٢م)، وتعد هذه الرحلة وما تبعها من رحلات كشفية من العوامل المهمة التي ساعدت على اندفاع حركات التنصير في إفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي، والذي عده علماء اللاهوت من أعظم قرون التوسع النصراني قاطبة.

٢ - تبني المنصّرين مسألة محاربة الرقّ:

كانت إنجلترا من أكبر الدول في العالم المصدِّرة للرقيق بعد البرتغال وإسبانيا، وفي عام ١٨٣٨م قدَّم «بكستن» مذكرة إلى الحكومة البريطانية عن محاربة الرق في إفريقيا، وذكر أن الطريقة الإيجابية للقضاء على هذه التجارة هو تمدين إفريقيا ورفع مستوى عقول سكانها وحشد المنصّرين، وأن تقوم الكنيسة بالدور المباشر في إحداث ذلك التغيير العظيم.

وربط المهتمون بشؤون الكنيسة محاربة الرق بعجلة إحياء البعثات التنصيرية؛ فاتجهت أول حملة من المنصّرين إلى الخرطوم بقيادة الأب «ريليو»، وأخذت تركز نشاطها على تحرير الرقيق وتنصيرهم عن طريق الشراء، وتبنّي الأيتام الذين توفي آباؤهم وأمهاتهم الأرقاء.

٣ - تغلغل النفوذ الأوروبي:

غادر الأب «كاسولانى»[1] الخرطوم ليستتجد بقناصلة الدول الأوروبية لإبعاد حكومة الخرطوم عن إعاقة نشر الإنجيل، فتوجه إلى القاهرة التي كانت تخضع لوصاية الدول الأوروبية منذ تسوية المسألة المصرية عام ١٨٤٠م، وقد ترتب على ذلك، بضغط الدول الأوروبية على عباس الأول (١٨٤٨م)، أن انتقلت عدوى تغلغل النفوذ الأوروبي من القاهرة إلى الخرطوم، وأصبح التجار والرعايا الأوروبيون في العاصمة السودانية ينعمون بحماية قناصلة الدول الأوروبية الذين أصبحت أعدادهم تزداد في الخرطوم. وبعد إنشاء القنصلية النمساوية في الخرطوم بعد عودة «كنوبلهر» من فيينا وروما استطاع المنصّرون التوغل جنوباً على النيل الأبيض بحرية كاملة، وأنشؤوا مركزين بين «الباري» في «غندكرو» وبين «الدنكا» في المكان الذي يعرف حالياً باسم «الكنسية» على الضفة الغربية للنيل غربي «جونجلي» أطلقوا عليه اسم «الصليب المقدس».

■ الكنائس السودانية:

(أ) الكاثوليكية:

عندما احتل كتشنر السودان ١٨٩٨م قدم قسيسان كاثوليكيان للسودان عقب غزو السودان

١) مدير جمعية تبشير الكنيسة البريطانية. وثاني رئيس لأول بعثة كاثوليكية معتمدة إلى جنوب السودان بقيادة الأب ريلو.

مباشرة وأنشآ كاتدرائية القديس متّى ومدرسة الراهبات فيما بعد، وقد ساعدهم الاحتلال البريطاني في فتح مدارس تعليمية، واحتكار التعليم والخدمات الصحية في جنوب السودان، ووضع مناهج تعليمية وفق النظام النصراني الأوروبي، وفتح الباب للإرساليات التنصيرية لمزاولة نشاطها، وإغلاق الجنوب في وجه الشماليين بإصدار قانون المناطق المقفولة عام ١٩١٧م؛ منعاً لانتشار الإسلام واللغة العربية، وحماية للنشاط التنصيري في الجنوب.

بدأت الكاثوليكية نشاطها في السودان بفتح أندية للجنوبيين وأبناء النوبة، وتقديم التعليم بلهجاتهم المحلية، وتجمعيهم معاً حتى لا يذوبوا وسط الشماليين المسلمين، وتدريب بعضهم ليكونوا دعاة للكنيسة، ودرب بعضهم فنياً ومهنياً؛ إضافة لتقديم العلاج والتعليم، ونشطت حركة بناء الكنائس ومعاهد تدريس اللاهوت والطباعة وإصدار النشرات.

بدأت تتدفق أعداد كبيرة من المنصّرين بعد اتفاقية أديس أبابا ١٩٧٢م وتبادل السفراء بين السودان والفاتيكان، فقامت وكالة سودان أيد - أمينها «دجيمبو» - المتخصصة في مساعدة النصارى بتشييد الكنائس بالجنوب، وإيواء الجنوبيين والنوبة بالعاصمة والسكن العشوائي في أطرافها المختلفة، وكذلك اهتمت منظمة خدمات الإغاثة الكاثوليكية الغربية باللاجئين، فالكنائس الكاثوليكية تقوم بمهام النشاط الديني، والمؤسسات الإرسالية تهتم بالتعليم والصحة والإسكان، ومن أهم مؤسساتها التعليمية مدارس كمبوني. وفي سعيهم للسيطرة على التعليم قاموا بتأسيس كلية غردون (جامعة الخرطوم حالياً)، وكلية قويني للاهوت، ومستشفى بأم درمان، وقد اهتمت الكنيسة بالأنشطة العامة، وشجعت المنصّرين على الزواج لتأسيس أسر نصرانية، والاهتمام بإنشاء الأندية والمراكز الاجتماعية لعدم ذوبانهم في المسلمين، وتمت ترجمة الإنجيل للغة الدينكا ١٩٣٣م .

(ب) الإرساليات البروتستانتية:

من أهم الإرساليات التنصيرية جمعية التبشير الكنسية البريطانية لإفريقيا والغرب (C.M.S)، فهي أكثر الإرساليات نشاطاً لارتباطها بكنيسة الدولة البريطانية (١٧٩٩م)، ويرعاها أسقف كنيسة كنتربوري، وأصبح رئيس الأسقفية الإنكليزية بالسودان (ج اسبنسر)، ويعد حجة في المسائل الدينية النصرانية والإسلامية، ومن تلامذته فيليب غبوش المنصّر السوداني المعروف بشدة عدائه للإسلام والمسلمين وإثارته للفتن الدينية والسياسية.

■ استراتيجية العمل التنصيري:

ركّز التنصير على محتاجي إفريقيا وفقرائها واستغلال حاجتهم إلى الخدمات التعليمية والصحية والغذاء والكساء، وذلك بتقديم التعليم وفتح المدارس، وفتح المستشفيات وتقديم الدواء والعلاج، إضافة للإغاثة والغذاء وحفر آبار المياه، وقد ساعدهم النفوذ الاستعماري في حكمهم لإفريقيا وتوظيف الأفارقة النصارى في الوظائف العليا، وتقديم الدول الأوروبية لإعانات كبيرة للمنصّرين بواسطة المنظمات الكنسية الأوروبية، وتوجيه المساعدات إلى مناطق تمركز النصارى، وقد حلّت المنظمات الكنسية مكان الدول المستعمرة لإفريقيا بعد انسحاب تلك الدول، ثم أنشأت الدول المستعمرة ما عُرف بدول الكومنولث للمستعمرات البريطانية، ودول الفرانكفونية للدول المستعمرة بواسطة الفرنسيين وبخاصة دول غرب إفريقيا.

كما يعمل الغرب والكنيسة على تحقيق أهدافهم التنصيرية في إفريقيا عن طريق الضغط السياسي والاقتصادي على الدول الإفريقية، وتستغل الولايات المتحدة ما تقدمه من معونات للضغط على الدول التي ترفض الإذعان لأمريكا، فقد أوقفت معونتها للسودان أيام حكم النميري والإنقاذ لتطبيقهم للشريعة الإسلامية.

وتعمل الدول الأوروبية المستعمِرة لترسيخ أقدام النصرانية، ومدها بالمعونات المادية التي تساعدها من نشر أفكارها وتقديم الخدمات للفقراء وتنصيرهم من ناحية، وربط أفكار الأوروبيين بمفهوم الحضارة والتقدم والحرية والمساواة وحقوق الإنسان من ناحية أخرى، إن أكثر المنظمات الكنسية لها أجندة سياسية مرتبطة مع الدول الاستعمارية.

تتولى المنظمات الكنسية بعض المشاريع الإنسانية العلاجية والتعليمية والإغاثية، مثل: «الراهبات» و «أطباء بلا حدود» و «مدارس كمبوني» و «سنت جيمس»، ويتم ربط هذه المؤسسات الخدمية بالأنشطة الاجتماعية كجمعية «القديس منصور»، و «القديسة ماريا تريزا» بالدمازين بالسودان، وربط هذه الكنائس باسم القبائل لضمان استمراريتها.

وتقوم الكنيسة بإنشاء مراكز دراسات لمراقبة المنظمات الإسلامية ونشاطاتها، وتضع الكنائس استراتيجيات للعمل وسط الهيئات النسوية، كجمعية أمهات السودان، وجمعية ربات البيوت في كادقلي بغرب السودان التي تقوم بتزويد النساء بماكينات الخياطة ووسائل تربية الدواجن والماعز، وتقديم دورات في التدبير المنزلي، وتدريب الفتيات على التمريض، وتكليفهن بتوزيع المطبوعات النصرانية، كما تقوم الكنيسة بطباعة الإنجيل بأشهر لغات القبائل الإفريقية، وقد وصلت طباعة الإنجيل باللغة السواحلية للطبعة الستين.

تعمل الكنيسة على خداع الأطفال والسذج من المواطنين بادعاء حصولهم على محبة وبركة المسيح، فتقدم للأطفال العصائر الملونة على أنه بركة المسيح، وتقدم الخبز واللبن للجياع على أنه من المسيح، مع الترويج لحكايات وأغان من التراث النصراني لتقريب صورة المسيح إليهم، وإيهامهم بأنه مخلصهم من النار.

■ التنصير في الجنوب السوداني:

سكان الجنوب السوداني الأصليون مجموعة من القبائل الوثنية التي لم تعرف الأديان السماوية إلا منذ عهد قريب، وذلك لأن طبيعة الجنوب صعبة، فالأمطار تستمر هناك لمدة عشرة شهور، والغابات ممتلئة بوحوشها التي تفتك بالإنسان وحشراتها التي تسبب كثيراً من الأمراض، لذلك ظلت الأديان السماوية غير معروفة لدى الجنوبيين لصعوبة الوصول إليهم، ولم تعرف قبائل الجنوب الأديان إلا منذ عهد محمد علي وبعد أن تم اكتشاف منابع نهر النيل.

بدأ تآمر الاستعمار والكنيسة لتنصير الجنوب والحيلولة دون انتشار الإسلام فيه وفيما يليه جنوباً عن طريقه، وذلك عندما لاحظ المستعمر أن هجرة التجار من شمال السودان إلى جنوبه أدّت إلى انتشار الإسلام في الجنوب.

وأخذ الإسلام في الانتشار بين القبائل، وبلغ عدد المسلمين في بدء الدعوة الإسلامية هناك ١٤٨٢٤١ مسلماً بمديرية أعالي البحار، و ٢١٦٠٠٨٠ مسلماً بمديرية بحر الغزال، و

١٢٤١٧ مسلماً بالمديرية الاستوائية بالجنوب السوداني، وذلك ما أزعج وأفزع المؤسّسات التنصيرية فعملت على محاربة الإسلام واللغة العربية.

نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية في أبريل ٢٠٠١م تقريراً عن نشاط المنظمات التنصيرية ودورها في حرب الجنوب، صدَّرته بعنوان «جنود المسيح»!! قالت فيه إن الحرب في جنوب السودان أصبحت حرباً صليبية!! وتكلمت المجلة عن طائرات المنظمات الكنسية التي تروح وتغدو في مناطق التمرد، مع أن بعض تلك المنظمات، مثل منظمة «صندوق الراعي الصالح»، تحتفظ بأفرع لها في عاصمة البلاد (الخرطوم)!! كما تكلمت عن ملايين الدولارات التي كانت تلك المنظمات تسكبها تحت أقدام قادة التمرد، وقالت: إن ١٧ مليون دولار أمريكي أنفقتها منظمة واحدة هي «الوكالة الأمريكية للتنمية» دون علم الحكومة السودانية!! ومن تلك المنظمات «برنامج المساعدة النرويجي» الذي ظهر مؤخراً مروِّجاً لدعاوى الإبادة الجماعية في دارفور!!

لقد كان الدور الكنسي الأجنبي حاضراً بعمق في كل أزمات السودان منذ أن جاء المنصّرون الأوائل في عهد السيطرة التركية السابقة، وطرقوا أرض جنوب السودان في زي العلماء ومكتشفي منابع النيل، فأقاموا «حظائر الرقيق»، ثم أخذوا التهمة وألصقوها بالسودانيين!! وكان حاضراً عندما جاؤوا في ركاب الجيش الإنجليزي الغازي بعد سقوط دولة المهدية، وأقاموا كنائسهم وإرسالياتهم برعاية الحاكم الأجنبي الجديد.

وكان الدور الكنسي حاضراً في أول تمرد للفرقة العسكرية في (توريت) بجنوب السودان، واستمر في كل مراحل الحرب المدمرة؛ حيث كان «الأب ستارينو لاهوري» واحداً من مؤسسي حركة «الأنانيا وَنْ»، وكانت جيوش المنصّرين الأجانب تقف خلفه، حتى عندما قام الفريق إبراهيم عبود بطرد كل المنصّرين الأجانب من السودان؛ قامت الفاتيكان ولم تقعد، لتتكلم عن الاضطهاد الديني في الجنوب!! وهو الاضطهاد الذي جاء البابا يوحنا بولس السادس إلى الخرطوم في ١٠ فبراير من العام ١٩٩٣م ليتكلم عنه واصفاً السودان بأنه أكثر بلاد العالم المسببة لأرقه، قائلاً: «حيث لا قانون! فقط المعاناة! فقط الألم! أولئك الذين يموتون في سبيل المسيح حينما يتم تخييرهم بين الإيمان به وبين حصولهم على الطعام لهم ولأسرهم! ولكنهم يختارون إيمانهم! شهداء ولكن لا أحد يعلم!!»، كانت كلمة البابا تلك قد رُتِّبت وفقاً لتقارير أعدها الأسقف «مكرم ماكس قاسيسي» الأسقف السابق لكنيسة الأبيض، وهو رجل ضالع في كثير من الأدوار المشبوهة ضد السودان، منها أدوار رتَّبت «خلفيات التدخل اليهودي في دارفور».

لقد حققت الكنيسة العالمية انتصاراً كبيراً في جنوب السودان بتوقيع اتفاقية نيفاشا، تلك الاتفاقية التي حققت للكنيسة أحلامها السابقة في إيقاف انتشار الإسلام في جنوب السودان وزحفه جنوباً ليعم ما يطلقون عليه «إفريقيا الزنجية»، بل استطاعت أن تجعل الجنوب نقطة ارتكاز للنصرانية في تقدمها نحو الشمال المسلم!! لقد انتقل المشروع الكنسي العالمي للعمل في دارفور حيث اندفع طوفان هائل من المنظمات التنصيرية الكنيسة إليها.

استخدمت الكنيسة في معركتها لنشر التنصير ومحاصرة الإسلام كل سلاح يمكن استخدامه لتغيير الديموغرافيا المحلية وامتلاك السودان، وذلك بالعمل – تحت ستار

الإغاثة - على الإبقاء الدائم لحالة النزوح ومحاربة الاستقرار ودعم التمرد والترويج لدعاوى الإبادة الجماعية للعرق الزنجي من قبل العرب المدعومين من النظام الأصولي في الخرطوم!

■ التنصير في دارفور:

تسللت جماعات التنصير إلى إقليم دارفور تحت غطاء طلقات الرصاص وأعمال العنف المتبادل بين متمردي الإقليم والقوات الحكومية السودانية، وبدأت تركز جهودها في مخيمات اللاجئين الذين شردتهم الحرب، حتى إن عدد منظمات التنصير وصل إلى ما يقرب من ٣٠ منظمة تعمل تحت ستار المنظمات الإنسانية، وأعلنت منظمة «كاريتاس» العالمية الكاثوليكية أنها تستهدف ١٢٥ ألف مسلم في دارفور، وأعلن أمين عام المنظمة أن هنالك مليون شخص في دارفور معرضين للموت، وفي حاجة إلى الحماية، وهذا العدد الضخم يعد صيداً سهلاً لمنظمات التنصير.

وفي مطلع عام ٢٠٠٠م أعلنت الخارجية الأمريكية عن إرسالها ٧٠ فرقة تنصيرية إلى جنوب السودان مؤهلين ومدربين على العمل في أصعب الظروف في قلب الغابات والحروب والأمراض، وتضم كل فرقة أطباء وممرضات ومهندسين وفلاسفة وعلماء، وهذه الفرق هي طليعة لأكثر من ثلاثة ملايين منصّر أعلنوا استعدادهم للذهاب إلى كل مكان على الأرض للدعوة إلى دين المسيح.

وأكد وزير الداخلية السوداني السابق أحمد محمد هارون أن عدد المنظمات التنصيرية الأوروبية والأمريكية العاملة في دارفور بلغت أكثر من ٣٠ منظمة، وأشار الوزير السوداني إلى أن هذه المنظمات تقوم بأدوار في غاية الخطورة، وتستغل العمل الإغاثي في عمليات التنصير، مؤكداً أنها باتت واحدة من آليات النظام السياسي العالمي الجديد، وأصبحت مسؤولة عن إعداد مسارح الحرب للآخرين، وأشار إلى أنها تقوم بأدوار في غاية الخطورة، وتستغل العمل الإغاثي في عمليات التنصير في دارفور الذي يقطنه غالبية مسلمة، ولا توجد به كنيسة واحدة.

■ قلق الحكومة السودانية:

قرّرت الحكومة السودانية مؤخراً طرد أعضاء بعض المنظمات الدولية التي تعمل في مجال الإغاثة الإنسانية من السودان لعدم الالتزام بقوانين البلاد وتدخلهم في الشؤون السياسية، وقد طلبت الولايات المتحدة الأمريكية من السودان التراجع عن قرارها، ولم تكن هذه المرة الأولى التي تلجأ فيها السلطات السودانية إلى طرد بعض العاملين في مؤسسات الإغاثة الدوليّة من السودان، فقد سبق للسلطات السودانية أن طردت ٢٧٢ شخصاً من العاملين بإحدى وكالات الغوث الكاثوليكية، كما طردت ٢٨ عاملاً بمؤسسة للغوث التابعة للكنائس البروتستانية؛ بعد أن ثبت للسلطات السودانية أن العاملين في هذه المؤسسات يستغلون حاجة اللاجئين إلى الدواء والكساء والطعام والإيواء، ويعملون لتغيير عقيدتهم الإسلامية.

■ التنصير في السودان بالأرقام:

نُشِر حديثاً بالخرطوم دراسة للأب الدكتور «ج فانتين»، جاء فيها: إن عدد النصارى بالسودان كان عشرة أشخاص فقط في عام ١٩١١م، زادوا إلى ١٥٠٠ شخص عام ١٩٢١م، وأصبحوا عشرة آلاف شخص في عام ١٩٣١م، ثم ارتفع العدد إلى مائة ألف عام ١٩٥١م، ثم إلى ٣٠٠ ألف عام ١٩٦١م، وإلى ٤٨٠ ألف عام

١٩٦٤م، وأصبح عددهم ٨٨٠ ألف في عام ١٩٨٢م، أما اليوم فقد تجاوز عدد النصارى في السودان أربعة ملايين نسمة.

أما عدد الكنائس بالسودان فقد بلغ ١٢٠٠ كنيسة في عام ١٩٨٢م؛ إضافة إلى٦٠ مركزاً تنصيرياً، وعدد كبير من المؤسسات التنصيرية المتخصصة في التعليم والصحة، وبلغت قيمة ممتلكات هذه المؤسسات التنصيرية ما يزيد على ٦٠ مليون جنيه استرليني.

وختاماً:

مع تنامي ظاهرة العودة إلى الإسلام على مختلف المستويات، ولا سيما الشباب، يتنامى الوعي بما يواجه الأمة من تحديات التيارات الضالة وخطرها، ومن بينها التنصير، وهذا الوعي جانب مهم في استراتيجية مواجهة خطر التنصير، لكنه ليس الجانب الوحيد، فهناك مثلاً المواجهة بإحلال البديل الصالح، لا من منطلق الدفاع واتقاء الهجمات فحسب، بل لسد الطرق أمام الذين يحاولون تحقيق أهداف التنصير في المجتمعات المسلمة.

مواجهة التنصير تدخل في إطار الصراع بين الحق والباطل، ولذا فإنه يُتوقع للمواجهة الاستمرار، وهو ما يستلزم مواصلة تقويم الأهداف والأساليب والوسائل والخطط والاستراتيجيات والنتائج، ولا يصح التعويل كثيراً على مجرد المؤشرات الحسنة التي ظهرت على الساحة الإسلامية، بل لا بد مع هذا من تكثيف الجهود في مواجهة الحملات التنصيرية، واستخدام الأساليب والوسائل الحديثة، وألا يظن الدعاة المسلمون أنهم سيواجهون التنصير لأنهم على الحق، فيكتفون بوسيلة الدعوة في المواجهة، فعلم الداعية بالحق لا يعني علم المحيطين به بمجرد إعلامهم به.

ولعل من وسائل مواجهة الحملات التنصيرية[1]:

١ – الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة: فالمواجهة العملية أن نقدم للآخرين من مسلمين وغير مسلمين البديل الذي نعتقد أنه الحق، وهو الإسلام الذي جاء به القرآن الكريم وسنَّة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، ولا بد أن يقوم هذا التقديم على فقه وحكمة ووعي بالواقع.

٢ – هيئات الإغاثة: وقد ظهرت على الساحة الإسلامية مجموعات كثيرة من الهيئات والجمعيات واللجان الإغاثية الإسلامية، والتي قدمت ولا تزال تقدم جهوداً كبيرة في إحباط محاولات التنصير عبر الفقر والجهل والمرض، لكن الأمل في أن تتكامل تلك الهيئات والجمعيات، وتسعى إلى تطوير أساليبها ووسائلها بما يناسب حجم المواجهة.

٣ – علماء الأمة: والعلماء وطلبة العلم يناط بهم عمل عظيم في هذا المجال، فهم الذين يديرون الدفة العلمية والفكرية، وهم الذين يملكون القدرة والتأثير بعلمهم وحكمتهم.

٤ – استثمار طاقات الشباب: يملك شبان الأمة الطاقة والقوة وشيئاً من الفراغ والرغبة، وهو ما يثير فيهم التطلع إلى خوض المغامرة، ومع شيء من التوجيه يمكن أن يساهم هؤلاء في التصدي للتنصير والمنصّرين.

والأمر يتطلب تخصص دعاة لمواجهة التنصير، يكون الواحد منهم بطلاً يسد ثغراً، كما كان الشيخ (أحمد ديدات) رحمه الله.

---

١) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته. علي بن إبراهيم الحمد النملة.

الهجرة في واقع الممالك الإسلامية
في غرب إفريقيا

د. آدم بمبا (*)

لا شـكَّ أن أعظم الوقائع الإنسـانيَّة التي غيَّرت مجرى التاريخ، وشكَّلت معالم الحضارة البشـريَّة هي الهجـرة النَّبويَّـة. التي لا تزال نموذجاً يسـتلهم المصلحون دروسها وعبرها في إنعاش الحركات التَّجديديَّة كلَّما استبدت الحال بالمسـلمين، واحتاجوا إلى تنقية الحياة الإسلاميَّة.

مـن الخصائـص المميـزة للحـركات التصحيحيـة والتجديدية في تاريخ الإسـلام بإفريقيا قيامها على ثلاث شـعائر إسلامية لا تحيد عنها، هي: الحج والهجرة والجهاد، وهي خطـوات أو مراحل ثلاث لم نجد في الحركات التصحيحية الإسـلامية وزعمائها في إفريقيا من ترك واحدة منها في مشـروعه التجديدي، إلا من اضطرته بعض الظروف إلى ترك مرحلة دون غيرها، وهذا قليل.

وسـببُ الاهتمام بفقه الهجرة في أطراف العالَم الإسـلاميِّ هو احتكاك المسـلمين في تلك الأطراف بغيرهم مـن أصحاب الدِّيانات الأخرى، وعيشـهم رعايـا ـ مضطهدين غالباً ـ تحـت حكومات وقوى لا تدين بالإسـلام ولا تحترم شـعائره، ولا تراعي المبادئ الإنسانيَّة النبيلة في حسن الجوار ومعاملة الإنسان لأخيه بالحسنى؛ فكان لا بدَّ من تكون أدبيات الهجرة، ومفاهيم الولاء والبـراء، ودار الكفر، وما إليها من مفاهيم في ظلِّ تلك الظُّروف المختلفة عن ظروف حاضرة الإسلام.

أولاً: الشيخ عثمان دان فوديو [1]:

ولـد الشـيخ عثمـان دان فوديـو عـام (١١٦٧هـ/١٧٥٤م) بمدينـة غوبر شـمالي نيجيريا الحديثة، وهو ينتمي إلى أسـرة علميَّة توارثت العلم والدَّعوة في بلاد الهوسـا. تلقَّى العلوم الشَّـرعيَّة وفنون اللغـة العربية على يد مجموعة من المشـايخ معظمهم مـن أقاربه، ورحل إلى بعض الحواضر والمراكز الإسلاميَّة في أفريقيا آنذاك. نشـط الشـيخ عثمان دان فوديو فـي الدَّعـوة وتدريس العامَّـة مركِّزًا جهوده في محاربة البدع والخرافات، وسرعان ما اشـتهر وظهر أمره، وكثـر أتباعه؛ فناصبه الملوك الوثنيون العداء، وبادأوه بالقتال؛ فأعلن الجهـاد عليهم، وما هي إلا فتـرةٌ وجيزةٌ حتى سـقطت في يديه تلك الممالك الوثنيَّة تباعًا، فأسس الشيخ دولة إسلاميَّة عاصمتها صُكوتو، وحكم بالشـريعة، وتفرَّغ بعد ذلـك للتَّدريس والتأليف، بعد أن وكل الأمور إلى أخيه وابنه. له ما يربو عن مائة كتاب. توفي الشيخ عثمان عام (١٢٣٢هـ/١٨١٧م). وكانت الدولة التي أسَّسها أرقى الدُّول الإسـلاميَّة في أفريقيا بشـهادة المناوئين لها من المؤرِّخين المستشرقين.

وقـد ورد مفهوم الهجرة لدى الشَّـيخ في كتابه: «بيان وجـوب الهجرة على العباد»، الذي يعدُّ المرجعيَّة الفكريَّة الأساسيَّة لحركته ودولته.

وتعد حركة الشَّـيخ عثمـان دان فوديو خير نموذج للتلازُم الوثيق بين الحج والهجرة والجهاد؛

(*) أكاديمي من ساحل العاج - محاضر بكلية الدراسات الإسلامية. جامعة الأمير سونكلا نكرين - فطاني تايلاند.

(١) سبق الحديث عن دعوة الشيخ عثمان دان فوديو في العدد الأول من مجلة قراءات إفريقية . رمضان ١٤٢٥هـ اكتوبر ٢٠٠٤م

إذ بـــدأ دعوته التصحيحية بتعليم العامَّة وتكثيف النشـــاط التَّثقيفي بين المســـلمين، وما لبث أن ناصبه ملوك الهوسا العداء، فهاجر هو وجماعته، وأعقب ذلك دعوته إلـــى الجهاد حين أغار عليه أمير «يُنْف» وبادأه بالحرب[1].

والملاحظ في سياق الحركة الفُوديَّة خلوُّها مـــن الحج، غير أن ذلك ليـــس قادحاً في هذا النموذج؛ لأن الشـــيخ قد شُـــغل بالجهاد، وكان في شـــبابه قد عزم علـــى الحج وخرج له، لكن لم يُقدَّر له ذلـــك، يقول عبد الله بن فودي في (إيداع النُّســـوخ): «ثم سار الشيخ عثمان لطلب العلم إلى شـــيخنا جبريل، وصاحَبَه نحو ســـنة يتعلم منه، حتى بلغ معـــه قرية أقدس، فرجعه الشـــيخ جبريل إلى أبيه، وســـار هو إلى الحج لكون أبيه لم يأذن له في المسير إلى الحج»[2].

ثانياً: الشيخ عمر تال (عمر بن سعيد الفوتي) دعوته وهجرته:

هو الشَّـــيخ عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي الطُّوري الكِدِوي، المولود ببلدة «حلوار» بمنطقة «فوتا تـــورو» جنوب السِّـــنغال الحالية في عام ١٧٩٤م تقريباً، من أسرة وعشيرة علميَّة مشهورة بالمنطقة، تفيد المصادر التاريخية أنه درس في المحاضر العلميَّة المنتشرة آنذاك بمنطقة «فوتا تورو»، ومن ثمَّ خرج منذ سنِّ الخامسة عشرة إلى محاضر «فوتا جالون» في أقصى الجنوب الغربي من بلاد غرب إفريقيا، ولم يطل به العهد هناك حتى أصبح معلماً مقرئاً، وما لبث أن شدَّ رحاله إلى الدِّيار المقدَّسة للحج عام ١٨٢٥م.

ومن فوائد رحلة الحج الأولى التي أثّرت في شخصية الشـــيخ عمر زيارته للحواضر العلمية آنذاك على امتداد طريق الحج الذي يمر ببلاد الســـودان الغربي، ومن ذلك «بوبو جُولاسُـــو»، وكانت مشـــهورة بعلم التفســـير و الدراســـات اللغوية، وفي «كبُونـــغ»، و«صُكوتو» وقد اجتمع في الأخيرة بالســـلطان محمد بللو، ووقف من كثب على كثير من أحوال المسلمين بالمنطقة، ومما آلمـــه كثيراً ما رآه من فُرقة بين الدولتين الإســـلاميتَين المتجاورتَين «بورْنو» و«صكوتو»، فعزم على الإصلاح بينهما، لكنَّه أحجم عن ذلك خشية الإخفاق في مسعاه، ومخافة أن تصرفه تلك المساعي عن مقصده الذي خرج من أجله، لكنه سعى في الإصلاح بينهما إثر عودته حتى أفلح في ذلك.

وفي مصـــر التقى كثيراً مـــن علماء الأزهر، وأفـــاد مـــن الجو العلمـــي والثقافـــي بها، وفي مكَّـــة بعد أن أدَّى فريضة الحج اجتمع بأســـتاذه أحمـــد الغالي، فتتلمذ عليه وعلى عدد من علماء الحرمَين مدة ثلاث سنوات، وحصل على إجازات.

في طريق عودته من الحج وقف الشيخ عمر بصكوتو للقيام بمشروع المصالحة الذي قطعه على نفسه، وكان الهدف الحقيقي لتلك الوقفة، أن يتأمل عن قرب مجريات الحكم والسِّياســـة والإدارة بهذه الدولة الإسلامية التي كانت آنذاك في أوْج تألقها وازدهارها، وطال مكثه بصكوتو ؛ إذ مكث بها ست سنوات (١٨٣١م – ١٨٣٧م)، وغادرها مباشرة بعد وفاة السلطان بللو.

وقد ذكر المؤرخ موســـى كَمَارا في (زهور البساتين) أن الشـــيخ عمر تعلَّم فنون الحرب، وأن السلطان بللو عهد إليه قيادة بعض الحروب، وكان ظافراً فيها جميعاً[3]، وكانت تلك المرحلة أخصب مراحـــل حياته لتأثيرها فـــي تكوينه وإعداده القيادي، وتوثيق العلاقات الاجتماعية بينه وبين «صكوتو»، فقد زوجه الســـلطان بللو

١) Ibraheem, Sulaiman. A Revolution in History: The Jihad of Usman Dan Fodio, (London: Mansell Publishing Ltd.), p.13.

٢) M. Hiskett, "State of Learning among the Fulani", Bulletin of SOAS, 1957, Vol (xix), p555.

٣) موسى بن أحمد كمارا: زهور البساتين، مخطوط، روبنسون، هامش ٣٥.

إحدى بناتــه، ويبدو أنَّه أمــدَّه بالمال الكافي للشروع في دعوته ببلاد «فوتا تورو».

ما لبث الشيخ إثر عودته إلى «فوتا تورو» أن ذاع صيته، والتفَّ حوله الناس، ومنذ ذلك الحين ظهرت بوادر عداء الزعمــاء المحليِّين له، ولكنه بالمقابل كان يحظى بدعم شعبي قوي؛ حيث لحق به زعماء محليُّون آخرون، مثّلوا – فيما بعد – أركان القيادة في جيشــه، كما انضم إليه السَّــواد الأعظم من القبائل التي كانت تعاني وطأة الاسترقاق.

وعلى الرغم من اســتجماع الشــيخ للقوى اللازمــة فإنه لم يعلن جهــاداً ولم يهدد أحداً، وكانــت الحرب الأولى بينه وبيــن ملك «تامبا» بمبادأة من الملك نفسه؛ وذلك حين أصر على المطالبة بإرجاع أحد خدَمه كان أســلم ولحق بالشيخ، لكن الشيخ عمر لم يخضع لطلبه.

يمكن تصنيف حياة الشــيخ عمر، بعد هذه المرحلة، وحركته الجهادية إلى: مرحلة إعداد وهجــرة وجهاد، وهي مراحل ســارت متقاربة متعانقة أفقياً في الزَّمان ومتكاملة.

المرحلة الأولى: الإعداد والتربية:

باشــر الشيخ في هذه المرحلة من الإعداد التربيــة الروحية والفكريــة لأتباعه إثر عودته من الحــج؛ إذ أســس محضراً علميــاً ببلدة (Jegunku) فــي «فوتا جالون»، ومن ثمَّ انتقل إلــى «دنغراي» فــي حوض نهر الســنغال في منطقة «تامبــا»، وقد اعتمد الشــيخ في تلك الفترة التربية الصارمــة، والتثقيف في الدين، وزرع روح التعاون والعمل الجماعي الدَّؤوب في نفوس أتباعه، واجتهد في توســيع دائرة دعوته بتأهيل مجموعات دعوية من طلبته، وإرسالهم إلى المناطق الأخرى.

وممَّا يدل على مدى اهتمام الشيخ العميق بهــذه المرحلة والإعــداد المحكم لها موافقته على استئجار بلدة «دنغراي» والأرض المتاخمة لها مــن ملــك ييمْبــا (Yimba) الوثني عام ١٨٤٩م، وظل بها مدّة ثلاث ســنوات، وعُرفت تلك المرحلة باســم «ســني الألواح الخشبية» إشــارة إلى الألواح التي تُكتــب عليها الدروس العلمية في مجالس الشيوخ، ومن دلائل اهتمامه بالتربية العلمية في هذه المرحلة أيضاً أنه لما احترقت له ثلاثة بيوت من الكتب أمر ابن أخ له وجماعة من تلامذته بالتوجُّه إلى تمبكتو لنسخ الكتب وأعطاهم ما يلزم من المال[1].

وتعدُّ هذه المرحلة أيضاً المرحلة الأولى من هجرته، ولكن المرحلــة اللاَّحقة هي المرحلة الحقيقية للهجرة والجهاد مندمجين معاً.

المرحلــة الثانية: هجرة الشــيخ عمر بن سعيد (١٨٥٨م – ١٨٥٩م):

كانــت الهجرة من الأفعــال المميزة لحركة الدَّعوة والجهاد لدى الشــيخ عمــر وأتباعه من بعده، وقد ارتكزت – منذ عهود الحركة الأولى – على رؤية واضحة نظّر لها الشيخ في كتابه (رماح حزب الرَّحيم) الــذي انتهى من تأليفه بصكوتو، كما نظَّر لها في كتابه الآخر (سيوف السعيد).

جاء بحــث الهجرة في كتــاب الرماح في الفصل الحادي والخمســين الــذي يعدُّ أطول فصول الكتاب، وعنْوَن له الشيخ فقال: «الفصل الحادي والخمسون: في إعلامهم أنَّه ينبغي لكلٍّ أن يجتهد في خلاص نفسه، ويشمِّر ويقوم بساق الجــدِّ والاجتهاد في عبادة ربِّه، ولا يعوقه عنها كل عائق... ولو أدَّى ذلك إلى مفارقة الأوطان، بل وضرب الأعناق بالهجرة والجهاد»[2].

وبإسهاب دلَّل الشــيخ على وجوب الهجرة كتاباً وســنَّة وإجماعاً، وأورد من النصوص ما

١) John H. Hanson, "Islam, Migration and the Political Economy of Meaning: Fergo Nioro from the Senegal River Valley, 1862 - 1890", The Journal of African History, Vol. 35, No. 1 (1994), p46.

٢) علي حرازم: جواهر المعاني - وبهامشه رماح حزب الرحيم، ص ٣١١.

وســـعه أن يورد، وفنَّد القول بانقطاع الهجرة بعد هجرته صلى الله عليه وسلم، وبهذا الصَّدد قسَّـــم الهجرة إلـــى معنوية (هجـــرة القلوب) وحســـية (هجرة الأبدان)، وأكَّـــد تلازم هذين القسمَين وديمومتهما إلى قيام السّاعة.

وفي ســـياق المجتمع في بلاد الســـودان الغربي ذهب الشيخ إلى وجوب الهجرة فيه بناءً على التقســـيمات الثلاثة المعهودة لتلك البلاد، وهي: بلاد إســـلام (تجب الهجرة إليها)، وبلاد كفار (تجب الهجرة منها)، وبلاد إســـلام يظهر فيها المنكر جهاراً (تجب الهجرة منها بشـــرط عجز المسلم عن التَّغيير فيها)[١].

هذا وقد جاءت هجرة الشيخ عمر بن سعيد تال توطئة لمرحلة الجهاد (١٨٥٢م - ١٨٦٤م)، وهي خطوة واعية أعدَّ لها الشيخ، ونظَّر لها كما ســـبق، وهيَّأ النفوس لها، وقد هاجر الشيخ مع جماعته الأولى من مســـقط رأسه «فوتا تورو» (أرض الظّلم والفساد الظَّاهر)، وبدأ يستقطب الأتبـــاع والمهاجريـــن من أقصـــى الغرب في غينيا الحاليَّة ومنطقة سنيغامبيا، وهي مناطق الزعامات المســـلمة لقبائل الفولبي في «فوتا جالـــون» و«بُوندو» و«فوتا تورو». وكان ذلك عبر مجموعات مدرَّبة، وطلبـــة ذوي نفوذ كبير في المجتمع عن طريق التربية والتزكية، وكان يُطلق على أولئك الطَّلبة المسؤولين عن تجنيد الأتباع «جوم فيرغُو» (jom fergo).

وشـــجب الشَّـــيخ غفلة ملوك المســـلمين المحليِّين وتواطأهم مع المســـتعمر الفرنسي «طُوباك» في اضطهـــاد إخوانهم، والتَّآمر على الإسلام، وكان هذا العنصر من المرتكزات التي ركَّز عليها الشيخ في حجاجه وتنظيراته، وحثّه للمسلمين للخروج للهجرة[٢].

تجدر الإشـــارة إلى أن الشيخ في هذا كلِّه لم يكـــن بدعاً في موقفه ورؤيتـــه عن الهجرة ببلاد الســـودان، وإنَّما كان متبعاً للشـــيخ عثمان دان فوديو وغيره تنظيراً وتطبيقاً، ولم تختلف جوانب الهجرة في حركة الشـــيخ عنه لدى غيره إلا في جوانب يسيرة غير جوهريَّة سيأتي بيان بعضها.

وحرصاً على التأســـي العميق في هجرته بهجـــرة النبي صلـــى الله عليه وســـلم وعلى الاقتداء به، أطلق الشـــيخ على البلدة الجديدة اسم «طيبة»، وعلى أتباعه الأولين «مهاجرين»، وعلـــى مَن لحقوا به في فترة متأخرة «أنصار»، وممَّا نُقل عن أحد تلامذته من وصف لجماعته قوله: «يُطلَق عليهم (أنصـــار) أو «أهل طيبة»؛ لأنَّهم قد تركوا أمَّهاتهم وآباءهم، ونبذوا جميع عاداتهم وتقاليدهم. لقد علّمهم الشـــيخ دينهم، إنَّهم مطيعون للشـــيخ، يحـــبُّ بعضهم بعضاً، ويســـاعد بعضهم بعضاً، يتقاسمون كلَّ شيء. إنَّ هـــؤلاء المهاجرين لا يكلّـــون أبداً، فهم في عمل متواصل؛ لأن الشـــيخ نفسه لا يتوقَّف عن وعظهم وتعليمهم ليل نهار»[٣].

هذا وقد ســـجَّل المجتمع المسلم في التاريخ الإفريقي مشـــهداً فذاً من التعـــاون والتضامن، وجمع الطاقات والخبرات الشـــعبية من صناعات وحرف، أسفرت عن قيام دولة إسلامية قوية في مدة زمنية قياســـية، فقد كانت الأفواج المهاجرة للحاق بالشيخ لا تأتي خاوية الوفاض، وإنما كانت تأتيه بالمـــال والحبوب والطعـــام، وكانت قبائل الفوتـــا (Futanke) تبيع محاصيلهـــا الزراعية لشراء الأسلحة وعتاد الحرب من سيراليون التي كانت تحت ســـيطرة بريطانيـــة[٤]. ووظَّفت قبائل الحدَّادين والبنَّائين وغيرهم من القبائل المعروفة بمهن وصناعـــات محدَّدة خبراتهـــم في صناعة

١) رماح حزب الرحيم، ص ٣١٧.

٢) Tyam, la vie d'El Hajj Omar Qacida en Poular, (Paris : Institut d'Ethnologies), p 109.

٣) John Hanson, Migration Jihad and Muslim Authority in West Africa, p31.

٤) انظر: Victor Azarya, Pastoralists under Pressure, p 380.

الأسلحة من مدافع وبناء حصون (Tata) منيعة حول حواضر الدولة الإسلامية؛ وهو ما جعل من هذه الهجرة مَعلماً من معالم التاريخ الإفريقي، وفي قول بعض الباحثين: «إن من أهم ملامح تاريخ غرب إفريقيا هي هجرة الفولبي (الفولاتة) الموسعة نحو «الشرق» من مواطنهم الأصلية بالسنغال الأوسط. وقد قدِّر في أواسط القرن العشرين أن نسبة ٣٪ من الفولبي فحسب كانوا مستقرِّين في مواطنهم الأصلية من مجموع ٦ ملايين نسمة»[١].

حتى بعد مقتل الشيخ عمر واكبت حركة الهجرة الجهاد، بل كانت الهجرة الوقود الحقيقي المغذِّي للجهاد حتى سقوط الدولة وبعد سقوطها، وقد تحدَّدت معالم هذه الهجرة وأبعادها – على مستوى شعبي – بدخول المستعمر في مواجهات عنيفة ضدَّ الحركة العُمَرية، ومحاولتها الحدّ من أفواج المهاجرين بحرق القرى، ومصادرة الممتلكات، واعتراض طريق المهاجرين، وزرع الخوف في النفوس.

وقد تسببت بعض الأحداث في تأجيج رغبات المسلمين وحماسهم للهجرة، ففي فترة (١٨٦٨م – ١٨٦٩م) كان الكيان الاستعماري الفرنسي قاب قوسَين من الانهيار؛ وذلك حين تفاقمت الأمور إثر ظهور وباء الكوليرا الذي انتشر على سواحل المحيط الأطلسي من شمال إفريقيا، وخلال ذاك العام توفي عُشر سكان حوض السِّنغال، وشاع بين الشعب أن الكوليرا نقمة من الله على القاعدين؛ فبدأت الأفواج تشد رحالها نحو الشرق إلى المهاجرين، وأخذت السلطة الاستعمارية تمنع قراءة خطابات الدعوة إلى الهجرة على الناس[٢]. وتفيد المصادر الفرنسية أن مجموعات الفولبي في منطقة نهر السنغال السفلى، وبالتحديد من سانت لويس حتى دكار، قد نقصت من خمسين ألف نسمة تقريباً في حدود عام ١٨٦٠م إلى أقل من عشرة آلاف نسمة في أواسط عام ١٨٨٩م، وإلى أقلَّ من ذلك تدريجياً بعد تلك الفترة من جراء هذه الهجرة[٣].

هذا وقد أعقبت هجرة الشيخ هجرةٌ أخرى لنجله أحمدو سيكو المدني الكبير، وهجرة ثالثة لتلامذته وأتباعه من «صكوتو» إلى الحجاز.

ثالثاً: هجرة الشيخ أحمدو سيكو الكبير (١٨٩٣ م - ١٨٩٧م):

كان مقتل الشيخ عمر في فترة حرجة عنيفة من تاريخ نضال الأفارقة ضدَّ القوَّة الإمبرياليَّة الفرنسية؛ إذ هي الفترة التي حسمت فيها فرنسا حروبها ضدَّ حركات المقاومة والجهاد في إفريقيا. ولم يكن مقتل الشيخ عمر – في حدِّ ذاته – ممَّا يُهدِّد حركته ودولته بالتفكُّك والزَّوال؛ لأنَّه كان قد تركها قوية من الناحية العسكرية، مترامية الأطراف من المحيط الأطلسي إلى أواسط السودان الغربي، وبالإضافة إلى القوَّة العسكريَّة والماديَّة، كانت هناك قوَّة شعبيَّة وطبقة من الأتباع مؤمنة بشدَّة بمبدأ الجهاد، مدركة بالخطر الإمبريالي، لكن الدولة لم تكن على نظام إداري واضح؛ لأن الشيخ كان قد أفنى أيامه في حروب التأسيس ضدَّ جبهات كثيرة: الوثنيِّين، والمستعمر الفرنسي، والمسلمين الذين تواطؤوا مع أحد هذين الطرفَين.

لكن التهديد الأساس لوجود حركة الشيخ عمر كان يكمن في الداخل في الصراع بين أتباع الشيخ، وبخاصة بين أبنائه؛ إذ تمزَّقت الدولة بينهم خلال العقدَين اللاحقَين لوفاته إلى ثلاثة أقسام، هي :

١) انظر: Elizabeth Allo, A History of African Societies, p 295.
٢) انظر: John Hunwich, ALA, p 54.
٣) انظر: Muslims Brotherhood, p 83.

١ – «ماسينا»: استحوذ على الحكم فيها ابن أخيه تيجاني.

٢ – «سيغو»: كان بها ابنه أحمدو سيكو.

٣ – «كآرْتا»: تنازع في الحكم عليها ابناه حبيب ومختار.

وزاد الطين بلَّة استغلال المحتل الفرنسي لهذا الانقسام بتأليب بعضهم على بعض، وهكذا انضمَّ ابنه عقيبو (العاقب) إلى المعسكر الفرنسي، وتحالف معهم ضدَّ أخيه أحمدو سيكو الذي بويع أميراً للمؤمنين بعد والده.

بهذه الانقسامات والعداوات بين الإخوة كانت فرنسا تُحكِمُ قبضتها على أرض الدولة العُمَرية يوماً بعد يوم، وكانت الهزيمة الأخيرة للأمير أحمدو سيكو في معركة «كآرْتا» الحاسمة، لكن الأمير أصر على المضي قُدُماً في الجهاد ومواجهة الفرنسيِّين، والموت في الموضع نفسه الذي قتل فيه والدُه، لكن المجموعة الباقية من كبار طلبة الشيخ وزعماء حركة الجهاد أصرُّوا على الانسحاب والهجرة نحو الشَّرق للحفاظ على ما تبقَّى من رمزيَّة لدولة الإسلام.

وهكذا بعد بيعة جديدة على الهجرة انطلق موكب الهجرة من بلدة « بانْجغارا » (Bandiagara) باتجاه الشرق نحو السودان الأوسط عبر قرى الفولبي شمال بوركينافاسو الحالية والنيجر ونيجيريا، وكانت جميع تلك المناطق ضمن الدولة العُمَريَّة، لكن القوى الفرنسية استمرت في ملاحقة المهاجرين، ووقعت مواجهات بين الفريقَين في محطَّات ثلاث، كان آخرها ببلدة «همْبوري»، لكن يبدو أن الهدف الأساس في ملاحقتهم كان لإثارة الرعب والخوف في نفوسهم، وثَنْيهم عن الرجوع إلى «سيغو» لمواصلة القتال، أضف إلى ذلك أن القوات الفرنسية لم تشأ أنْ تُجازف بالتَّوغل في المناطق النَّائية التي لم تكن تحت سيطرتهم تماماً، كما أن موكب الهجرة الذي بدأ بعدد قليل من الفوتيِّين كان يتضخَّم كلَّما تقدَّم به السَّير؛ إذ كان المسلمون في المناطق التي يمرُّون بها ينضمُّون إليهم، حتى ذُكر أن الموكب قد بلغ عشرة آلاف مقاتل، لكن المؤرخ دافيد روبنسون يذهب إلى أن هذا العدد مبالغ فيه، ويقدِّر عددهم بين ألفَين وأربعة آلاف.

بعد زوال التهديد الفرنسي عانى المهاجرون عقبة أخرى بدخولهم في أرض الوثنيِّين الواقعة بين مملكة الشيخ عمر وبين «صكوتو»، فهوجِموا مرَّتين ولكن النصر كان حليفهم فيهما، كانت المرة الأولى حين اعترضهم الزعيم الوثني إيسا كرومْبا (Isa Kurumba) بجيش قوامه ثلاثة آلاف فارس وعدد كبير من المشاة، ومنع الركب من عبور منطقته ببلدة «بَمبا»، لكن المهاجرين تلقوا مدداً كبيراً من الأمير إبراهيم بن غيلاجو؛ إذ استنفر المسلمين من القرى المجاورة، وهاجم مع المهاجرين جيش كرومبا، وقتلوه وهزموه وغنموا منه خيلاً وعتاداً. وكانت المواجهة في المرَّة الأخرى مع جيش باغاجي في منطقة متاخمة لصكوتو.

بالوصول إلى منطقة «صكوتو» كان الأمير وزعماء حركة الجهاد قد قادوا بأمان البقيَّة الباقية من تَركَة الحاج عمر إلى برّ الأمان، والوصول إلى الدولة الإسلامية التي كانت رَحِماً لجنين الحركة العُمَرية، ولكن قبل أن يصل الركب مدينة «صكوتو» مرض الأمير، واشتدَّ مرضُه ببلدة «مايْ كُولْكي»، وبها توفي ودفن، وكان موته يوم الثلاثاء (٢١ رجب ١٣١٥هـ / ديسمبر ١٨٩٧م) بعد رحلة هجرة طويلة ابتدأها من «سيغو» عام ١٨٩٣م، واستغرقت أربع سنين.

تذكر الرواية أن الخليفة عبد الرحمن حين

بلَغه نبأ وفاة الأمير بكـــى طويلاً، وقال: «لطالَما استَبشـــرتُ بقدومه، وبوجود من يُســـاندني ضدَّ الكفَـــرَة، ولكن خاب أمَلي»، ثـــمَّ أكرم وفادة ركب الهجرة، وأرســـل إليهم خيـــولاً وطعاماً، وبنى لهم الأمير بلدة جديدة، وأقطعَ لهم أرضاً يزرعون فيها، لكن المهاجرين لم يأنَسُـــوا كثيراً بهذا المســـتقر الجديد الذي ســـمَّوه «دار السَّـــلام»؛ فبادروا إلى مبايعـــة القائد بشـــيرو على الهجـــرة، وكان هو والشـــيخ ألفا هاشم (الذي سيُخصُّ بالحديث بعد قليل) من كبار طلبة الشيخ عمر وقادة الجهاد.

رابعاً: هجرة الفوتيِّين (بعد ١٩٠٣م):

بعـــد خمـــس ســـنوات تقريباً مـــن وجود المهاجريـــن الفوتيِّين بـــأرض «صكوتو» كانت مجموعـــة منهم قد رضيـــت بالمقام هناك في منطقة «زَامْفَـــرَا وزِنْدر»، وكانوا في جلِّهم ممن لحقوا بالقاعـــدة المركزية من المهاجرين على امتـــداد طريـــق الهجرة من «ســـيغو»، وبحلول عـــام ١٩٠٣م بعد موت الأميـــر عبد الرحمن، واســـتخلافه بالأمير الطاهرو بن ســـعيد (قتل ١٩٠٣م) آخر خلفاء الإمارة الصكتيَّة، كان وحش الإمبريالية الذي أخرج الفوتيِّين من ديارهم قد فعل بإمارة الإسلام بصكتو ما فعل بفوتا.

وهنـــا أيضاً ندب الأمير أهـــل مملكته إلى الهجرة نحو الشـــرق، وســـرعان ما انضم إليه مهاجرو فوتا بقيادة ألفا بشـــيرو وألفا هاشم، وفي موقعـــة بُورْمـــي قُتل الأميـــر الطَّاهرو (١٩٠٣/٧/٢٨م) بعد معركَتَين حاســـمَتَين بينه وبين الإنجليز، وكان ذلك نهاية مأســـاوية لآخر إمارة إســـلامية بإفريقيا الغربية، لكن مأســـاة المهاجريـــن الفوتيِّين كانت أكبـــر؛ لأنَّهم ذاقوا مرارة الهزيمة وســـقوط حصن الإسلام المنيع مرَّتَين: مرَّة بسيغو وأخرى ببُورْمي.

بمقتل الأمير الطاهرو تشـــتَّت المهاجرون في المناطق النيجيريـــة «البريطانية» ومناطق نيجر «الفرنســـية»، غير أن جذوَة العزيمة على الهجرة نحو الشرق لم تنطفئ لدى طائفة كبيرة منهـــم وبخاصّة طبقة العلماء، بايع المهاجرون الأمير محمد بللو (مـــايْ بُوْرْنو) على الهجرة، وقـــدِّر عددهم بمـــا يقرب من عشـــرين ألفاً؛ فسار بموكب الهجرة حتى بلغ نهر النيل الأزرق بالسودان الحالية وعَبَره، واستقرَّ ببلدة عُرفت باسمه في السودان الشرقي[1].

والظَّاهـــر أن عزيمـــة المهاجرين الفوتيِّين كانت صامدة في الهجرة لـــم تتزعزع، ولكنهم انتهجوا في تلك الفترة سياســـة التخفِّي وأخذ الحيطة، فكانـــوا يهاجرون نحـــو الحجاز في مجموعـــات صغيرة لا تثير فضول المســـتعمر البريطاني، فهاجر الشيخ ألفا هاشم وحده عام ١٩٠٥م، وتبعه بعد ذلك مجموعة من الطلبة مع جماعة من آل الشيخ عمر تال.

تجدر الإشـــارة إلى أن وجهـــة المهاجرين الفوتيِّيـــن كانـــت مكـــة! وبذلـــك اختلفوا عن المهاجرين الصُّكتيين الذين كانوا يهاجرون إلى السودان للِّحاق بالحركة المهدية آنذاك؛ لذلك لم يستقر المهاجرون الفوتيُّون من طبقة العلماء بالسودان الشرقية أو بغيرها من البلاد، وأبرز أولئك المهاجرين قاطبةً الشيخ ألفا هاشم.

■ الشيخ ألفا هاشم (ت ١٣٤٩هـ):

تبرز أهمية الشـــيخ محمد بن أحمد الشَّهير بألفا هاشم وأصحابه في تاريخ الحركة الإسلامية بإفريقيـــا الغربية لكونهم آخـــر زمرة مهاجرة من إفريقيا إلى بلاد الحرمَين الشَّـــريفين، وكان ذلك غايـــة في الرمزيَّـــة؛ حيث كانت بـــلاد الحرمين الشَّريفين آنذاك القطر الإسلامي الوحيد الذي لم يخضع للإمبريالية الأوروبية الطَّاغية، وكانت – في

(١) Roman Loimeier, Islamic reform and political change in northern Nigeria, (Northwestern University Press, 1997), p 26.

الواقع – هجرة مباركة حيث أعاد الدُّعاة الفوتيُّون ترتيب صفوفهم، واعتمدوا استراتيجية دعوية جديدة هي التَّعليم ومد جسور التعارف والتواصل مع المسلمين في شتَّى بقاع العالم، وبخاصة في أقصى الشرق في بلاد الملايو، وقد تولَّى ريادة هذا المشروع الجديد الحاج ألفا هاشم.

كما سبق فإن الشيخ ألفا هاشم، وهو من أقرباء الشيخ عمر، هاجر إلى الحجاز وأدى فريضة الحج، وما لبث أن صقل علومه؛ فتصدَّر للتدريس بالحرَم المكي، ثم انتقل إلى المدينة المنورة واستقر بها، ودرّس بالمسجد النبوي، واشتُهر بطول باعه في الفقه والحديث والتفسير وغيرها من علوم الشريعة، وتشهد بذلك مؤلفاته القيِّمة، مثل: كتاب (هداية الخلَف)، وكتاب (إمتاع الأحداق والنفوس بمطالعات أحكام أوراق الفلوس)، وكتاب (تعريف العشائر والخلان بالشعوب والقبائل الفُلاَّن)[١].

بالإضافة إلى تضلّعه في العلوم، وكونه مثالاً للحالة العلميَّة التي كانت قد بلغتها منطقة فوتا في القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؛ فقد كان الشيخ ألفا هاشم نقطة وصل وتقريب بين مسلمي إفريقيا على اختلاف بيئاتهم؛ فله طلبة كثيرون وبخاصة في نيجيريا والسِّنغال وغينيا والسودان، ويدل على مقامه المميَّز كثرة المدائح المدبَّجة التي نظمها المشايخ الشعراء في تلك المناطق لمدحه[٢].

بالجملة كان «عالماً فذاً، كاتباً ومرشداً في خدمة القادة العمريين، مقدَّماً وزعيماً للجاليات الإفريقيَّة في إفريقيا الشماليَّة، وفي جزيرة العرب»[٣].

١) ينظر كتاب: أعلام من أرض النبوة، لأنيس يعقوب كتبي، ج١ (ص ٢٠٦ - ٢١٣)، وكتاب: تاريخ الشيخ ألفا هاشم الفوتي، لمحمد مجذوب مدثر، (الخرطوم: مطبعة منديل، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م).

٢) Triaud, Jean Louis & David Robinson, La Tijaniyya Une Confrerie a la Conquete de l'Afrique, p 401.

٣) انظر: D. Robinson, Societes Musulmanes, p 243.

في الواقع فإنَّ الكيان الاستعماري الفرنسي والبريطاني لم يقر له قرار برؤية المهاجرين في موقعهم الجديد ذلك؛ إذ ثبت في مصادرهم الاستعمارية أنَّهم كانوا يرسلون العيون في مواسم الحج للتجسُّس على الشيخ هاشم وأمثاله من زعماء الجالية الإفريقية ببلاد الحرمين الشَّريفين ورصد أنشطتهم، ففي عام ١٩٠٩م أوفد الاستعمار الفرنسي بسانْت لويس السِّنغال أخَوَين إلى الحج هما: سليمان سيكْ وعِينينا سيكْ، وكانا معلّمَين في المدرسة الإسلامية الاستعمارية، وكانت مهمَّتهما تدوين نشاط الشيخ وعلاقاته بالحجاج القادمين من إفريقيا، ومدى تهديده للمُستعمر[٤]، وقد أفادا أنَّ الشَّيخ قد استقر بالمدينة المنورة، وأنه يلقى أموالاً ومعونة من أهل «فوتا تورو» موطنه، ويوظفها في خدمة حجاج غرب إفريقيا ورعايتهم في بيوت ونُزل[٥].

■ من آثار الحركة العُمَرية:

لعلَّ من الإجحاف والظُّلم قياس حركة الشيخ عمر بموازين الغلبة والهزيمة العسكرية، بل الميزان الحقيقي ما أحدثته هذه الحركة من نشاط ديني وفكري في تاريخ الإصلاح الإسلامي بإفريقيا على الرغم من قِصر عمرها (١٨٤٩م – ١٨٩٨م)، وإذا ذهبنا نتلمَّس بعض ذلك فسنجده واضحاً ملموساً في معظم الحركات والإمارات الجهادية التي بزغت في منطقة سنيغامْبيا بعد مدة وجيزة من ظهور حركة الشيخ عمر، وهي الحركات التي تزعمها طلبته المباشرون، أو من تربّوا على أيدي طلبته، وتشرّبوا مبادئه الفكريّة والتربوية في الدعوة والإصلاح.

٤) Ibid.

٥) David Robinson, The Umarian Emigration of the Late Nineteenth Century, Source: The International Journal of African Historical Studies,Vol. 20, No. 2 (1987), p 262.

ومن الأمثلة على آثار الحركة العُمَريَّة:

أ - جهاد الشيخ مابا جانْخو (Maba Janxu):

كان مابا خانخو (١٨٠٩م - ١٨٦٧م) من تلامذة الشيخ عمر ومريديه، ابتدأ حركته بالدعوة في مناطق الولوف والسيرير، ودعوة ملوكها وزعمائها إلى الالتزام الصحيح بالإسلام، ثم أعقَبَها بإعلان الجهاد على مملكة بـاوُلْ ١٨٦٣م، وعلى مملكة سَلوم وجُولوف ١٨٦٤م، وحين نشبت الحرب بينه وبين جُولوف، أمر المسلمين، وبخاصة العلماء بالهجرة منها إلى سَلُوم.

ومن أعيان العلماء المهاجرين الذين وفدوا عليه آنذاك الشيخ مَعْمَر أنتا سَلي امْباكي (ت ١٨٨١م)، وهو والد الشَّيخ أحمدو بمبا (ت ١٩٢١م).

ب - جهاد لاتْ جُورْ (Lat Joor):

يُعدُّ لات جور (حكم ١٨٧١م - ١٨٨٣م) من امتدادات آثار حركة الشيخ عمر المباشرة. وفد لات جور على مابـاَ جانخو عام ١٨٦٤م، وهو من سلالة ملكيّة حكمت كاجور منذ ١٦٩٣م، بعد أن خسر صراعاً على زعامة المملكة ضدَّ ماجوجو فال الذي ساندَه الفرنسيون ضدَّه،

كان لات جور قبل ذلك قد درس القرآن والعلوم الإسلامية بـ «كوكي» في منطقة جامْبور.

تأثَّر لات جور بالتربية الدينية العميقة لدى مابا جانخو، وعاهده على الالتزام بالشريعة الإسلامية في مملكته، وكان للقاضي معمر أنتا سلي الأثر الكبير في شخصية لات جور، وكانت دولتُه من حصون الدِّفاع عن الإسلام ضدَّ الزحف الاستعماري، حتى قتله الفرنسيون عام ١٨٨٦م.

ج - حركة الحاج محمد الأمين:

من قبائل السَّراخوليه، وكان قائداً ومريداً للشيخ عمر، حج عام ١٨٦٨م، وبعد عودته قام بحركة جهاديّة أسفرت عن قيام دولة في منطقة سنيغامبيا امتدَّت إلى بامبوك وخاسو وبُونْدو وجافونُو. وقف بالمرصاد للمحتل الفرنسي، وقُتل غيلةً على يد ملك فِرْدُو بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨٧م حين لجأ إليه بعد حروب عديدة مع الفرنسيين.

وبعد يمكن استخلاص عدَّة دروس وملاحظات من خضم هذه الحركات المتفاعلة في الإصلاح والتجديد الإسلامي بإفريقيا:

١ - أن السَّبب الأساس في قيام معظم الحركات الجهادية في غرب إفريقيا التصدِّي لحركة النّخاسة التي تفشَّت آنذاك، والزَّحف الاستعماري الإمبريالي؛ لذلك تركَّزت الحركات الجهادية في منطقة سنغامبيا وفوتا جالون على امتداد سواحل المحيط الأطلسي، حيث كانت بؤرة تجارة الرَّقيق، ومركز القوى الفرنسية والإنجليزية. كما كانت الممالك الإفريقية المتاخمة لهذه المنطقة أنشط القوى المحلية في ممارسة هذا العمل المشين ضدَّ الأفارقة، وقد أرجع أحد الباحثين قيام حركة الشيخ دان فوديو منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي إلى رغبته في التصدِّي لحركة تجارة الرَّقيق في عمق بلاد السودان (السودان الأوسط) ببلاد الهوسا[1].

بذلك فإن التاريخ والحضارة الإفريقية والشُّعوب الإفريقية مَدينة للإسلام وللمسلمين ولتلك الحركات الجهادية، والتي كانت صدور المسلمين فيها دروعاً مُشرَعة ضدَّ الزَّحف الإمبريالي الغاشم واستعباده للأفارقة.

٢ - تكمن أهمية هجرة الشيخ عمر وجهاده هو وغيره، وما أنشؤوه من حملات هجرة إسلامية بغرب إفريقيا؛ في نجاحها في صهر مسلمي إفريقيا في رابطة وبوتقة واحدة على اختلاف إثنياتهم وبيئاتهم ولغاتهم؛ لمواجهة التهديدين الداخلي والخارجي (الوثني والأوروبي)، هذا في الدَّاخل. أمَّا على المستوى الخارجي؛

(١) Isichei Elizabth, A History of African Societies to 1870, p 295.

فقد كانت الشعائر الثلاث (الحج والهجرة والجهاد) رباطاً أميناً غير مُنْفصم، أسهم في ربط مسلمي إفريقيا بالمجتمع الإسلامي العالمي.

٣ – أنَّ المجتمع الإفريقي يحوي قوى ذاتية جبَّارة، وأن الإسلام عموماً، والحج والهجرة والجهاد، محاور جامعة لهذا الشَّتات من القوى المبعثرة؛ لذلك وقف المستعمر الأوروبي ضدَّ تحالف الحركات الجهادية، وكثَّف جهوده للتَّفريق بين مراكز القوى في إفريقيا وغيرها. ومن أبرز الأمثلة على ذلك – مع الأسف – الزِّعامات المحليَّة التي ضرب بها المستعمر حركة الشيخ عمر الجهادية، وحركة شيخو أحمدو لوبو، حين أزعجت انتصاراته المتواصلة المستعمر الفرنسي؛ فتحالف مع لات جور، وقُتل أحمدو لوبو على يد الجيش الفرنسي وجيش لات جور، وما برح الفرنسيُّون أن تخلَّصوا من لات جور بقتله بعد انتهاء مهمته[١].

ومتى ما تكاتفت تلك القوى الإفريقية فإنها تغدو كاسرةً، وهذا ما وقع للمسلمين وهم في حضيض الانكسار في موقعة بُورْمي؛ إذ ألحق المهاجرون الصكتيُّون والفوتيون هزيمَتين مَريرَتَين بالجيوش البريطانيَّة قبل مقتل آخر الأمراء الطَّاهرو بن سعيد.

٤ – أن حركة الشيخ عمر وهجرته قد نقشت خطوطاً ثابتة في النفسيَّة المسلمة بفوتا يصعُب محوُها وإزالتها، يدل على ذلك أن المهاجرين العائدين إلى «فوتا تورو» من مناطق النيجر الأوسط في نيورو وكونْياكاري وسيغو، بعد الهزيمة العسكرية أواخر العقد الأول من القرن العشرين، وكان عددُهم عشرين ألفاً تقريباً، قد حظوا بتقدير شعبي كبير، ولُقِّبوا بـ (fergankobe)؛ لأنهم في نظر الشعب قد لبوا داعي الهجرة، وجاهدوا ضدَّ الكفرة، والمستعمرين[٢].

٥ – من الأمثلة على الحرص في التَشبه بالعهد الإسلامي الأول والشوق إلى البقاع المقدسة، سلاسل المدن المسمَّاة باسم «مدينة» أو غير ذلك، من ذلك بلدة «مدينة» التي أسَّسها الشيخ موري (المقرئ) وُولي سيسه حين قام بحركة جهادية في أعالي نهر الفولتا عام ١٨٣٥م، واستشهد عام ١٨٤٥م، وتابع مسيرته الإمام ساموري توري[٣]. ومما لاحظ الباحث بوردير (Bourdier) بهذا الصَّدد وجه الشَّبه المعماري الوثيق بين مساجد «فوتا تورو» القديمة بالمسجد النبوي الشَّريف، في بنائها بالطُّوب وشكلها المعماري[٤]، ومثل هذا الحرص على التَّأسي والتشبّه برموز البقاع المقدسة ظاهر أيضاً في الأسماء والألقاب الشخصيّة، مثل: أحمد المدني الكبير، ومحمد المكي الصغير، وكلاهما من أبناء الشيخ.

ختامًا، فإنَّ الهجرة النَّبويَّة حدثٌ تاريخيٌّ ثرٌّ بالدُّروس والعِبر التي ينبغي للمسلمين استلهامها في حياتهم وعلاقاتهم مع الآخرين، ولاسيما أن عصرنا الحاضر قد شهد صوراً وأشكالاً كثيرة معقَّدة من الهجرات، ومواقف مختلفة لدول العالَم وحكوماته، وبخاصَّة الحكومات الغَرْبيَّة. وتُجمع تلك الدُّول على استغلال الظُّروف من أجل إحكام قبضتها على المسلمين؛ فتُرحِّب بالمسلمين المهاجرين في ظرفٍ، وتصدُّ عنهم أبوابها في ظرفٍ آخر، أو ترحِّب بطائفةٍ منهم، بينما تعرض عن آخرين. والمسلم كيِّس فطِنٌ، وأحرى به أن يفهم أبعاد تلك الهجرات والسِّياسات المحفوفة بها.

١) انظر: Sufism and Jihad, p 67.

٢) انظر: David Robinson, Umarian Emigration, p 262.

٣) Marvin Lapidus, A History of Islamic Societies, (Cambridge University Press, 2000), p 426.

٤) Thimothy Insoll, Archeology of Islam in Sub-Saharan Africa, p 401

التحصيل العلمي لدى الطلاب في غرب أفريقيا
بين الواقع والمأمول

أ.د. محمد أحمد لوح(*)

الحديث عن التحصيل العلمي لدى الطلاب في غرب أفريقيا يتطلب منا الحديث عن المباحث الآتية:

أولاً: أنماط التعليم الشائعة في منطقة غرب أفريقيا.

ثانياً: طبيعة المناهج الدراسية وغيرها من أركان التعليم.

ثالثاً: حال الدارسين في الخارج.

رابعاً: المأمول من الطلاب والخريجين (المقترحات).

ولنقدم بين يدي ذلك نظرة عجلى إلى ماضي التعليم في المنطقة؛ لتكون تمهيداً لما نحن بصدده من دراسة الواقع وبيان المأمول.

معلوم أن الحديث عن أي قطر من أقطار أفريقيا – ولا سيما أفريقيا الغربية – هو حديث عن بقية الأقطار من حيث التاريخ والأوصاف والمكاسب والصعوبات والطموحات، فتاريخ التعليم في هذه المنطقة وأوضاعها في الماضي والحاضر متشابهة إلى حد مذهل.

المقصود ببلاد (غرب أفريقيا) جغرافياً البلاد الممتدة من بحيرة تشاد في الشرق إلى ساحل المحيط الأطلسي في الغرب، وتُعرف هذه المنطقة فيما أسماه كتّاب أوروبا في العصور الوسطى باسم «نجريتا» أو «نجريشيا» Nigritia نسبة إلى نهر النيجر، وأول من أشار إليه المؤرخ الروماني بليني Plinus (ت ١١٥م)، فهو الذي أطلق على نهر النيجر اسمه الذي اشتهر به Nigris، ومعناه: «نيل الأجناس السوداء»، ثم استعار كتّاب العصور الوسطى بغرب أوروبا هذا المصطلح، ونسبوا جميع المنطقة المحيطة بها إليه، كما أسموا سكانها بالنجريتي Nigritae .

والاتصال بين بلاد غرب أفريقيا (بلاد السودان) والعالم الخارجي ظاهرة قديمة ومستمرة منذ أزمان سحيقة، وقد دلت الآثار المكتشفة حديثاً على أن غرب أفريقيا كان مركز نشاط ومدنية منذ أقدم العصور، ونشطت حركة المواصلات والتبادل التجاري بواسطة طرق القوافل التي ملأت الصحراء الكبرى على مر القرون، وازداد ذلك النشاط بدخول الجمل أفريقيا في القرن الرابع الميلادي تقريباً، وكثرت الهجرات العربية إليها قبل الإسلام وازدادت بعد ظهوره، واشتهرت عدة طرق للقوافل كانت تبدأ بمراكش وتلمسان وتونس ومصر متجهة إلى الجنوب، فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز الرئيسية في غرب أفريقيا، مثل: غانا وتمبكتو وكانو وزاريا وكاتسينا، وكذلك مراكز حوض تشاد مثل كانم والبرنو(١).

(*) عميد الكلية الأفريقية للدراسات الإسلامية في السنغال.

(١) انظر في هذا: الدولة الصنهاجية من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م. الهادي روجي إدريس. دار الغرب الإسلامي. نقله إلى العربية: حمادي الساحلي.

واجتاز العرب في العصور الوسطى الصحراء الكبرى وتوغلوا في أفريقيا التماساً للرزق، وتذكر الروايات أن المسلمين من المغرب ومصر كانوا في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) يغشَون الأسواق الرئيسة في غرب أفريقيا، وازدهرت هذه العلاقة بانتشار الإسلام في هذه المنطقة، وهذه العلاقة الدينية والتجارية وضعت الأساس للغة العربية في أفريقيا، لأن التجار العرب كانوا يستخدمون كلمات وتعابير عربية مع معاملاتهم وتخاطبهم في تلك المناطق، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجياً حتى توغلت في ربوع أفريقيا، واندمج بعضها في اللغات المحلية وخصوصاً بعد انتشار الإسلام.

ولذا نستطيع أن نقول إنه قبل دخول الاستعمار الغربي كانت المنطقة منطقة إسلامية ممتدة الأطراف، قامت فيها ممالك إسلامية اتخذت من الشريعة الإسلامية منهجاً للحكم، فقامت دولة غانا الإسلامية، ودولة كانم والبرنو الإسلامية، وإمبراطورية الصنغي الإسلامية، ودولة التكرور الإسلامية في السنغال.

وارتبطت هذه الحضارة منذ تلك الفترة باللغة العربية والتعليم الإسلامي على أساس أن التعليم من أنفع وسائل الدعوة إلى الله، وهو الوسيلة الوحيدة لتعريف الناس بما عليهم من حقوق الله تعالى وحقوق عباده، وما لهم من حقوق على الآخرين.

ولا نعني بالتحصيل العلمي غير تعليم الناس كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم على فهم سلفنا الصالح، وما تحتاج إليه الأمة من علوم ومعارف تعين على تسيير حركة الحياة البشرية نحو التقدم والازدهار؛ ذلك لأن نشر العلم – ولا سيما العلم الشرعي– بين الشعوب والأمم هو سبيل سعادتها وفلاحها، ومحور تقدمها وتطورها، وعلة بقائها وسيادتها وقيادتها، فأوفر بلاد الله سعادة أحظاها بهذا التعليم .

وأما بعد دخول الاستعمار الغربي فقد تغيرت الأحوال، فبعد أن ذاق المستعمرون مرارة الهزائم المتتالية في معاركه مع المجاهدين في أكثر من منطقة؛ فطن إلى أن الثقافة الإسلامية التي يدرسها هؤلاء المسلمون تمثل القوة الحقيقية والطاقة الفاعلة التي تقوي عزائمهم في الصمود أمام عدوهم مهما كانت قوة هذا العدو، وهذا الإدراك المبني على دراسات استراتيجية أدى إلى البحث عن سبل لمقاومة هذه الطاقة الإيمانية، فاكتشفوا أن أفضل السبل هي تجهيلهم، فبدؤوا بسنّ القوانين التي تحظر إدخال الكتب العلمية وبخاصة تلك التي تُعنى بالعقيدة والحديث والمنهج السنّي، ووضعوا مراكز حدودية لمراقبة الكتب، فلم يسمحوا لغير كتب اللغة والأدب والتصوف وفروع الفقه المختصرة بالدخول، وهذا ما يفسر ظهور عدد كبير من فحول اللغة والأدب في المنطقة، كان شعرهم في غاية الجودة والروعة، بينما لا تكاد تجد منهم من له عناية بالحديث النبوي رواية ودراية، فضلاً عن معرفة عقيدة السلف ومنهجهم في العبادة والسلوك، وذلك لعدم توفر الوسائل والآليات المساعدة على ذلك.

وفي العصر الحديث بعد جلاء الاستعمار اتجهت شعوب المنطقة إلى بعث الحركة التعليمية من جديد.

وفيما يلي نشير إلى الأنماط والأساليب التي سلكوها للتّعلم والتعليم:

أولاً: أنماط التعليم الشائعة في منطقة غرب أفريقيا:

إن التعليم الإسلامي في مراحله الأولى في المنطقة - بطبيعة الحال- لم يكن منظماً تنظيماً دقيقاً، ولا موزعاً توزيعاً إداريّاً واضحاً على مناطق القطر الواحد، بل كان الطالب يختلف إلى العلماء في منطقته ويحصِّل ما لديهم من الفنون، ثم يرحل إلى منطقة أخرى أو إلى الخارج، حتى إذا تبحر في بعض العلوم بما تيسر له عاد إلى بلاده وإلى مسقط رأسه في الغالب لينشئ حلقة علمية يفد إليها طلبة العلم، وهذه الحلقات العلمية الصغيرة المنتشرة هنا وهناك هي التي تطورت إلى مدارس نظامية ذات صبغة عصرية.

وعلى هذا يمكن تقسيم أساليب التعليم في المنطقة حالياً إلى نمطين:

الأول: الحلقات العلمية:

وهذه الحلقات على نوعين:

أ - نوع محافظ يتخذ من الأسلوب القديم طريقة ومنهجاً: فيجلس الشيخ إلى طلابه ما شاء الله أن يجلس، ويأتي كل طالب بكتابه الخاص به فيعلمه الشيخ درسه، ثم يقوم فيجلس غيره، إلى أن ينتهي العدد، وقد يكثر العدد لدرجة أن الطالب لا يتلقى درساً إلا بعد عدة أيام حين يصل إليه دوره في السلسلة المنظمة، كما عليه حلقة الشيخ محمد سالم ولد عدود في موريتانيا، وبشكل عام هذا الأسلوب لا يزال موجوداً بكثرة في السنغال وموريتانيا ومالي وغيرها من دول المنطقة، وكلما انتهى الطالب من كتاب انتقل إلى كتاب آخر غالباً ما يختاره بنفسه.

ب - نوع منظم تنظيماً حديثاً نسبياً: فيكون للشيخ جدول للكتب التي يدرِّسها في حلقته بحسب الأيام الدراسية التي يحددها، ووفق ما يسمح به وقته، فيدرِّس في المجلس الواحد فناً واحداً وكتاباً واحداً يتابعه الطلاب من كتبهم.

وهذا الأسلوب الأخير كما يظهر هو الأكثر اقتصاداً للوقت والأنسب للشرح المفصل في مسائل الفن، وهي طريقتنا المتبعة في حلقة العلوم الشرعية بدار الاستقامة للتربية الإسلامية، إلا أنه قد يُحرم منها بعض الطلبة الذين يكون مستواهم فوق مستوى الكتب المقررة في الحلقة أو دونه.

الثاني: المدارس النظامية ذات المراحل الدراسية:

وهذه المراحل هي الابتدائية والإعدادية والثانوية، وهذه المدارس من الكثرة بحيث تكاد تقضي على الحلقات العلمية في كثير من أقطار المنطقة، وإن كان ينقصها في الغالب وجود تعليم عال يواصل الطالب من خلاله دراسته.

هذا ولكل من النمطين إيجابياته وسلبياته:

فمن إيجابيات الحلقات:

- قداسة المكان؛ لأنها غالباً ما تُعقد في المسجد أو المصلى.
- خلوص النيات غالباً؛ لعدم توفر مغريات المدارس العصرية من شهادات ونحوها.
- أن الحلقة تستقبل جميع شرائح المجتمع من الرجال والنساء والشبان والشيوخ والعمال والموظفين وغيرهم.

ومن إيجابيات التعليم في المدارس النظامية:

- إمكان متابعة الطلاب والتأكد من مستوياتهم بالامتحانات.
- تربية الطلاب على تنظيم الوقت؛ حيث إن كل شيء يُفعل في وقته المحدد سلفاً.

❊ الحصول على الشهادة، والتمكن من متابعة الدراسة في مراحل عليا.

■ ثانياً: طبيعة المناهج الدراسية وغيرها من أركان التعليم:

المناهج الدراسية في مدارس المنطقة تعاني صعوبات جمة أثرت سلباً في مستويات الطلاب الدارسين في هذه المدارس.

وفيما يلي أذكر بعض الجوانب السلبية في المناهج الدراسية الحالية رغبة في التقويم والإصلاح والترقية:

١ - مناهج مبعثرة: فتجد أحياناً في المدرسة الواحدة، بل في الفصل الواحد منهجاً من وزارة المعارف السعودية، ومنهجاً آخر من مناهج المعاهد العلمية، وثالثاً من الأزهر، ورابعاً من الكويت، أو المغرب والجزائر.. وهكذا، فتكون النتيجة خليطاً غير متجانس من المقررات المبعثرة التي قد لا يربطها رابط.

وبعض المدارس قد تعتمد بعض الكتب التي لا تخلو من انحرافات عقدية بدعية؛ لأنها هي المتوفرة لديهم!! في حين تعاني معظم المدارس الإسلامية ندرة في الكتب المقررة، فهي لا توجد إلا في يد المدرس وعدد قليل من الطلاب.

٢ - عدم العناية بالعلوم العصرية:

ولو انتقلنا إلى العلوم التجريبية والتكنولوجية لوجدنا أن كثيراً من المدارس الإسلامية لا تهتم بتدريس مواد العلوم والرياضيات، وإن وجدت فهي تُدرس بشكل بدائي لا يكاد يؤثر تأثيراً بيِّناً في المستوى العلمي للطلاب؛ ولهذا فالغالب أن المدارس الإسلامية غير معترف بها حكومياً، بمعنى أن المتخرج من المدارس الإعدادية الإسلامية لا يستطيع أن يلتحق بالمدارس الحكومية الثانوية، وعلى ذلك قس بقية المراحل.

بل إن المتخرج من المدارس الإسلامية لا يُقبل للعمل في القطاعات الحكومية المختلفة؛ لأنه لم يدرس اللغة الرسمية للبلد، ولم يتعلم الثقافة العصرية في نظر النظام الحاكم، فأصبح الأطباء والمهندسون والإعلاميون والاقتصاديون يخرجون ممن تربى في المدارس العلمانية أو التنصيرية.

وهذا الأمر أوجد هوَّة واسعة بين تلك المدارس وبين القطاعات الرسمية، وهو ما جعل المسلمين بعيدين تماماً عن قيادة المجتمع من الناحيتين الفكرية والإدارية.

٣ - مدرسون غير مؤهلين: تعاني كثير من المدارس الإسلامية في أفريقيا قلة المدرسين الأكفاء المؤهلين تربوياً وعلمياً.. ولا بد أن يظهر أثر هذا الضعف في مستوى الطلاب.

وقد أدى ضعف المستوى العلمي والتأهيل التربوي لدى بعض المدرسين إلى تركيزهم على عملية التلقين، وذلك بتحفيظ الطلاب المواد العلمية تحفيظاً مجرداً، وعدم الاهتمام بالمحتوى العلمي الشرعي أو التجريبي. وإذا قرنت بين مشكلة المناهج الدراسية وعجز المدرسين عن توصيل تلك المناهج على ما فيها من العيوب؛ فلك أن تتصور مدى الضعف العلمي والتردي الفكري الذي يصيب الطلاب على وجه العموم، ويتبع ذلك القصور الإداري والتنظيمي في كثير من تلك المدارس، فكثير منها يفتقد التخطيط والتنظيم.

٤ - ضعف الإمكانات المادية: لقد أدى الفقر إلى كثير من المشكلات التي تحتاج إلى حل جذري، فبعض المدارس غير مبنية أصلاً، وإن بُني يكون بشكل غير لائق؛

ومـــن ذلك مثلاً يدرس الطـــلاب في بعض المدارس تحت ســـقف لا يقي من الحر أو القر، وقد يضطر المدرس إلى جمع الشبان والشـــابات في غرفة ضيقة، وهذا فيه من المخاطر ما لا يخفى، وقـــد لا يجد أولياء الطلاب من الســـيولة المالية ما يسمح لهم بدفع الرســـوم الشـــهرية، وهـــو ما يضطر المدير إلى التقليل من عدد المدرســـين، أو يختـــار أصحاب المســـتويات المتدنية لئلا تكون رواتبهم مرتفعة.

ولا ريب أن هذه الســـلبيات والعيوب كفيلة بتخريج طلاب في غاية الضعف؛ ولذا نجد أن الدارســـين في الحلقات غالباً ما يكونون أجود فهماً وأقـــوى تحصيلاً من طـــلاب المدارس النظامية، وبخاصة في المواد اللغوية والأدبية.

■ ثالثاً: حال الدارسين في الخارج:

أغلب طلاب المنطقـــة لا تتاح لهم فرصة لمواصلة دراساتهم الجامعية لعدم توفر القدر الكافي مـــن الكليات في المنطقـــة، فالكليات الموجودة في منطقتنا لا تغطي سوى ١٪ تقريباً من الحاجة المحلية؛ وذلـــك لقلة تلك الكليات وضآلة قدراتها الاستيعابية.

أما المنح الخارجية التي ترد إلى المنطقة من الدول العربية فلا تبعد عن النسبة المئوية ســـالفة الذكر، ونتج عن ذلك كله أزمة تعليمية حادة؛ حيث إن عدداً كبيـــراً من أبناء المنطقة من حملة الشهادة الثانوية ومن في مستواهم لا يجدون مؤسسة تعليمية فوق الثانوية تستوعبهم؛ وعليه فإنهـــم يضطرون للبحث عن مدرســـة يدرســـون فيها قبل التأهل للتعليم، أو يلجؤون إلى عمل خارج محيط العلم وطلابه سعياً وراء لقمة العيش، وفي كلا الحالين تخسر المنطقة عدداً كبيراً من هذه الأجيال المتعاقبة.

وأما من تتاح لهم الفرص لمتابعة دراساتهم في الخارج فـــإن مســـتوياتهم العلمية مختلفة نظراً لتباين التحصيـــل العلمي من حيث الكم والنوع، ونظراً لأن مناهجهـــم الفكرية متنوعة بســـبب تنوع المناهـــل والمشـــارب التي نهلوا منها، فبعض المتخرجين من حملة الشـــهادات الجامعية ليس لديه رصيد من العلم الشـــرعي على الإطلاق، وقد يضيف إلى ذلك اســـتهانة بالدين إلى حد الإلحاد؛ لأن المؤسسة التعليمية التـــي درس فيها لا تولي الجانـــب التربوي أية عناية فضلاً عن أن تُعنى بالدين الإســـلامي أو بوسائل تعميق التدين، وبعض من حصّـل نصيباً من العلم الشرعي قد يسير على مناهج تخالف ما كان عليه ســـلف الأمة؛ لأنـــه درس في بيئة غير سُـنيّة.

ومن المخاطـــر الحقيقيـــة أن بعض من رفضتهم بعض الجامعات الإســـلامية الســـنّية لسبب أو لآخر خرجوا من دولة السنّة فوجدوا في دولة الشـــيعة ترحيباً حاراً واحتواءً كاملاً، فعادوا إلى منطقتنا التي كانت إلى وقت قريب خالية من أي أثر للرافضة، عادوا إليها ينشرون مذهب الروافـــض تحت رعايـــة كاملة وعناية فائقة من مواليه الذين تلقى عنهم الرفض.

وهناك قضيـــة أخرى جديـــرة بالاهتمام واتخـــاذ ما يلزم تجاهها مـــن الحيطة والحذر بالنســـبة لإخواننا الذين درســـوا فـــي البلاد العربية ثم عـــادوا للدعـــوة والتعليم، ألا وهي قضية نســـيان العلم، وهي في الحقيقة معضلة تحتاج إلى الدراسة والبحث عن سبل لحلها حلاً جذرياً.

والذي يبدو لي بعد البحث والنظر في هذه المشكلة أن أسبابها تكاد تنحصر فيما يأتي:

١ - الابتعاد عن الخطاب باللغة العربية: وذلك أن من يقومون بالتدريس في المساجد

والحلقات غالباً ما يلجؤون إلى التدريس باللغات المحلية وحدها؛ لأن من يخاطبهم من العوام لا يجيدون اللسان العربي، ومع طول الزمن يجد بعضهم نفسه عاجزاً عن التعبير باللغة العربية الصحيحة.

٢ - الابتعاد عن الخطاب بالأسلوب العلمي: وذلك لأن مستويات الدارسين الذين يتلقون منه لا ترقى في الغالب إلى هذا النوع من الخطاب فيخاطبهم بمستواهم؛ مما يؤثر مع الزمن في أسلوب الداعية وتحصيله العلمي، لتعوده مخاطبة العوام دون غيرهم، فينسى أساليب العلماء المحققين، وقد يترتب على ذلك عزوفه عن قراءة كتبهم لصعوبتها بعد فساد ملكته العلمية، فتكون الكارثة!

٣ - عدم الحرص على تنظيم الوقت والاستفادة من كل لحظة تمر قدر الإمكان: وذلك لأن الداعية إذا أقبل الناس عليه ضاقت أوقاته، فإذا لم يكن لديه مهارة تنظيم الوقت ذهب وقته كله في مصالح الناس، ولم يجد وقتاً للاستزادة من العلم، فهو في حاجة إلى وقت للمطالعة والقراءة والعبادة، ووقت لأهله ومصالحه الدنيوية، ووقت لعامة الناس المحتاجين إليه، وإذا لم ينظم وقته فسوف يطغى جانب على بقية الجوانب، وقد يضيع كل شيء ولا يعطى أي جانب حقه.

٤ - العزلة العلمية: وذلك أن يشعر بأنه مستغن عن الاستزادة من العلم لكونه نظر في حال من يدرسون عليه ومن يراجعونه في مسائل العلم؛ فوجد أنهم دونه في التحصيل أو العلم فيلبّس عليه إبليس فيظن أنه إمام مجتهد اجتهاداً مطلقاً!

وقد يرد إليه من مسائل العلم ما لا علم له به فيجتهد وليس هو أهل لذلك، ولا يرجع إلى أهل العلم للسؤال، ولا يراجع ما كتبوا في المسألة؛ لأنه تصور نفسه عالماً أو من طبقة العلماء، ولأنه من جهله يحسب أن الاعتذار عن إجابة سؤال وإعطاء موعد للبحث فيه يُعد ضرباً من الضعف أمام من ينظرون إليه بوصفه سلطان العلماء أو شيخ الإسلام الذي بلغ من العلم مبلغ الكاملين!

٥ - البقاء في البلاد التي درسوا فيها عاطلين عن العمل العلمي أو الدعوي: وهذا التصرف - بالإضافة إلى كونه ذريعة إلى نسيان العلم - مخالف لمقاصد التعليم الشرعي، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

ومع أن هذه الجوانب السلبية مما يهدد مستقبل الدعوة الإسلامية وعلماءها ووحدة الأمة المثقفة في هذه المنطقة، وعلى الرغم من أنها في حاجة إلى الدراسة والمعالجة؛ فإن الآمال معقودة في الجيل السنّي من شباب الدعوة الإسلامية، ومن المشايخ العائدين بنصيب مبارك من التحصيل العلمي وهم يحملون لواء الدعوة والتعليم في منطقتنا العزيزة، وفقنا الله وإياهم وبارك في جهودنا وجهودهم.

■ رابعاً: المأمول من الطلاب والخريجين (المقترحات):

إن طلبة العلم والمشايخ الخريجين من أهل السنّة والجماعة هم معقد الآمال في منطقتنا كما ذكرت، ويُنتظر منهم الكثير، وفي هذا المبحث الأخير أشير إلى بعض ما هو مأمول منهم على سبيل المقترحات.

❊ أن تكـوَّن لجـان قُطرية تقـوم بإعداد مناهـج جديـدة للعلوم الشرعية وتعليم اللغة العربية تتناسب مع خصائص منطقتنا الفكرية والاجتماعيـة، لتعالج القضايا الإسـلامية والحياتيـة التي تهم أهـل المنطقة، وتحتاج هذه المناهـج إلى دراسـات واعية ومتعددة تخضع لتجارب ميدانية متزنة، وبذلك نضمن نشـر اللغة العربية وتعميـق الوعي الشرعي بيـن الطلاب، بالإضافة إلـى تحصينهم من شبهات النصارى وأهل الأهواء.

ويمكـن الاسـتعانة بالعلماء فـي العالم الإسـلامي إذا لوحظ أي عجز عن اسـتكمال جانب من الجوانب الضرورية علمية شـرعية كانت أم تربوية تطبيقية.

❊ ضرورة العناية بتدريب المعلمين تربوياً على طـرق التدريس الحديثة، واسـتخدام الوسـائل الأكثر تطـوراً، ويمكن تخصيص الإجـازات الصيفية لإقامـة دورات تربوية خاصـة بالمعلمين، وتكون المشـاركة فيها إلزامية، ويتبع ذلك إعداد دورات مسـتمرة للإداريين لنضمن حسـن الإدارة والتنسيق والتنظيم.

❊ على الشيخ المعلم والداعية أن يحرص علـى إيجاد حلقة على الأقل يكون التدريس فيها باللغـة العربية، ويعتني بالتحضير لها، ويرجـع إلى كتب المحققيـن للإفادة منها، وذلك خير سـبيل للمحافظـة على ثروته اللغوية وإزالة عزلتـه العلمية، كما يُعد من أفضل الأساليب لتربية الطلاب على التفقه في الدين، وتقوية تحصيلهم العلمي واللغوي.

❊ إيجـاد مراكز للحاسـب الآلي لتدريب الطـلاب والمعلميـن والأئمـة والخطباء، وإرشادهم إلى سبل الاستفادة من الإنترنت Internet فيما يخدم الدعوة والتعليم.

❊ وبناءً على ما تقدم من سـلبيات العزلة العلميـة والجـرأة على الفتـوى أقترح أن يُشـكل في كل قُطر مجلس للبحث العلمي والإفتـاء، وعلـى هذا المجلـس أن يوجد علاقة حسـنة ورابطة تعاون وثيقة مع بقية المجالس القُطرية، وذلك بهدف التعاون في تقديم البحوث والدراسات والفتاوى وتبادل الخبرات والتجارب الميدانية.

❊ ضرورة العناية بإنشـاء كليات ومعاهد للتعليـم العالـي بغية الوصول إلى إنشـاء جامعات قادرة على سـد حاجـة المنطقة فـي هذا المجال، ويُنتظر من المؤسسـات التعليمية والخيريـة والحكومات في الدول الإسلامية أن تتعاون مع شعوب المنطقة في ذلك؛ للحد من حيرة الجماهير الغفيرة من خريجي المرحلة الثانوية الذين لا يدرون إلى أين يتجهون لإكمال دراستهم.

هذا؛ والله تعالى أسأل أن يوفق الجميع لما فيه الخير والسداد للإسلام والمسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قراءة في المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية

محمد العقيد محمد أحمد (*)

■ المخطوطات أنفس ما اقتنته المكتبات:

المخطوطات من أهم مكنونات الشعوب، وأنفس ما اقتنته المكتبات، وأغلى ما احتواه التراث؛ لدلالاتها الحضارية والتاريخية والثقافية.

وإن أعظم تراث معرفي في تاريخ الإنسان هو ما قدمته الحضارة الإسلامية للبشرية، فالمخطوطات الإسلامية تأتي في مقدمة المخطوطات العالمية من حيث العدد والتنوع وقيمة محتوياتها، وتُعد في الوقت الحالي أهم تراث مكتوب في العالم، بل لعله التراث الوحيد الذي بقي محفوظاً بصورة كبيرة قياساً بغيره من التراث في الحضارات الأخرى غير الإسلامية التي اندثرت معالمها.

وهي ترتبط بأوثق مصادر العلم والمعرفة وأعظمها شمولاً وإحاطة، (الوحي الإلهي) وهو ما أكسبها أصالتها، وتميزها في منهجيتها العلمية ومحتوياتها الزاخرة بالعلوم المختلفة والنظريات والإنجازات في شتى المجالات.

لقد «تنبه العالم إلى أهمية التراث العربي الإسلامي من المخطوطات – وهو ما غفل عنه أصحابه –، وتأسست في جامعات الغرب كراسي الأستاذية والمعاهد المتخصصة لدراسة هذا التراث وأثره على الحضارة العالمية، وجاءت الاعترافات والإشادة بدوره، من ذلك ما كتبه... المستشرق «جورج سارتون ١٨٨٤م – ١٩٥٦م» عن العرب والمسلمين في مؤلفه الكبير (تاريخ العلم) مبرزاً دور الحضارة العربية في التقدم العلمي»[1].

لقد استفاد العالم أجمع مما حوته المخطوطات الإسلامية من مناهج ودراسات قيّمة في شتى العلوم والمعارف، أسست لنهضة العلوم الحديثة وتطورها، وبناء الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وقد كان لإفريقيا حظ وافر من هذا التراث؛

١) مقدمة دراسات في المخطوطات العربية، د. سماء زكي المحاسني. مكتبة جامعة الملك فهد - ١٩٩٩م.

(*) كاتب وباحث سوداني.

حيث شـــارك علماؤها في ازدهـــار الحضارة الإســـلامية، والثقافة العربية، «وكانوا أول من قامـــوا بتعريب ألســـنتهم، وانصهروا في بوتقة الثقافة العربية الإســـلامية تماماً حتى أتقنوها وبرعوا فيهـــا، فخلّفوا لنا ثـــروة علمية هائلة عُدّت من عيون التراث العربي الإسلامي، ممثلة في آلاف المخطوطات المكتوبة باللغة العربية في مختلف الفنون والعلوم، ومتفرقة في أنحاء المناطق والأمصـــار»[١]، حتى إنه لا تكاد تخلو حاضـــرة من حواضر الممالك الإســـلامية في إفريقيـــا من وجود كمٍّ من المخطوطات العربية الإسلامية.

نحـــاول في هذه العجالة إلقاء الضوء على تراث المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية كمًّا وكيفاً، وتاريخ نشأتها وتطورها، وانتشارها، وحالها من حيـــث العناية والاهتمام بها، ومدى أهمية المخطوط العربي الإسلامي الإفريقي، وما يحمله من مؤشرات ودلالات بصفته العنصر الرئيس لهوية القارة المســـلمة وانتمائها، وأهم مكونات حضارتها، والمرتكز الأساس لنهضتنا في حاضرها ومستقبلها.

■ التـراث العربـي الإسـلامي.. بدايـة التدوين والتوثيق:

بدأت عملية التدويـــن والتوثيق والتأصيل العلمي والمنهجي والتقييـــد بالكتابة في عهد النبـــي محمد صلى الله عليه وســـلم، ووُضعت قواعـــد الروايـــة في علم الحديـــث من النظر في حال الـــرواة وطرق النقل وحـــال المروي، جاء في كتاب الشـــيخ طاهر الجزائري (توفية النظـــر إلى أصول الأثـــر): «توهّم أناس أنه لم يقيد في عصر الصحابة وأوائل عصر التابعين بالكتابة شـــيء غير الكتاب العزيز، وليس الأمر كذلك؛ فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت ألّـــف كتاباً في علم الفرائـــض، وذكرالبخاري في صحيحه أن عبـــد الله بن عمرو كان يكتب الحديث، وذكر «مسلم» كتاباً أُلّف في عهد ابن عبـــاس في قضاء علـــيّ»[٢]، وكان مما دُوّن في السنة الأولى للهجرة (وثيقة المدينة)، ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك عصره.

بذلك بدأت عمليـــة التدوين، وقامت حركة التأليف الإســـلامي العربـــي، وتفرعت مناهج الكتابة في شـــتى أنواع العلـــوم والمعارف، ولم يمض قرنان من وفاة الرســـول صلى الله عليه وسلم حتى أصبحت صناعة الكتب ومهنة النسخ منتشرة، وقامت تجارة الكتب في كل أنحاء العالم الإسلامي، عبّر المؤرخ «وول ديورانت» عما بلغه الاهتمام بذلك في العصر العباسي بقوله: «لم يبلغ الشـــغف باقتناء الكتب والمخطوطات في بلـــد آخر من بلاد العالـــم – اللهم إلا في بلاد الصيـــن – ما بلغه في بلاد الإســـلام في هذه القرون، حين وصل إلى ذروة حياته الثقافية»[٣].

تناولـــت المصنفـــات المخطوطة العربية الإســـلامية شـــتى فروع المعرفة وأنواع العلوم المختلفـــة، وقامت المكتبـــات الملكية والعامة والخاصة فـــي كل مكان، وأصبح المخطوط من الكتـــب تراثاً متـــداولاً بين النـــاس، وتطور كمًّا وكيفاً، حتـــى وصلت أعـــداده الملايين، «يقدّر المعهد العربـــي للمخطوطـــات التابع للجامعة العربية عدد المخطوطات العربية الإســـلامية بأربعة ملايـــين»[٤]، موزعة فـــي أنحاء متفرقة مـــن العالم، ولكنها بحســـب الواقع وما تشـــير

١) التراث الإفريقي العربي بين الاندثار ومحاولات الإنقاذ، الخضر عبد الباقي، موقع الإسلام اليوم http://www.islamtoday.net

٢) توفية النظر، ص ٨.

٣) وول ديورانت: قصة الحضارة، تعريب أحمد بدران، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م، ج ١٣، ص ١٧١.

٤) التقدير الذي وضعه المعهد العربي للمخطوطات التابع للجامعة العربية (أربعة ملايين) تقدير متواضع؛ وخصوصاً أن بعض المصادر تشير إلى أن هنالك أكثر من ٥ ملايين مخطوطة عربية قديمة وحديثة في مكتبات بلدان غرب إفريقيا وحدها، انظر تقرير: www.aawsat.com.

إليه بعض البحوث والدراسات فوق ذلك كثيراً؛ فملايين المخطوطات مكنوزة في خزائن خاصة لم يبلغها العدّ والحصر، وبخاصة في إفريقيا، فمدينة تمبكتو Timbuktu في مالي ـ مثلاً ـ تزخر بخزائن لمخطوطات لم تر النور بعد، ولا تزال كميات كبيرة منها في منازل متوارثة لقرون طويلة، يقول في ذلك «موريس مورفي» من مكتبة الكونجرس الأمريكي: «إن حوالي مليون مخطوطة موزعة في أنحاء تمبكتو، وربما ثلاثة ملايين مخطوطة في أرجاء إفريقيا الغربية»[١].

■ التواصل العربي الإفريقي قبل الإسلام وبعده:

عرفت إفريقيا العرب واللغة العربية قبل الإسلام بعدة قرون؛ فقد وصلت بعض القبائل العربية والتجار العرب إلى سواحلها الشرقية، وتوغلوا إلى أجزائها الداخلية، «... ووصلوا إلى بحيرة تشاد ونهري شاري ولوغون جنوبي تشاد وشمالي دولة إفريقيا الوسطى [الحالية] في حقبة ترجع إلى ما قبل الإسلام وما بعده»[٢]، كما عبَروا مضيق باب المندب منذ أقدم العصور، واكتشفوا البلاد الواقعة على الساحل الشرقي الإفريقي من بلاد الدناقلة (تقع حالياً في شمال السودان) والحبشة شمالاً، وحتى موزمبيق ومدغشقر جنوباً.

وقد اتخذت بعض الهجرات العربية التي تمت في خلال القرن السابع الميلادي شكلاً استيطانياً؛ إذ تشير (مخطوطتا كلوا وباتي)[٣] إلى بعض تلك الهجرات، وما نتج عنها من بناء بعض المدن الساحلية المهمة، مثل مومباسا وزنجبار وكلوا ومالندي.

إلا أنه يمكن القول – بصورة عامة – أن ما كان قبل الإسلام من هجرات العرب وعلاقاتهم بإفريقيا لم تكن ذات أبعاد حضارية ولم ترتكز إلى أسس دينية أو فكرية عميقة كما كانت بعد الإسلام، فالإسلام وما لازمه من نشاط دعوي وعلمي وحركات جهادية كان المرتكز الأساس الذي أثمر حضارة عريقة في إفريقيا، وقام عليه التاريخ الإسلامي لإفريقيا، وبخاصة التاريخ الوسيط لإقليم غرب إفريقيا، فقد كان لنشاط العلماء الدعوي والعلمي دور كبير في صناعة هذا التاريخ. وارتبطت بذلك اللغة العربية بوصفها لغة الإسلام والمفتاح إلى العلوم الإسلامية، وهو ما جعل تعلمها والكتابة بها من الواجبات، ربما اهتداءً بمقولة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلّموا العربية فإنها من دينكم»؛ فلا غرو أن ترك لنا هؤلاء العلماء تقاليد راسخة وثابتة في مجال التأليف بهذه اللغة[٤].

■ نشأة المخطوطات الإسلامية العربية في إفريقيا وتطورها:

يمثّل دخول الإسلام في إفريقيا البداية الحقيقة لنشأة المخطوطات العربية الإسلامية فيها؛ إذ كان المصدر الرئيس لوجودها وتطورها، وقد ثبت أن تاريخ المخطوط العربي الإسلامي في إفريقيا يعود إلى القرن الأول الهجري، وذلك خلافاً لبعض الدراسات التي تُرجعه إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي؛ فقد وُجد مخطوط ضمن ما عُثر عليه في

١) ٤٠٠ مخطوط عربي تنتظر التحقيق بنيجيريا. الخضر عبد الباقي - إسلام أون لاين. نت. ٢٠٠٢/٧/١٩م. وانظر: مئات الآلاف من المخطوطات الإسلامية الفريدة معرضه للضياع في مالي http://www.alsareha.net/vb/showthread.php?p=701162

٢) نشأة الوجود العربي - الإسلامي في وسط إفريقيا - تشاد نموذجاً. أ.د. عبد السلام إبراهيم داود بغدادي. http://www.mubarak-inst.org

٣) التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وغربها: دراسة مقارنة. بروفيسور الأمين أبومنقة محمد. http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=97

٤) التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وغربها - دراسة مقارنة - بروفيسور الأمين أبومنقة محمد. http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=97 (بتصرف).

كينيا، «عنوانه (أخبار لامو)، يرجع تاريخ تدوينه إلى العام ٧٦ الهجري»[١]، فهذا الكشف يُثبت قدم تاريخ تراث المخطوطات الإفريقية، وطول امتداده الزمني، كما أنه يغيّر فهماً آخر يتمثل في اعتقاد بعض الباحثين أن شرق إفريقيا كان تفاعلها مع الإسلام ضعيفاً، وبخاصة في مجال الكتابة والمخطوطات العربية.

كما أن دخول الإسلام في القرن السابع الميلادي لوسط إفريقيا التي تضم الغابون، الكونغو برازافيل، وإفريقيا الوسطى - بانغي، والكونغو كينشاسا، وغينيا الاستوائية، وساوتومي برنسيب، ومنطقة تشاد التي تُعد البوابة إلى باقي دول وسط إفريقيا؛ كان بداية لتاريخ المخطوط العربي الإسلامي فيها، «يؤكد كثير من الباحثين والمستشرقين الأوروبيين أن الشخصية التشادية قد تأثرت بالثقافة العربية الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي، إلى درجة أن كثيراً من الدول التي قامت على أرض تشاد عبر القرون اللاحقة، مثل دول: كانم، وباقرمي، ووداي، اتخذت من اللغة العربية لغة رسمية لها»[٢]، فدولة كانم - مثلاً - كانت مراسلاتها ومحارمها (مراسيمها وتصاريحها) وخطاباتها جميعها باللغة العربية، كما دوّنت بها تاريخها ونمط إدارتها وحضارتها.

وأما غرب إفريقيا؛ فبالرغم من أن تاريخ المخطوطات العربية فيها جاء متأخراً نسبياً عن تاريخها في شرق إفريقيا، قبل القرن الثالث عشر الميلادي، فإنها شهدت ازدهاراً وتطوراً كبيرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وكثرت فيهما المؤلفات العربية، وكان للكتب العربية قيمتها، وانتشرت المكتبات العامة والخاصة، وقد أبدع علماء تمبكتو مخطوطات رائعة الجمال باللغة العربية في العلوم الإسلامية واللغة والأدب والرياضيات والطب والشريعة وعلم الفلك وعلم الحيوانات والتاريخ الإسلامي، وكان من بينها نسخ لكتب نادرة حوتها خزائن المكتبات العامة والخاصة.

■ عوامل نشأة التراث العربي الإسلامي المكتوب في إفريقيا وتطوره:

من أبرز العوامل التي أسهمت في ذلك:

دخول الإسلام لإفريقيا: وما أحدثه فيها من تطور ديني وفكري، أدى إلى قيام نهضة علمية شاملة، وازدهار حركة التأليف والتدوين والكتابة والنسخ وتطورها.

قيام الممالك الإسلامية في إفريقيا: مكّنت الممالك للغة العربية، وجعلت منها لغتها الرسمية، ودوّنت بها تاريخها، إلى درجة أن بعض الباحثين أشار إلى أن شهرة الممالك الإسلامية التشادية لا ترجع فقط إلى عظمتها وطول عمرها - على الرغم من أهمية ذلك -؛ وإنما كذلك لكثرة ما خلّفت هذه الممالك من وثائق ومؤلفات وكتابات باللغة العربية[٣].

قيام جامعات ومدارس علمية نشطة: تكوَّن فنّ الكتابة ونَمَا في ظل مؤسسات التعليم والبحث التي انتشرت بانتشار الإسلام في أنحاء متفرقة من إفريقيا، وساعدت على نشر المخطوطات، ومن أبرز تلك الجامعات «جامعة تمبكتو» الشهيرة، وقد مثّلت «جامعة سنكوري» نموذجاً حياً يشهد على ازدهار صناعة المخطوطات في تمبكتو، وهناك «مدرسة بير» في القرن السابع عشر الميلادي و «مدرسة

١) الشيخ عبد الغفور البوسعيدي رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في كينيا. مجلة الوعي الإسلامي - العدد رقم ٥٢٦.

٢) نشأة الوجود العربي الإسلامي في وسط إفريقيا .. تشاد نموذجاً. أ.د. عبد السلام ابراهيم داود بغدادي. http://www.mubarak-inst.org

٣) د. محمد صالح أيوب: التغيرات الاجتماعية الكبرى. ص ٣.

كوكي» التي درس فيها كثير من طلبة العلم، في عاصمة البرنو «كَوكَو».

الحركات الدينية: مثل حركة الشيخ عثمان بن فوديو وغيرها، فقد جعلت تلك الحركات اللغة العربية لغتها الرسمية في القضاء والفتاوى وجميع العقود والمراسلات، كما أنها أسهمت بجهود كبيرة في حركتي التأليف والنسخ وتطورهما.

تشجيع الأمراء والسلاطين والوزراء في الممالك الإسلامية: ورعايتهم ودعمهم للعلم والعلماء وطلبة العلم (نظام الرعاية)، حيث كانوا يخصّصون الهبات والعطايا للعلماء مقابل جهودهم العلمية والفكرية والقيام بالتأليف والكتابة، «وقد لاحظ ذلك حسن بن الوزان عند زيارته لمملكة مالي، وذكر «...أن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء الآخرين»[1].

الشيوخ والعلماء: فقد كان لجهودهم أثر قوي في نشر الإسلام والعلوم الدينية واللغة العربية، والاهتمام العام بها وبمراجعها العلمية ومخطوطاتها في المجتمعات الإفريقية. فالناظر في الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا كما يقول بروفيسور عز الدين موسى: «يجد أن خير مقاييس لها هي: عدد العلماء، عدد الطلاب، وتنوع أماكن التعليم، حركة التمدن، الكتب الواردة، والمكتبات الخاصة، ودرجة اتساع التأليف. وفيما يخص عدد العلماء يذكر السعدي صاحب تاريخ السودان أنه عندما أسلم سلطان جني كان بها ٤٢٠٠ عالماً»[2].

الاهتمام باقتناء الكتب والمخطوطات: وتكوين المكتبات العامة والخاصة، وهو أمر ساد في كل حواضر العالم الإسلامي بما فيها حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا، يقول المستشرق آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري): «أن أوروبا وقتها لم يكن بها أكثر من عدد محدود من المكتبات التابعة للأديرة. ولا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارها، فقد كان في كل بيت مكتبة، وكانت الأسر الغنية تتباهى بما لديها من مخطوطات نادرة وثمينة، وكان بعض التجار يسافرون إلى أقصى بقاع الأرض لكي يحصلوا على نسخة من مخطوط نادر أو حديث، وكان الخلفاء والأثرياء يدفعون بسخاء من أجل أي مخطوط جديد»[3]. وقد أصبحت تجارة الكتب والمخطوطات أكثر رواجاً وربحاً من غيرها، وكان الخطاطون يبيعون النسخ التي يصنعونها مقابل غِرامات من الذهب.

اكتشاف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي: فقد كان لاكتشاف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي فضل في انتشار تأليف المخطوطات ونسخها، فقد انتشرت صناعة المخطوطات في المنطقة الساحلية الإفريقية، كما ساعد وصول أنواع الورق الجيد إلى هذه الحواضر من مدن جنوب أوروبا على ازدهار حركة التأليف وزيادة نشاطها في خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

تفرق المسلمين وهجرة العلماء من الأندلس بعد انحسار الدولة الإسلامية فيها: حيث انتشر العلماء في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي وبخاصة إفريقيا، وأسهموا في إحياء الحركة العلمية وانتشار المخطوطات .

١) وحدة الحضارة الإسلامية. سيد حامد حريز عميد الدراسات العليا - جامعة إفريقيا العالمية. http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=6

٢) عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية غرب إفريقيا. دار الغرب الإسلامي - بيروت. ط ٢ ،٢٠٠٣م - ص ١١٣.

٣) عبقرية الحضارة الإسلامية وشواهدها - منتدى التوحيد.

التواصل المستمر بين العلماء المسلمين العرب في بلاد المغرب العربي والعلماء الأفارقة: وبخاصة في منطقة غرب إفريقيا، وقد كان لذلك أثر كبير في التطور العلمي، ونشاط الكتابة والتأليف.

اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء في الدول الإسلامية في إفريقيا بالتراث المخطوط: والاحتفاء بنفائس الفكر الحضاري، وحرصهم على البحث عنها واقتنائها وحفظها في ممالكهم ودولهم، ونشرها بين رعاياهم بإنشاء مكتبات للمساجد، وتزويد العلماء بالكتب كملك الكانم وملك غاوو، وكان هؤلاء بحكم قدراتهم المادية يهتمون بأربعة أمور: «النوادر من كتب القرنين الثاني والثالث للهجرة، والكتب التي بخطوط مؤلفيها من القرون المبكرة أيضاً، والنسخ التي كتبها خطاطون مشهورون من المصاحف ودواوين الشعر، والنسخ الخزائنية التي استنسخوها لأنفسهم، أو أمروا بتزيينها فنياً لمكتباتهم»[1].

■ واقع المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية اليوم، (نماذج ومشاهد):

ظلت المعارف الإسلامية ومخطوطاتها غالبة على المشهد الإفريقي حتى بدء الزحف الأوروبي، إلا أنه بعد غلبة الاستعمار وما أحدثه من تغيرات في أنظمة الممالك الإسلامية في الجوانب السياسية والتشريعية والتعليمية؛ أصاب الثقافة العربية الإسلامية ضعف شديد وانهيار، وهو ما أضعف الاهتمام بالمخطوطات وأفقدها شيئاً من قيمتها العملية، فأوصدت عليها الخزائن وطُمر بعضها تحت التراب، وهي تعاني الإهمال وسوء الحفظ، ورداءة المكان.

■ كنوز المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية:

مئات المكتبات الخاصة موزعة في بعض الدول الإفريقية، تشاد ونيجيريا والنيجر والكاميرون وبوركينا فاسو، وغيرها من الدول الإفريقية، تضم ما يقرب من (٥) ملايين مخطوطة، تنتمي إلى عصور قديمة، وحتى القرن التاسع عشر لم يتم استكشافها والبحث في مواضيعها حتى الآن.

وأكثر من (٨٠٠) كتاب ومخطوط، تمثل قيمة بالغة الأهمية لدراسة التراث الاجتماعي والثقافي لزنجبار وسواحل إفريقيا الشرقية، توجد لدى المحفوظات الوطنية في شرق إفريقيا.

وعشرات الآلاف من المخطوطات في مدينة تمبكتو (جوهرة الصحراء) بمالي، يعود عمرها لأكثر من ثمانية قرون، ويبلغ عدد المكتبات الخاصة في مالي وحدها قرابة (١٢٠) مكتبة خاصة، يضم ما يقرب من (٢٢) مكتبة منها مليون مخطوطة على أقل التقديرات.

ومن أشهر المكتبات العائلية في تمبكتو مكتبة الشيخ عبد القادر حيدرة التي افتتحت رسمياً للزوار سنة ٢٠٠٠م، وتحتضن المكتبة اليوم أكثر من (٩٠٠٠) مخطوطة ومادة مطبوعة، يعود أقدم مخطوطاتها إلى القرن التاسع الهجري، وتوارثت هذا المخطوطات عائلة حيدرة منذ ما قبل القرن السادس عشر الميلادي.

وهنالك «مكتبة أحمد بابا» التي تحولت إلى «مركز أحمد بابا» يضم (٣٠٠٠٠) مخطوطة، و«مكتبة فوندو قاطي»، وتضم (٧٠٢٨) مخطوطاً، و «مكتبة طاهر» التي تضم أكثر من (٣٧٠٠) مخطوط مكدسة بعضها فوق بعض داخل صناديق، إلى جانب أوعية معدنية.

مكتبة الإمام السيوطي في تمبكتو تحتوي على مخطوطات قيّمة، منها نسخة من القرآن

(1) www.azuad.com/showthread.php?p=21375

الكريم يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر، كما تضم المكتبة مخطوطاً نادراً في علم الفلك، إلى جانب مخطوطات أخرى تتناول الرياضيات والتاريخ والطب والفلسفة وغيرها، وأقدم مخطوطات في هذه المكتبة يعود تاريخها إلى القرن ١٢ الميلادي.

كما توجد في السنغال مجموعات من المخطوطات النادرة ضمن عدد من المكتبات الخاصة.

ومن أبرز بيوت العلماء التي تحتفظ بمجموعات من المخطوطات العربية الإسلامية في نيجيريا: بيت وزير صكوتو الوزير جنيد، وبيت الشيخ محمد ناصر الدين كبرا بمدينة كانو الذي يحوي أكثر من ألفي مخطوط، وقصر أمير كانو، وقصر السلطان أبو بكر بمدينة صوكوتو، وقصر شيخ برنو سلطان برنو بمدينة ميدو غري، وكلها بمناطق شمال نيجيريا.

كما أن المتاحف الوطنية في نيجيريا تحتفظ ببعض المخطوطات، مثل: المتحف القومي بمدينة جوس، والمتحف الوطني بمدينة كادونا، ودار الوثائق القومية بمدينة صوكوتو شمال نيجيريا، وبعض المكتبات العامة والجامعية بها عدد من تلك المخطوطات، كمكتبة جامعة أبادن الشهيرة، إضافة إلى بعض

إحدى مكتبات المخطوطات العديدة في مدينة تمبكتو

مخطوطات نادرة لا حصر لها يتهددها التلف بمالي

المعاهد المتخصصة في الجامعات النيجيرية مثل معهد البحوث الإفريقية بجامعة أبادن.

وأما في إقليم شرق إفريقيا؛ فإن عدم الوقوف على كثير من المخطوطات، وبالأخص تلك التي في حوزة أسر السلاطين الذين كانوا يحكمون في شرق إفريقيا، لا يعني عدم وجودها، وإن كانت لا تبلغ في عددها ما بلغته في غرب القارة.

ففي حوار مع «الجزيرة نت» قال مدير مركز البحوث مراد رضوان إنه على الرغم من عراقة الإسلام في الحبشة؛ فإن الظروف السياسية ساهمت في جهل العالم بمساهمات إثيوبيا في إثراء التراث الإسلامي. ومن المعروف أن مدينة «تمبين» في «تقراي» كانت مستودعاً للوثائق التاريخية للحبشة قبل الإسلام وبعده، كما يقول عبد الله شريف، وهو من المهتمين بالمخطوطات العربية الإسلامية في إثيوبيا، ويقدر أحد الباحثين النصارى أن ما نسبته ١٠٠ في المائة من التاريخ الإثيوبي في القرون الوسطى مكتوب باللغة العربية، مما يعني أن العلماء العرب هم من كان لهم السبق في كتابة التاريخ الإثيوبي.

ويذكر الأكاديمي والباحث في شؤون التراث الإثيوبي، ورئيس شعبة اللغة العربية في جامعة أديس أبابا الأستاذ محمد سعيد أنه «لم يتم الاعتراف بالتراث الإسلامي على الإطلاق

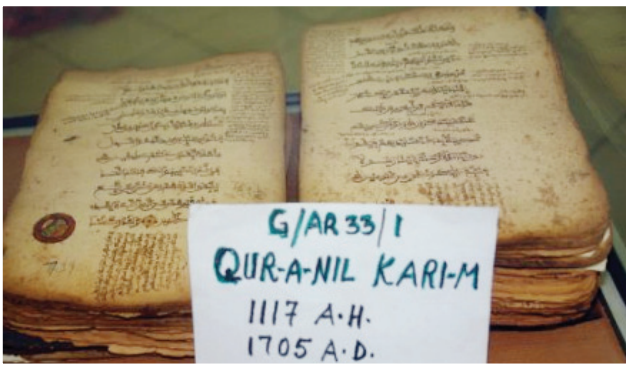

مصحف خطي مؤرخ ١١١٧هـ من مجموعة كادونا

على أنه تراث إثيوبي في السابق إلا في الوقت الحالي؛ على اعتبار أنه جزء من التراث الوطني العام، ...»[1].

ويتوقع أن يؤدي الكشف الأثري الأخير لموقع مملكة «شوا» الإسلامية القديمة، والتي قامت في إثيوبيا وبلغت أوج عظمتها في القرن السادس الهجري في منطقة «إيفات» بوسط إثيوبيا، إلى معرفة المزيد عن التراث الإسلامي، والعثور على كنوز من المخطوطات العربية الإسلامية فيها.

متحف المخطوطات الإسلامية بهرر Melikian Collection[2]:

افتتح متحف مدينة هرر في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٨م بحضور مؤسسه السيد عبد الله علي شريف الذي كافح طويلاً منذ مطلع سنة ١٩٩٠م للحصول على مواد تراثية من منطقته لعرضها كمجموعة دائمة، ويحتوي المعرض الدائم على أرشيف غني من المخطوطات التاريخية المهمة وغيرها.

وتقبع في تنزانيا بعض المخطوطات التراثية النادرة في مكتبة جامعة دار السلام، كما توجد في زنجبار العشرات من المخطوطات العربية والسواحلية النادرة.

وفي «مسجد ماليه» الواقع في الضاحية الإسلامية «كيب ماليز» في العاصمة التشريعية لجمهورية جنوب إفريقيا «كيب تاون»؛ تحوي خزانة زجاجية مغلقة على أول مصحف مخطوط في البلاد، قام بكتابته الشيخ يوسف الرفاعي الأندلسي الأصل، والذي هاجر إلى جنوب إفريقيا عام ١٧٩٤م، ...»[3].

إلا أنه بالرغم من الجهود المبذولة محلياً وعالمياً فإن معظم المخطوطات لم يتم حصرها، ويحتاج ما تم حصره إلى الفهرسة والتحقيق والنشر، يوضح أستاذ اللغة العربية في «المدرسة العليا» في ليون وأحد مطلقي برنامج «فيكماس» (تقويم ونشر المخطوطات العربية لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء) قائلاً: «إن ٢٥٪ فقط منها موضع جرد، و ١٠٪ موضع فهرسة، فيما ٤٠٪ ما زال داخل حقائب من خشب أو حديد!».

هذا غير المخطوطات المخبَّأة في المنازل والتي لا يرغب المحتفظون بها رفع اليد عنها، وهو ما يحول دون وصول الباحثين والدارسين أو غيرهم من المهتمين إليها.

وثمة إشكالية أخرى ترتبط بعملية التصنيف؛ حيث يتم في الغالب باللغة الأجنبية.

١) الأكاديمي والباحث في شؤون التراث الإثيوبي ورئيس شعبة اللغة العربية في جامعة أديس أبابا: محمد سعيد. عكاظ - الخميس.

2) http://www.quran-alrabita.com/vb/showthread.php?p=5099,
http://i826.photobucket.com/albums/zz181/DrSuheil/QMC/Harar3.jpg

3) http://www.coptichistory.org/new_page_376.htm

بعض المخطوطات العربية الإسلامية النادرة في متحف سان تكلا باثيوبيا

■ مشكلات تواجه المخطوطات مواجهة التلف والضياع:

يقدّر بعض الخبـــراء أن مخطوطات نادرة ونصوص إســـلامية فريدة لا تُقـــدّر بقيمة ولا يمكـــن التعويض عنها، وتمثّل حقباً تاريخية من الحضارة الإســـلامية والثقافة العربية، منها ما يمثّل الـــدور الفريد لإفريقيـــا الغربية، تواجه خطر التلف والاندثار بسبب سوء الحفظ.

نسخة أصلية لمصحف مجزأ (٣٠ جزءاً) مع حافظته الجلدية، من مخطوطات متحف مينة «هرر» التي تعد واحدة من مراكز الحضارة الإسلامية المهمة في شرق إفريقيا، وقد وجدت بعض نسخ القرآن الكريم من تراث مخطوطات المنطقة ضمن مجموعات المخطوطات في أوروبا وأمريكا

قسّم بعض الباحثين المشكلات التي تتعرض لها المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا إلى نوعين[1]:

١ - مشكلات مباشرة: تتمثل في خطر الأضرار البيئية والطبيعية: كالرطوبة والضوء والحرارة، وكذلك خطر الأضرار الكيميائية، مثل الغازات وغيرها، إضافة إلى الأخطار البيولوجية، كالأضرار التي تسببها بعض الكائنات الحية، مثل الحشرات والقوارض والفطريات والبكتيريا والإنسان أيضاً.

٢ - مشكلات غير مباشرة: تتمثل في عدم الاهتمام بتراثنا العربي الإسلامي: ويرجع ذلك للجهل بقيمته كما يعود إلى أسباب سياسية أو دينية أو أحوال مادية، أو غير ذلك. إضافة إلى عدم توفّر الأجهزة اللازمة والمواد الضرورية للحفاظ على المخطوطات وصيانتها، وعدم توفّر الكوادر المتخصصة بالقدر الكافي.

يشير إمباكي إلى بعض المشكلات الخاصة المتعلقة بحفظ المخطوطات في الغرب الإفريقي، والتي لها أكثر من دلالة، قائلاً: «أن السلطات الاستعمارية هي صاحبة المبادرة الأولى في جمع المخطوطات المتوفرة لدينا، وحفظها بطريقة منتظمة بهدف دراسة المجتمعات الإفريقية، ولكن يبدو أن هذا الاهتمام كان محصوراً في بعضهم وفي نوع من المخطوطات»[2].

■ جرائم لا تُنسى:

ارتكبت في حق التراث الإسلامي في إفريقيا بعامة والمخطوطات بخاصة جرائم عديدة متعمدة؛ إذ تعرضت للنهب والحرق والإتلاف في فترات تاريخية متلاحقة.من ذلك:

- قيام الجنرال الفرنسي أرشينار بنهب كنوز المخطوطات من المكتبات الخاصة، ومنها مكتبة أسرة جاليا بسيقو، وإلقاء كميات منها في النهر، وإحراق بعضها، وذلك في خلال فترات الحروب والغزوات القبلية.
- التدمير والإحراق الذي أصاب تراث المخطوطات العربية الإسلامية على يد سلطان مراكش في خلال هجماته على ملوك صنغي.
- الكارثة التي أصابت المخطوطات العربية الإسلامية في أثناء حركة القضاء على تجارة الرق، في الفترة ما بين القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي؛ حيث أُتلف الكثير منها.
- الإتلاف الذي حصل لمعظم وثائق دول «الهوسا» ومؤلفاتها إبان محاربة امبراطورية صوكوتو للممالك الهوساوية.
- سرقة كثير من المخطوطات مؤخراً من قبل قوات الاحتلال الأوروبية التي قضت على الممالك ودمرت المدن الإسلامية الزاهرة في غرب إفريقيا وغيرها.
- الجريمة التاريخية التي قام بها امبراطور الحبشة هيلي سيلاسي لإزالة المعالم الإسلامية الأثرية، وإتلاف المصادر التاريخية والعلمية للحضارة الإسلامية في الحبشة.

هذا غير أعمال تخريب ونهب وسرقات فردية أو منظمة تجري بصورة مستمرة في غفلة من الرقابة والقانون!

١) بتصرف من مقدمة كتاب: المخطوط العربي بين الوصف والتحليل. الباحثة/ انتصار العمري.

٢) الباحث في قسم اللغات والحضارات بالمعهد الأساسي لإفريقيا السوداء بجامعة شيخ أنت جوب في دكار. الدكتور خديم محمد إمباكي http://news.bdr130.net/news7123.html

■ إنقاذ المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا:

إن عملية إنقاذ المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا عملية شاقة، ذات أبعاد متعددة: قانونية واجتماعية وتربوية وإعلامية، تتطلب خبرات فنية وإمكانيات مادية وتقنية عالية، كما تحتاج إلى جهود مشتركة (محلياً وإقليمياً وعالمياً) من الجهات والمؤسسات المعنية الرسمية وغيرها، بدءاً بمراحل التهيئة والتوعية الإعلامية والاجتماعية، والترتيبات التشريعية والقانونية، ثم عمليات جمع المخطوطات وتنظيمها وفهرستها، ثم الصيانة والترميم والتجليد، تأتي بعد ذلك عملية تصويرها، ثم تحقيقها ونشرها ليستفيد منها الجميع.

■ جهود عملية إنقاذ المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية وحفظها:

شهدت السنوات الأخيرة جهوداً مكثفة وتعاوناً إقليماً وعالمياً لتوفير الدعم المالي والفني وغيره للعناية بالمخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا، شاركت فيه دول ومنظمات عالمية وإقليمية، منها: اليونسكو، والإيسيسكو (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، وكثير من المراكز والمعاهد والمؤسسات والجامعات، وبعض المؤسسات الغربية،.

وتم تنفيذ عدد من المشروعات والخطط والبرامج ، منها:

- عقد بعض المؤتمرات، وإقامة بعض الندوات والمعارض المحلية والعالمية للتعريف بتراث المخطوطات، كان آخرها الندوة التي أقامتها جامعة النيجر في أبريل عام ٢٠١٠م
- إنشاء العديد من الأقسام والمكتبات المتخصصة بالجامعات والمراكز والمعاهد، والمتاحف الوطنية في معظم الدول الإفريقية، كما في نيجيريا ومالي وغيرهما.
- تبنّي مشروعات لحماية المخطوطات وأرشفتها، منها: «مشروع حماية مكتبات الصحراء» الذي تُموِّلُه الحكومة الإيطالية، وجهود، مؤسسة الفرقان الإسلامي في لندن التي افتتحها في نهاية الثمانينيات الشيخ أحمد زكي يماني، التي قامت بعمل "survey"أو الفهرس الشامل للمخطوطات الإسلامية في العالم وخصوصاً في إفريقيا جنوب الصحراء.

كما قامت جامعة الدول العربية بطبع كتاب «المخطوطات الإفريقية بالحرف العربي» في ٥٠٠ نسخة، وتم تقديمها إلى الشخصيات والمؤسسات المهتمة بالشؤون الثقافية الإفريقية والعربية.

- تأهيل الكوادر الفنية وتدريبها لترميم المخطوطات والكتب والوثائق وحفظها، وإنشاء أكاديميات أو أقسام متخصصة لذلك ببعض المراكز القائمة، كما هو الشأن في قسم الترميم التابع لمكتبة «ماما حيدرة» في مالي .

ويذكر في ذلك قيام مركز جمعة للثقافة والتراث بدبي في الإمارات العربية المتحدة بإهداء ٢٤ جهازاً آلياً للترميم إلى مراكز بحوث ومؤسسات أكاديمية وعلمية في ثماني عشرة دولة عربية وإسلامية؛ منها في إفريقيا: الجزائر – السودان – السنغال – الكويت – النيجر– تونس – جيبوتي – ليبيا – مالي – موريتانيا، وتقديم الاستشارات والخبرات والقيام بالدورات التدريبية محلياً وعربياً ودولياً في مجال الترميم، حيث قدم التدريبات لأكثر من ١٦ مركزاً عربياً وإسلامياً.

❊ إنشـــاء أقســـام علمية متخصصة في بعض الجامعات الإفريقية، وتدريب الباحثين وتأهيلهم.

❊ إصـــدار قوانين وتشـــريعات، وبخاصة فيما يتعلق بتحويـــل المخطوطات الخاصة إلى الجهات الرسمية، وحماية المخطوطات، وحقوق الملكية الفكرية.

❊ ومن الخدمـــات المهمة التـــي قُدمت لنشر التراث إعداد الدراسات والموسوعات المختلفـــة للتعريف بالمخطـــوط، وإصدار المجلات والدوريات المتخصصة في دراسة المخطوطات.

❊ جهود جمعية المخطوطات الإســـلامية (tima) والتي تعد من الجمعيات النشـــطة في خدمة المخطوطـــات والتي تعمل حالياً على تطوير نظام إدارة المخطوطات العربية في غرب إفريقيا. مستخدمة برنامجاً فعالاً للأرشـــفة، تتوفر فيه المزايا التي تســـاعد المفهرســـين، مع تعدّد العاملين والوسائط والإمكانيات، وهو برنامج (داتا بيز)، وتوفره مجاناً على موقعها على الشـبكة العنكبوتية.

❊ مشـــروع اليونســـكو الرامي إلى إعادة كتابة تاريـــخ إفريقيا العـــام؛ حيث جمعت خبـــراء الـــدول المختلفة لتحديد شـــروط تحرير هـــذا التاريخ، ومن أهمهـــا الوثائق الصامتة، والاعتماد على المصادر المكتوبة عن تاريخ إفريقيا بما فيها المخطوطات.

❊ جهود بعـــض المستشـــرقين في جمع المخطوطات العربية الإسلامية ونقلها إلى الغرب، والقيام بحفظها وفهرستها، وأحياناً تحقيق بعضها ونشره.

إلا أن الأمانـــة العلمية اقتضي إعادة النظر في جهود المستشرقين وتقويمها لأسباب عدة، وبخاصة ما يتصل بالتاريخ الإسلامي لإفريقيا، والدين والعقيدة، وقد أشـــار عدد من الباحثين والعلماء إلى ما وقع من تحوير وتزييف للتاريخ الإسلامي لإفريقيا.

■ مراحل مقترحة لخطة إنقاذ تراث المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا:

أولاً: عملية الاستكشـــاف والجمع والحصر والتســـجيل: وقـــد كان مـــن أهـــم توصيات اجتماعات مؤتمر كـــوت ديفوار الذي عُقد في أبيديجان (ما بين ٣١ أغسطس إلى ٥ سبتمبر ١٩٦٦م)، ومؤتمـــر تمبكتو في مالي (ما بين ٣٠ نوفمبر إلـــى ٧ ديســـمبر ١٩٦٧م) العمل على جمع المخطوطات، وتأســـيس مراكز ومعاهد متخصصة لذلك.

ثانياً: عمليـــة الترميم والمعالجة والحفظ: فالورق الذي كُتبت عليه المخطوطات يحتاج إلى عناية خاصة وترميـــم وتجليد فني، ومعالجات كيميائيـــة للترميـــم النســـيجي للمخطوطات التالفة، وذلك يتطلـــب توفير مختبرات خاصة بالترميم، وتوفيـــر الفنيين وتدريبهم.كما تحتاج إلـــى مخازن معينة بمواصفـــات فنية ووظيفية خاصة.

ثالثـــاً: عملية الإعـــداد الفنـــي: الإعداد الفنـــي والحفظ والقيد (الأرشـــفة والنشـــر الإلكتروني): بتطبيق المعايير العالمية للفهرسة وتوحيدهـــا، وتســـهيل الحصول علـــى الصور الرقمية والميكروفيلم للمخطوطات والأقراص المدمجـــة، وذلـــك حســـب النظـــام العالمي «إســـاد»[1]، واتباع أفضل النُّظم التقنية لإدارة المخطوطات وتمكين الاســـتفادة منها علمياً، كذلك إنشـــاء آلية لحماية حقوق المؤسســـات التي تمتلك المخطوطات.

١) «إساد»: ISAD(G): General International Standard Archival Description

رابعاً: عملية دراسة المخطوطات: وذلك بتشجيع المنح الدراسية ذات الصلة بتحقيق المخطوطات ودراسة موضوعاتها، وما يعنيه ذلك من ضبط للنص والتعليق عليه، والدلالة على القضايا العلمية، والتعريف بمؤلفي هذه النصوص.

خامساً: نشره وتوظيفه: وهي عمليات ما بعد النص والدرس المباشر؛ من حيث توظيفه في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي الإفريقي، وجعله جزءاً من نسيج الحاضر، وحافزاً نحو صناعة المستقبل.

■ أهمية المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية:

أولاً: القيمة الذاتية: المخطوط يتضمن قيمة ذاتية ترجع إلى كونه نوعاً من أوعية المعلومات والعلم والمعرفة متميزاً عن غيره، فهو - بخلاف الكتاب المطبوع - يحمل قيمة ذاتية كبيرة مهما كثرت نسخه، بالإضافة إلى استحالة تعويضه في حال الضياع أو الاندثار.

ثانياً: مجال للدراسات المخطوطية: فالمخطوط الأصلي يُعد مجالاً خصباً لدراسات عدة تتصل بعلم المخطوطات أو ما يُسمى «الكوديكولوجيا»، وعلم تاريخ النصوص، و «البيبليوغرافيا»، وتُعد دراسة «نص المخطوط» أهم تلك الدراسات، بل ربما كانت الغاية العليا التي كثيراً ما تُوظف من أجلها الدراسات الأخرى هي دراسة المخطوط «فيلولوجياً».

ثالثاً: الخصوصية: خصوصية المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا ترجع إلى قيمتها التأصيلية، ومرجعيتها العامة المعتمدة على المصادر الرئيسة (الدين واللغة) اللذين يكسبانها تميزاً نوعياً في طبيعة منهجيتها ومكوناتها الثقافية والفكرية وأطرها العامة، والغاية من تأليفها ومنهجيته، فهي بذلك تتميز عن سائر المخطوطات الإفريقية، كما تتميز عن المخطوطات العربية وإن اشتركت مع كل منهما في وجه من الوجوه.

رابعًا: أهميتها التاريخية: يتمثل ذلك في «البعد الزماني» لتاريخ المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية، ويتضمن:

أ - الامتداد التاريخي: فالمخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية بصورة عامة تمتد على مدى خمسة عشر قرناً من الزمان، وهو ما يجعل منها سجلاً حافلاً بالمعلومات والوقائع والشواهد. ويجعلها من أغنى مصادر التاريخ وأوثقها للقارة الإفريقية.

ب - طبيعة المراحل التاريخية لهذه المخطوطات: لقد واكبت المخطوطات أهم مراحل تاريخ القارة الإفريقية، وأكثرها عطاء، وكانت وليدة عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الوقت الذي كانت أوروبا تتخبط في ظلمات القرون الوسطى.

ج - المرجعية التاريخية: تشكِّل المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية مرجعية أساسية للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية، وتوثيق الوقائع والحقائق والأحداث، وهي تقدم لنا أهم تركة تراثية فيما ما ترويه عن بدايات الإسلام في إفريقيا وتاريخه إذ تبين مضامين النصوص والمخطوطات بشكل جلي، وخاصة على صعيد الشرائع القانونية والسياسية، أثر رغبة الإفريقيين الغربيين في اعتناق الدين الإسلامي، وتؤكد هذه المخطوطات أن معظم أجزاء القارة، كزنجبار والسودان وغيرها، بلاد مسلمة منذ القرن الأول الهجري؛ إذ ترصد لنا المخطوطات العربية الإسلامية مثل (مخطوطتي كلوا وباتي) مشاهد تاريخية للهجرات العربية الإسلامية التي نتج عنها بناء

بعض المدن الساحلية المهمة، مثل «مومباسا» و «زنجبار» و «كلوا» و «مالندي»، وعن وصول الإسلام إلى بلاد «هوسا» التي تفصلها عن الجزيرة العربية مساحات شاسعة من اليابسة، عبر هجرات مجموعات سكانية وسيطة: كالبربر والماندينكا والفولاني القادمين من أقاصي الغرب، بالإضافة إلى البرنو، كما تكشف عن تميز الهجرات إلى بلاد «هوسا» بطابعها الدعوي والعلمي أكثر من الهجرات الأخرى، وهو ما أدى إلى عمق التأثير والتحول النوعي الذي أحدثوه فيما يتصل بالدعوة ونشر العلم.

د - أهم مكونات تاريخ القارة وعوامل وحدتها ونهضتها: المخطوطات بصفتها شواهد تاريخية موثوقة تعطي مؤشراً لحقيقة سعى بعضهم ولا يزال يسعى إلى طمسها، وبخاصة الدوائر الغربية والتنصيرية، وهي أن الإسلام أهم المكونات الأساسية في تاريخ الشعوب الإفريقية، بل أهم مرتكز لنهضتها في حاضرها ومستقبلها، وأن «الحضارة الإسلامية والمد الإسلامي في إفريقيا يبقيان الدعامة الرئيسية في خلق وحدة فكرية وعقدية، وفي بلورة كيان ثقافي واجتماعي لا يخلو من أبعاد سياسية، وهذا ليس بالنسبة لإفريقيا فقط، بل بالنسبة للقارات المعروفة قديماً جميعها...»[1].

هـ - إعادة كتابة التاريخ: إن إعادة كتابة تاريخ إفريقيا الإسلامي ونشره أمر له أهميته حتى تعرف الأجيال الإفريقية الحديثة تاريخ قارتها المسلمة، وتعمل على تصحيح ما زيّفته الدوائر الغربية وكثير من الأقلام الحاقدة لطمس هوية القارة المسلمة، وقطع انتمائها وتعديل مسيرة حضارتها. فإحياء تاريخ إفريقيا الإسلامي استعادة لشخصيتها الإسلامية وقوتها، وتأكيد لانتمائها، يجعلها تستأنف مسيرتها التاريخية وإسهاماتها في الحضارة العالمية، وإن من أهم الشروط لأي جهد علمي لإعادة كتابة تاريخ إفريقيا، حتى يكون جهداً علمياً أصيلاً، أن يعتمد على المصادر المكتوبة والموثوق منها بصورة أساسية، وأوثق ما في ذلك وأكثره سعة وشمولاً المخطوطات الإسلامية العربية، وهو ما أكده الخبراء في ندواتهم ومؤتمراتهم، وقد خرج مؤتمر أبيديجان في كوت ديفوار (ما بين ٣١ أغسطس إلى ٥ سبتمبر ١٩٦٦م)، ومدينة تمبكتو (ما بين ٣٠ نوفمبر إلى ٧ ديسمبر ١٩٦٧م).

و - تنوع مصادرها: فالمخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية متعددة المصادر المكانية، فهي ترتبط بعدة دوائر جغرافية متسعة، تشمل معظم أرجاء القارة الإفريقية، واتساع بعدها المكاني - باتساع القارة - انعكس عليها كمًّا وكيفاً من حيث حجمها وتنوعها وثرائها،كانياني للمخطلإسلامية الأفريقيةلأفريقية متعددة المصادر الجغرافية فاختلفت في ذلك باختلاف البيئات الإفريقية.

ز - دلالتها على عمق التفاعل: تعكس المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا في كثرتها وتنوعها وقيمة محتوياتها دلالة قوية على عمق التفاعل الإفريقي مع الإسلام ولغته العربية، ولا تكاد تخلو حاضرة من حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا من وجود كمٍّ من المخطوطات العربية الإسلامية، وهو ما يكشف عن تفاعل نفسي وفكري عميق، امتدت آثاره إلى سلوك الإنسان ونشاطه في جوانب الحياة المختلفة، ولا يزال هذا التفاعل قوياً على الرغم مما بذلته الدوائر الغربية في زمن

(١) وحدة الحضارة الإسلامية في إفريقيا بين حسن الوزان وتحفة ابن بطوطة ورحلات تشين خه وسفالية أحمد بن ماجد. بروفيسور سيد حامد حريز عميد الدراسات العليا - جامعة إفريقيا العالمية http://www.mubarak -inst.org .

الاحتلال وما بعده من جهود لإخماده وإحلال روح الإعجاب بحضارة الغرب والتمكين لذلك في نفوس الناشئة من الأجيال الإفريقية وعقولها، فهي لا تملك ما وجده الأفارقة وغيرهم من الشعوب الأخرى في الإسلام؛ من كونه دين الفطرة والإنسانية الذي يتحقق معه الانسجام النفسي والتوافق الفكري بصورة تلقائية وعميقة.

رابعاً: الأهمية العلمية: تبين لنا هذه المخطوطات أهمية ما تركه علماء إفريقيا من عطاءات ثرية ومتنوعة في مختلف مجالات العلوم والآداب، فإذا كانت بعض المجموعات – وليس كلها – يغلب عليها طابع معرفي محدد، كأن تكون في علوم الدين مثلاً أو الفقه أو اللغة أو الأدب، فإن المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا قد تناولت علوم التراث كلها، فالملايين منها التي اكتشفت رصدت نشاط الإنسان العلمي في إفريقيا لخمسة عشر قرناً من الزمان، وتناولت المعارف الدينية والتطبيقية والثقافية والطبيعية، وعرضت لموضوعات عديدة في العلوم الدينية واللغة، والحكم والسياسة والقانون، والتاريخ العام، وتاريخ الممالك في إفريقيا، وتعاقب الملوك والسلاطين وسيرهم، والحركات الجهادية والإصلاحية، كما نجد طائفة منها في الرياضيات والفلك والطب، يقول أمين مكتبة الكونجرس الأميركي: «بإمكاني أن أراهن على أن بعض مواضيع هذه الكتب تقدّم مفاتيح لفهم تلك الأمراض التي لم نسمع حتى بها»، ونجد أمامنا أبحاثاً في الحكم السليم، ونصوصاً، وملخّصاً لدستور الصيدلة، والرياضيات، وتطالعك في بعضها أحكام قانونية بشأن حياة اليهود والمسيحيين «المرتدّين عن الدين»، ويشهد بعضها على النشاط التجاري الكثيف في إفريقيا والرحلات والملاحة.

خامساً: تجسيد الانتماء وتأكيد الهوية الإسلامية العربية للقارة الإفريقية: إن أكثر ما تتأكد به هوية أمة ويتجسد به عمق انتمائها الدين واللغة والفكر والثقافة، والمخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية بهذه العناصر تصل القارة بالأمة الإسلامية، والعربية منها بصورة خاصة، بأوثق الصلات وأقوى عوامل الانتماء والترابط العميق (الدين واللغة)، بل ربما كانت القارة الإفريقية المسلمة أسبق القارات تاريخياً في تحقيق هذا الانتماء، واكتساب هويتها الإسلامية، حتى أصبح الإسلام يوجه نظم الحياة وسلوك الإنسان فيها توجيهاً مباشراً وكاملاً، يؤكد الشيخ دان فوديو (١٧٥٤م – ١٨١٧م) في مذكراته، أنه وحتى وصول الأوروبيين «كان الفكر الإفريقي يبلور حباً للإسلام المنفتح على العالمية»[١].

ففي زيمبابوي مثلاً – كما في غيرها من أنحاء إفريقيا – نقف على مخطوطات نادرة، تتحدث عن العلاقات الوثيقة التي تربط بين الإسلام والقبائل الإفريقية، كقبائل «الزولو» و «الشونا»[٢].

المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية معالم حضارة وأسس بناء لمستقبل القارة:

بالتأمل في هذا التراث المخطوط بشواهده التاريخية القوية ونماذجه الحية، يقف على ما وصل إليه العلماء الأفارقة المسلمون وشعوب القارة في مجال الإسهام الحضاري للإسلام والثقافة العربية، وفي تطوير تلك الحضارة والمحافظة عليها ودراستها ونشرها.

وتتضح معاني الحضارة الإسلامية ومعالمها فيما تضمنته المخطوطات العربية الإسلامية

١) http://www.shamela.ws برنامج المكتبة الشاملة.
2) http://almoslim.net/node/107740

الإفريقيـــة من دراســـات في القـــرآن الكريم، وفي الحديث النبوي الشـــريف، وفي الســـيرة النبوية، وفي المعارف والعلوم الإسلامية، وفي الآداب الرسمية والشـــعبية المدونة والمقيدة بالكتابة، وتنعكس كذلك فيما وصفته من سلوك المسلمين ونظم حياتهم، وعاداتهم وأعرافهم.

فالباحـــث يمكنه من خلال دراســـة هذه المخطوطـــات الوقوف علـــى دلالات حضارية واسعة في عمق المفاهيم التي تحكم الممارسات، وتوجه الســـلوك العام في المجالات السياسية والاقتصاديـــة والاجتماعية؛ مـــن التفصيلات الفقهية والتشـــريعات القانونيـــة العملية، فهي تقف شاهدة على ما أحدثه الإسلام من تحولات حضارية عميقة، ففيها إنشأه النظم السياسية والاجتماعيـــة والاقتصادية ونماذج للحكم التي تتسم بقيم العدالة والمساواة في إفريقيا، وقد شـــهد الواقع هذه النظم التي ظلت حتى دخول الاستعمار تستمد شرعيتها وأحكامها وأساليبها مـــن نظم الحكم التي كانت ســـائدة في العالم الإسلامي.

كما يُعطي اتســـاع رقعة المخطوطات في أنحـــاء القارة المختلفة دلالة على ســـعة دائرة انتشار الحضارة الإســـلامية في إفريقيا، فقد أبـــرزت المخطوطات ذلك من خـــلال امتداد رقعتها الجغرافية من جنوب إفريقيا وموزمبيق جنوباً إلى أقصى القارة شـــمالاً، ومن سواحلها شـــرقاً إلى الســـنغال غرباً، وهي بذلك تغطي القارة بأكملها.

إن هذه المعالم التي تجسّدها المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية للحضارة الإسلامية والمد الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا؛ تؤكد أن هذه المقومات ستظل الدعامة الرئيســـة في ترســـيخ وحدة فكرية وعقدية، وتطوير كيان ثقافي واجتماعي وسياسي واحد، وقيام نظم راشـــدة للحكم والإدارة في إفريقيا تحقق لها أكبر قدر من الانســـجام والاستقرار والنمـــاء، فعهد القـــارة بالإســـلام والممالك الإســـلامية ليس ببعيد، والجذور لا تزال قوية راســـخة، ولا يزال صدى القرآن يتردد، والآذان يُرفع، في أنحاء القـــارة، ومخطوطاتها العربية الإسلامية تراث غني يجسد المسيرة التاريخية لماضيها وحاضرها ومستقبلها المشرق.

المشهد الإفريقي

تقرأ في المشهد:

- أهم الأحداث
- إفريقيا بالأرقام
- قالوا عن إفريقيا
- إفريقيا والتنمية
- أخبار في عناوين
- ذاكرة التاريخ
- فرق وأديان
- آراء ورؤى
- بنك المعلومات (إثيوبيا)
- فعاليات

١١ أكتوبر: اختتم قادة الدول العربية والإفريقية وزعماؤها في مدينة سرت الليبية أعمال قمّتهم الثانية، أقرّوا خلالها مشروع استراتيجية شراكة وخطة خمسية لمشروع عمل مشترك بين العرب والأفارقة، ومشروع إعلان سرت، وإنشاء الصندوق الإفريقي العربي المشترك للحدّ من آثار الكوارث التي تتعرض لها الدول العربية والإفريقية... يُذكر أن العرب والأفارقة لم يعقدوا قمّة بهذا المستوى منذ قمّتهم الأولى التي عُقدت بالقاهرة عام ١٩٧٧م؛ أي قبل نحو أكثر من ٣٠ عاماً.

موقع العرب أونلاين

١٦ أكتوبر: طوّر علماء من هيئات بحوث حكومية كينية وأوغندية وشركة مونسانتو والمركز الدولي لتحسين الذرة والقمح ١٢ نوعاً من الذرة المقاومة للجفاف لإفريقيا من المقرر أن تتم زراعتها. وشركة مونسانتو مؤسسة للتكنولوجيا الحيوية الزراعية، مقرها الولايات المتحدة، وهي شركة رائدة في العالم لإنتاج المبيدات... وأجرى العلماء تجارب في أحوال مماثلة في كينيا وتنزانيا عام ٢٠٠٩م، وستُزرع الذرة المعدّلة وراثياً الآن في حقول محددة، تتراوح مساحتها بين فدان واحد وفدانين اثنين، بمجرد أن توافق هيئات الرقابة هناك على ذلك... لكنّ النقاد والمستهلكين، ومعظمهم في إفريقيا وأوروبا، شكّكوا في سلامة الأغذية المعدّلة وراثياً، وتمّ حظر استيرادها أو زراعتها بسبب المخاوف من الضرر الذي يمكن أن تُلحقه بالإنسان وبالحياة البرية.

وكالة رويترز

١٦ أكتوبر: قالت مصادر أمنيّة في النيجر إن رئيس المجلس العسكري الحاكم اعتقل ضابطين كبيرين من ضباطه للاشتباه في تآمرهما للإطاحة به. وتُظهر هذه الاعتقالات الانقسامات داخل المجلس العسكري، والتي يمكن أن تمثل تهديداً لعودة محتملة للحكم المدني العام القادم في الدولة المنتجة للنفط في غرب إفريقيا.

وقال ضابط رفيع – طلب عدم نشر اسمه – لرويترز: «أُلقي القبض على الكولونيل بديع والكولونيل صديق، وهما محتجزان في مقر قيادة الأمن الوطني في إطار تحقيق في مؤامرة ضد الدولة»، وكان «عبد الله بديع» الرجل الثاني المسؤول في المجلس العسكري الحاكم، أما «عبده صديق» فكان من كبار القادة في الحرس الوطني، ولم يرد تعقيب على الفور من أيٍّ من الضابطين.

وكالة رويترز

١٦ أكتوبر: قال مدحت عسكر رئيس قطاع إفريقيا في المقاولون العرب: «الوجود المصري ضعيف في القارة، خاصة إذا قارناه بالحضور الصيني أو الكوري أو الإسرائيلي أو الهندي، ناهيك عن الأوروبي»، فلا توجد شركات مصرية من القطاع الخاص تعمل في إفريقيا سوى شركة السويدي. من المعروف أن جميع الدول الإفريقية مستعمرات أوروبية سابقة، أبرمت بمجرد استقلالها اتفاقات تجارة مع الدولة المستعمرة، نتج عنها سيطرة الشركات الفرنسية على أسواق الدول الفرنكفونية (المستعمرات الفرنسية السابقة)، وبالمثل نجد الشركات البريطانية في دول الكومنولث الإفريقية (المستعمرات البريطانية السابقة)... لكن على الرغم من بعض النجاح في إثبات الوجود المصري في القارة نصادف غياباً واضحاً في مجالات

أخرى، حيث ينعدم التعاون الأكاديمي بين الجامعات المصرية والإفريقية، فبحسب عميد معهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة محمود أبو العينين: «لدينا ١٥ باحثاً في المعهد يُجرون دراسات تحتاج لبحوث ميدانية، لكننا لا نستطيع ابتعاثهم لدول إفريقية لاستكمال بحوثهم، كما لا نستطيع استقبال طلاب أفارقة في المعهد».

صحيفة الشروق المصرية

١٧ أكتوبر: بدأ عناصر بعثة الأمم المتحدة في جمهورية إفريقيا الوسطى وتشاد الاستعدادات للمرحلة الثانية من انسحابهم قبل ٣١ ديسمبر، وقال القومندان «اداما ديوب» من رئاسة الأركان:«جميع العمليات توقفت، والجميع يركز على المغادرة، وستتسارع العملية اعتباراً من الاثنين»، وصرح قائد البعثة محمدو كانجي: «خطتنا مصمَّمة بحيث يكون جميع العسكريين قد غادروا تشاد وإفريقيا الوسطى بين ١٦ أكتوبر و ١٥ ديسمبر»، وبات عدد البعثة أقل من ٢٢٢٥ رجلاً بعد المرحلة الأولى من الانسحاب بين ٢٨ مايو و ١٥ يوليو؛ عملاً بقرار الانسحاب الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي.

صحيفة الاتحاد الإماراتية

٣١ أكتوبر: طالبت جماعات إسلامية مواطني النيجر بمقاطعة الاستفتاء الذي يجري؛ لأنه يفصل رسميًا بين الدولة والإسلام في هذا البلد؛ الّذي يمثل سكانه المسلمون ٩٩ في المائة، حيث قال تشك بوبكر؛ عضو هيئة التضامن الإسلامي بالنيجر: "نحن ضدّ تلك التدابير الّتي تتعارض مع رغبة ٩٩ ٪ من سكان النيجر، الّذين هم من المسلمين"..

وذكرت وكالة رويترز أنّ الاستفتاء هو الأوّل، ضمن سلسلة من عمليات التصويت من المقرّر أن تنتهي بتنصيب رئيس مدني جديد في أبريل المقبل، مكان المجلس العسكري الّذي أطاح بالرئيس السابق محمد تانغا في فيفري. وكان المجلس العسكري الحاكم قد دعا النيجريين إلى التصويت على النص الذي يقيم جمهورية سابعة.

المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير

١٨ ديسمبر: حذر الأمين العام للأمم المتحدة «بان كي مون»؛ الرئيس الإيفواري الذي انتهت ولايته «لوران غباغبو»؛ من استخدام العنف لحل الأزمة السياسية في البلاد.. وطلب بان أيضا من غباغبو التنحي عن السلطة لصالح مرشح المعارضة «الحسن واتارا» الذي تم إعلانه فائزا بالجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية، التي جرت يوم ٢٨ نوفمبر الماضي وكانت لجنة الانتخابات قد أعلنت فوز واتارا بينما أعلن المجلس الدستوري فوز غباغبو... وقد اعترف الإتحاد الإفريقي والمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إكواس) والإتحاد الأوروبي فضلا عن العديد من البلدان بأن الحسن واتارا هو الفائز بانتخابات الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية.. وأدان مجلس الأمن الدولي أعمال العنف بعد الانتخابات وخاصة تبادل إطلاق النار بالقرب من فندق «غولف» في أبيدجان. وكان قد اندلعت مواجهات يوم الخميس ١٦/ ١٢ بين أنصار الحسن واتاروا وقوات الأمن التابعة لغباغبو مخلفة حوالي ٢٠ قتيلا والعديد من الجرحى.

وكالة أنباء عموم إفريقيا (بانا برس)

أفريقيا بالأرقام

- أغنى الدول في إفريقيا هي غينيا الاستوائية؛ إذ يبلغ نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي **50200** دولار سنوياً، تليها موريشيوس **13500** دولار، ثم جنوب إفريقيا **13000** دولار.

أفقر دولة في العالم مالاوي، يبلغ نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي لديها **600** دولار سنوياً، يشترك معها في المعدّل نفسه كلٌّ من الصومال وجزر القمر، تليها الكونغو الديمقراطية وبوروندي بمعدّل **700** دولار سنوياً.

أعلى معدلات التضخم في العالم توجد في زيمبابوي؛ إذ يبلغ معدّل سعر المستهلك لديها **374.70 %**، تليها أنجولا **76.60 %**.

كتاب أرقام تحكي العالم – عمرو توفيق

- استثمرت الصين **9.3** بلايين دولار في إفريقيا حتى نهاية العام الماضي، وذلك بحسب التقرير السنوي للعام الحالي عن العلاقات التجارية الاقتصادية والتجارية الصينية – الإفريقية، وبلغت قيمة الاستثمارات **1.44** بليون دولار في العام الماضي وحده، في مقابل **220** مليوناً فقط عام **2000** م، وهو ما يعكس الاهتمام المتزايد للصين بالموارد الطبيعية الإفريقية... يُذكر أن شركاء الصين التجاريين الرئيسيين في إفريقيا هم: أنغولا التي يبلغ حجم التبادل التجاري معها **17** بليون دولار سنوياً، ثم جنوب إفريقيا (**16** بليوناً)، والسودان (**6.39** بلايين) ونيجيريا (**6.37** بلايين).

صحيفة الحياة الدولية

- على الرغم من أن عدد سكان دول الكوميسا التسعة عشر (وهي دول: مصر والسودان وليبيا وإثيوبيا وكينيا والكونغو الديموقراطية وأوغندا وزامبيا وزيمبابوي وبوروندي وجزر القمر وجيبوتي وإريتريا ومدغشقر وملاوي وموريشيوس ورواندا وجزر سيشل وسوازيلاند) يبلغ **432** مليون نسمة؛ ويشكّلون أكثر من نسبة **6%** من سكان العالم فإن مجموع الناتج المحلي الإجمالي لتلك الدول بلغ **461** مليار دولار عام **2008** م، لذا يصل نصيبها من الناتج العالمي ثمانية بالألف من الناتج المحلي الإجمالي الدولي؛ أي أقل من الواحد بالمائة، وهو ما يعد أقل من الناتج الذي حققته السويد بالعام نفسه والبالغ **480** مليار دولار، والذي احتلت به المركز الثاني والعشرين على المستوى العالمي على الرغم من بلوغ عدد سكانها تسعة ملايين نسمة فقط.

صحيفة المصريون الإلكترونية

- وصل عدد المهاجرين السريين القادمين من جنوب الصحراء، منذ يناير **2005** م وإلى **16** سبتمبر **2010** م، إلى **23** ألف شخص من مختلف الجنسيات الإفريقية وبخاصة من مالي والسينغال، بالإضافة إلى حوالي **2900** متسلل جزائري، وما زالت الحملات التمشيطية متواصلة منذ سنة **2005** م وإلى اليوم، حيث بلغ عدد الموقوفين حسب مصادر أمنية أزيد من **25000** شخص.

صحيفة العلم المغربية

- وفقاً لتقديرات نُشرت في صحيفة «فاينانشيال تايمز» فإن ما لا يقل عن **854** مليار دولار (**702** مليار يورو) تسربت من إفريقيا منذ عام **1970** م في هيئة رؤوس أموال متراكمة فرّت من القارة.

صحيفة الاقتصادية الإلكترونية

قالوا عن.. أفريقيا

إن انفصال جنوب السودان يعد كارثة لإفريقيا كلها، فما من بلد في إفريقيا إلا فيه شمال وجنوب؛ ومسلمون ونصارى.

الرئيس التشادي إدريس ديبي

لا يحتاج المجتمع النيجيري إلى التعريف بالإسلام؛ لأنه دين مشهور ومعروف في المجتمع، ولكنه في حاجة إلى التعريف بالخطر الكامن في انتشار المدارس التنصيرية التي تعمل على تغيير عقيدة المسلمين وهويتهم، كما يحتاج المجتمع إلى إنشاء كثير من المدارس الإسلامية التي تمنح الشباب فرصة للتعليم الإسلامي الرشيد، وتعرّف الأجيال بدينهم وتفقههم فيه.

الشيخ مصطفى السنوسي

مدير دار الدعوة في نيجيريا

جاؤوا إلينا يحملون البندقية والإنجيل، فأمطرونا بالرصاص، ثمَّ غمَّموا أعيننا، ووضعوا أيدينا على المحاريث نقلِّب لهم الأرض ونزرعها، وبعد عناء طويل فتحنا أعيننا لنجد بأيدينا الإنجيل وبأيديهم الأرض والثروة، وكنَّا قد نسينا استعمال السلاح، فنحن اليوم نقلِّب الإنجيل ونتقلب في المجاعة والتبعية.

أديب كيني

اتجه المستعمرون إلى استعباد جسد الإفريقي، أمَّا المنصرون فقد استهدفوا روحه.

المنصّر «سونو»

إنَّ هذا الإسلام يؤلف حاجزاً أمام مدنيتنا المبنية كلها من مؤثرات مسيحية ومن مادّية ديكارتية... فإنَّ الإسلام يهدد ثقافتنا في إفريقيا السوداء... وعلى الرغم من أن بعض النفوس المتسامحة تميل بطبيعتها، وعن رضى منها، إلى عدم تقدير هذا الخطر (الإسلام) حق قدره، فإنه يبدو في الظروف الحالية للتطور الاجتماعي والسياسي لعالم البشر أنه من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم، أو تحاول على الأقل حصر انتشاره، وأن يُعامل وفق أضيق مبادئ الحياد الديني.

فيليب فونداسي - رئيس المكتب الخامس الفرنسي لمصلحة التجسس الفرنسية في مقدمة كتابه: (الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء)

عندما يريد الرجل الإنجليزي سوقاً جديدة لبضائعه الفاسدة التي ينتجها في مانشستر فإنه يرسل مبشراً لتعليم الأهالي بشارة السلام، ويقتل الأهالي المبشر، فيهب الإنجليزي إلى حمل السلاح دفاعاً عن المسيحية ويحارب من أجلها، ثم يستولي على السوق على أنها مكافأة من السماء!

برناردشو

إن محاولة إقناعي بأن سلامة عقيدتي المسيحية لا تتم إلا بتبني الحضارة والثقافة الأوروبية هي بمثابة إكراهي على تغيير شخصيتي بالقوة، وإذا جاز أن الله قد أخطأ بأن خلقني إفريقياً - تعالى الله عما يقولون - فإن ذلك لم يتضح لي.

رئيس أساقفة زامبيا

أكد وزراء مالية الدول الإفريقية خلال اجتماعهم على هامش المؤتمر الدولي للبنك الدولي وصندوق النقد الذي عقد في واشنطن العاصمة يتلريخ ١١ أكتوبر ٢٠١٠م؛ أن الدول الإفريقية لا تجد التمثيل الكافي لمصالحها من قبل المؤسسات الاقتصادية الدولية، حيث أوضح «كمارا كاليتا» وزير مالية كينيا أنه رغم أننا نواجه أكبر التحديات المتمثلة في نقص الغذاء وضعف الخدمات الطبية وعدم الاستقرار السياسي، وهو ما يمثل «مثلث برمودا لإفريقيا»، فإن إفريقيا لا تحصل على المساعدات الكافية من المؤسسات الدولية لإنقاذ إفريقيا من براثن الفقر.

صحيفة اليوم السابع المصرية

عقدت الأكاديمية الصينية للتجارة الدولية والتعاون الاقتصادي التابعة لوزارة التجارة الصينية مؤتمراً يوم ١٤ أكتوبر في بكين؛ لتقديم أول تقرير لها حول «العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الصين وإفريقيا لعام ٢٠١٠م»، وذلك بحضور مسؤولين من وزارة التجارة ووزارة الشؤون الخارجية ومسؤولين من إدارات صينية أخرى، وممثلي ٤٥ بلداً ومنظمات دولية ووكالات صينية غير حكومية، وأكثر من ١٣٠ ممثلاً لوسائل إعلام صينية وأجنبية. وقد شهد التعاون الاقتصادي والتجاري بين الصين وإفريقيا في السنوات الأخيرة تنمية سريعة وشاملة في مجالات التجارة والاستثمار وبناء البنية التحتية والمساعدات، بالإضافة إلى توسيع النشاطات المالية والاتصالات السلكية واللاسلكية والطاقة والطيران والسياحة وغيرها، ففي عام ٢٠٠٩م بلغ الحجم التجاري بين الصين وإفريقيا ٩١،٠٧ مليار دولار أمريكي، وأصبحت الصين أكبر شريك تجاري في إفريقيا، وكسبت الاستثمارات الصينية الإفريقية إنجازات ملحوظة في مجال البنية التحتية وغيرها من المجالات.

صحيفة الشعب الصينية اليومية أونلاين

قال مسؤول في منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة (فاو) إن الحكومات الإفريقية ينبغي ألا تتعجل في الدخول في صفقات كبيرة لتأجير الأراضي لمستثمرين أجانب وإلا فستخاطر بزيادة حدة الفقر والتوترات الاجتماعية. وجاءت تصريحاته بعد صدور دراسة من المنظمة شملت خمس دول في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث تم تخصيص ٦،٢ ملايين فدان على الأقل لمستثمرين كبار منذ ٢٠٠٤م، وأضاف أن أكبر صفقة كانت بمساحة ٤٥٢ ألفا و ٥٠٠ هكتار خُصصت لمشروع وقود حيوي في مدغشقر.

وكالة رويترز

قال مسؤول لدى «ستاندرد بنك» أكبر بنك في إفريقيا – لقمة رويترز العالمية للمناخ والطاقة البديلة على هامش مؤتمر للانبعاثات الكربونية في ملبورن – إنه يتوقع ازدهاراً في مشروعات الطاقة النظيفة في القارة السوداء. وقال جيوف سنكلير رئيس قسم مبادلة الكربون إن البنك يتوقع دعم تمويل المشروعات التي تتمتع بكفاءة استخدام الطاقة في الدول الإفريقية؛ بما يتيح التغلب على مشكلات نقص الطاقة وتوليد انبعاثات كربونية بنسب أقل؛ مما يسمح ببيع المستويات المتبقية للدول النامية الملوثة للبيئة.

وكالة رويترز

■ تتزاحم وتتسابق على القارة الإفريقية ألوان شتى من البشر جاءت ولم يكن قد خـــرج بعد الرجل الأبيض، بل بقي وإن متســـتراً بأقنعة جديدة مثل الحرب ضد الإرهاب، ومطاردة «القاعدة»، والســـيطرة على مصـــادر القوة النووية، وحفظ الســـلام، وضمان الاستقرار. الآن وفي كل مكان في إفريقيا نساء ورجال جدد ذوو بشـــرة صفراء قادمون من الصين، وذوو بشرة سمراء من الهند والبرازيل، وآخرون من البيض ولكنه بياض مختلف، هؤلاء هم الأتراك، كل الناس يتزاحمون على القارة السمراء إلا المصريين والعرب.

صحيفة الخليج الإماراتية

■ قال أعضاء وفد مؤسسة «دار الجمعة» للنشر والتوزيع بالدوحة – خلال تقويمهم لسير مشروع التعريف بالإســـلام في أثناء فعاليات كأس العالم في جنوب إفريقيـــا–: إنه قد تمّ بطريقة مُرضية جدّاً، حيث اختار فريق العمل مناطق استراتيجية للقاء ضيوف كأس العالم، وذلك لتزويدهم بحقيبة دعوية معدّة بعناية، تشمل: ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، كتاب «اكتشف الإسلام»، كتاب «اعرف نبيك» – عليه الصلاة والســـلام–، كتاب «الغاية من الخلق»، نُسخ من «مجلة الجمعة». وقد تكفّل أفراد الدار بالمســـاهمة فـــي التوزيع لجهات عدّة... وأكد القائمون على المشـــروع أن عملية توزيع الحقائب الدعوية قد كشـــفت عن إقبال كبير للزوار بغية التعرف على الدين الإسلامي الحنيـــف والاطلاع على تعاليمه. ولم يكتف الزوار بالاطلاع على الحقائب الدعوية المســـلّمة إليهم، بل تفاعلوا بالســـؤال مع القائمين على الحملة ممن قدّموا لهم مختلف الشـــروح والتفاسير الخاصة بالدين الإســـلامي، وتناقشوا معهم بشأن الانطباعات التي يحملونها عنه، والتساؤلات التي يثيرونها بخصـــوص عقيدته وتعاليمه، وقد أســـفرت هذه المحاورات عن إســـلام ٧ مـــن زوار كأس العالم ومشجعيه؛ ممن تأثروا بالحملة، وكذا بالمعاملة الطيبة التي وجدوها من مسلمي جنوب إفريقيا.

صحيفة الراية القطرية

ذاكرة التاريخ

تطوّرت صناعة الاستكشاف في نهايات القرن التاسع عشر، وبالتحديد بين عام ١٨٨٠م ونهاية القرن، بدأت الاستكشـــافات لتحقيق أهـــداف بريئة، مثل البحث عن مدينة تومبيكتو الأســـطورية، والوصول إلى منابع النيجر، ولكنها انتهت بأن صار المستكشفون عملاء لدول أوروبا وملوكها، يعقدون باسمهم الصفقات التجارية، ويســـجّلون الأقاليم الشاسعة المكتشفة بأسماء شـــركات أوروبية وأمراء وملوك أوروبيين. وكان مورتون ستانلي الذي عمل لحســـاب الملك ليوبولد الثاني المثال البارز على فئة شريرة من المستكشفين، وهو الذي خصّص الكونغو مســـتعمرة خاصة للملك البلجيكي، وحفر نهـــراً من دماء لم يتوقف نزفها منذ ذلك الحين. وبعد ستانلي جاء كارل بيترس وآخرون كثيرون... هكذا وبفضل هذه الأسباب وغيرها لم ينته القرن التاسع عشر إلا وكانت القارة الإفريقية قد خضعت للاستعمار الأوروبي، باستثناء دولتين هما إثيوبيا وليبيريا، علماً بأنه لم يكن لأوروبا في إفريقيا في بداية القرن أكثر من ١٠٪ من أراضيها خاضعاً لها.

صحيفة الخليج الإماراتية

● تنفذ منظمات غربية ذات طابع إنساني أنشطة تنصيرية وسط اللاجئين الصوماليين في كينيا، مستغلة الظروف الصعبة التي يواجهونها، وسط غياب تام للسلطات الصومالية.

وتقود منظمة «حصان» الأميركية بالتعاون مع هيئة «المؤمنون الصوماليون المسيحيون» برئاسة علي حيلي -صاحب الجنسية الأميركية -؛ النشاط التنصيري وسط الفقراء واللاجئين الصوماليين في كينيا؛ وفق روايات وشهود عيان التقتهم الجزيرة نت مؤخرا.

يشار إلى أن منظمة «حصان» الأميركية مؤسسة خاصة غير ربحية مسجلة في ولاية كاليفورنيا، ولها مكتب فرعي في كوريا، وفتحت مكتبها الإقليمي في كينيا ١٩٩٤م، ويتركز نشاطها في كينيا والصومال.

وأكدت مصادر صومالية في كينيا تحول عشرات المسلمين الصوماليين إلى المسيحية نتيجة الفقر، إضافة إلى تخلي الجهات الصومالية الرسمية عن مسؤوليتها في حماية مصالح لاجئيها في كينيا.

المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير

● تتَّهم الأوساط السياسية رئيس جزر القمر عبد الله سامبي باعتناق المذهب الشيعي سرًّا، والسعي لنشره في الدول العربية السنِّيَّة مستعيناً بمبدأ «التقيّة» الشيعي الذي يسمح بإظهار ما يخالف الحقيقة إذا ما كانت هناك ضرورة لذلك.

ويؤكد القمريون أن سامبي أقام لفترة في دبي، وكان يؤدي الصلوات في المسجد الشيعي (الحسينية) المواجه للمستشفى الإيراني بمنطقة الجميرا، كما تؤكِّد المواقع الإلكترونيَّة للملالي اعتناق رئيس جزر القمر المذهب الشيعي، وأن سامبي يُعد أحد أبرز رجال الدين الأجانب من القارة الإفريقية ممن تتلمذوا على يد المرجع الديني محمد تقي المدرسي لسنوات في حوزة الإمام القائم، «وذلك بعد أن (استبصر) على يد سماحته، وانتقل من المذهب السنّي إلى مذهب أهل البيت، وتحوَّل بذلك إلى مُبلّغ كبير للتشيُّع في جُزُر القمر».

الإسلام اليوم

● دأبت الإرساليات المسيحية في إفريقيا على التأثير في القادة السياسيين لكسب عطفهم، ومن ثمّ يُفسحون المجال لهم للعمل بحرية، كما أن أغلب الدفعات الأولى من الطلبة في مدارس التبشير كانت من أبناء الزعماء والشيوخ والرؤساء المحليين ومن الطبقات المتميزة في المجتمع، وبعد التخرّج يعمل هؤلاء رؤساء وموظفين مسؤولين ونافذين في الدولة، وبخاصة بعد أن خرج المستعمر، وخير مثال لذلك سنغور في السنغال، وجولويوس نيريري في تنزانيا، وتحت مظلة أمثال هؤلاء تستطيع الكنائس أن تمارس التنصير الظاهر والخفي وسط المسلمين وغيرهم.

د. الناصر أبو كروق

موقع معهد مبارك قسم الله للبحوث والتدريب

● أعلن أحد ملوك جنوب نيجيريا إسلامه، وذلك بعد دعوة قامت بها مجموعة تنتمي إلى جماعة تعاون المسلمين في جنوب نيجيريا خلال شهر رمضان المبارك، وكانت المجموعة التي يرأسها الشيخ داود عمران ملاسا أبو سيف الله قد نجحت في الحصول على إذن ملك قرية «أدوو» وموافقته على لقاء الشيخ داود يوم السبت ٤ رمضان ١٤٣١م، وجلس معه الشيخ داود عمران لمدة ثلاث ساعات يبيّن له الإسلام، وأخبر الملكُ الشيخَ أن اسمه إلياس (اسم إسلامي)! لأن والده مسلم، ولكن لا يمكن لأحد أن يكون ملكاً على هذه القرية إلا أن يتحوّل إلى الشرك، وأن يكون عضواً في الجمعية الماسونية النيجيرية.

مفكرة الإسلام

هدَّد أسقف تومبورا جنوب السودان المونسنيور «إدوارد هيبورد كيسالا» ودعا إلى ضرورة إجراء استفتاء «شفاف وحيادي» مطلع العام المقبل، وذلك لتحديد مصير الجنوب السوداني، وإلا سيكون هناك عنف - على حد تعبيره -. وأشار خلال ندوة نظمها البرلمان الأوروبي حول اضطهاد المسيحيين والأقليات الدينية؛ إلى أنه في حال «لم يتم هذا الاستفتاء بشكل نزيه؛ فإن العنف سيعود للسودان»- حسب كلامه -، وعبّر عن قناعته أن السودان ليس بلداً مسلماً، كما يريد له بعض الناس، فـ «لدينا الكثير من المكوّنات العرقية والطوائف الدينية، والإسلام أحدها، فلا يمكن اعتبار السودان بلداً مسلماً» - وفق تعبيره -.

المرصد الإسلامي لمقاومة التنصير

عقد «مكتب التصوف العالمي» بالقيادة الشعبية الإسلامية العالمية اجتماعه العادي بمقر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس... وضمّ الاجتماع أمين عام القيادة الشعبية الإسلامية العالمية الذي أكد ضرورة الاهتمام بالتصوف وأهله؛ لافتاً بالخصوص إلى العديد من المحاولات من قبل بعض الجهات لاستغلال أهل التصوف في قضايا مختلفة. وكذلك حضر أمينها المساعد، وأعضاء مكتب التصوف العالمي بالقيادة، والأمناء المساعدون بالمكتب التنفيذي للقيادة عن الوطن العربي، والأمريكيتين وأوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وشؤون المرأة، كما حضره أعضاء اللجنة التنفيذية للمجلس العالمي للدعوة الإسلامية. وناقش المشاركون في الاجتماع وضع الترتيبات لعقد ملتقى التصوف العالمي، واختيار اللجنة التحضيرية للملتقى، وموعد انعقاده ومكانه.

صحيفة الفجر الجديد الليبية

آراء وؤى

استقبلت أسواق الكتب العالمية الطبعة الأولى من مذكّرات الزعيم الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا، في كتاب حمل عنوان (أحاديث إلى ذاتي)، صدر بعشرين لغة، وكتب مقدّمته أول رئيس أسود للولايات المتّحدة الأمريكية باراك أوباما، ويضمّ الكتاب أوراقاً خاصة بالزعيم الجنوب إفريقي الحائز جائزة نوبل للسلام، والذي تحوّل إلى رمز عالمي للكفاح، بينها مذكرات دوّنها خلال أحلك فترات حياته، وهي فترة سجنه الذي دام ٢٧ عاماً، يقول فيها: «من الأمور التي كانت تقلقني بشدة في السجن الصورة الخاطئة التي عكستها عن غير قصد إلى العالم الخارجي؛ وهي صورة القديس... لم أكن يوماً قديساً، حتى بالمفهوم الدنيوي للقديس باعتباره مخطئاً يستمر في المحاولة لتحسين ذاته».

موقع العرب أون لاين

المؤامرة التي استهدفت السودان لم تكن وليدة اليوم؛ إنما مخطط له من زمن بعيد منذ أن وقعت البلاد في أيدي بريطانيا عدوة الإسلام الأولى، ولم يكن الهدف جنوب السودان فقط بل السودان ومصر واقتلاع الإسلام من جذوره في هذه البلاد، فالسودان هو أكبر الدول الإسلامية مساحة، ويقع عند حدوده تسع دول، فكان لا بد من تفتيته وتقسيمه وإغراقه في الحروب الأهلية، وتمّ وضع الخطط الكفيلة بذلك منذ بداية عصر الكشوف الجغرافية، وبدأ التنفيذ بعد الاحتلال البريطاني لمصر وتعيين جوردون حاكماً عاماً على السودان باسم مصر! وكان جوردون هذا منصّراً يتبع الكنيسة، حاول تنصير أهل السودان الذين ثاروا ضده وقتلوه، وقالت عنه ملكة بريطانيا: «لقد فقدنا واحداً من أشد المخلصين للمسيحية»!

صحيفة المصريون الإلكترونية

جمهورية إثيوبيا الاتحادية الديمقراطية

■ **الموقع:** يحدها من الجنوب والشرق الصومال، ومن الشرق جيبوتي، ومن الشرق والشمال إريتريا، ومن الشمال والغرب السودان، ومن الجنوب كينيا.

■ **المساحة الإجمالية:** ١,١٢٧,١٢٧ كيلو متراً مربعاً.

■ **عدد السكان:** ٧٤,٧٧٧,٩٨١ نسمة (طبقاً لتقديرات يوليو ٢٠٠٦م).

■ **الجماعات الإثنية:** الأورومو (٤٠٪)، الأمهر والتيجراي (٣٢٪)، السيدامو (٩٪)، الصوماليون (٦٪)، الشانكيلا (٦٪)، العفر (٤٪)، آخرون (٣٪).

■ **الأديان:** المسلمون (٥٥٪ - ٦٥٪)، الأرثوذكس (٢٠٪ - ٣٠٪)، معتقدات تقليدية (١٢٪)، آخرون (٣٪ - ٨٪).

■ **اللغات:** الأمهرية (لغة رسمية)، والتجرينية والأورومو والصومالية والعربية والإنجليزية، وأخرى محلية.

■ **تاريخ الاستقلال:** إثيوبيا دولة مستقلة منذ حوالي ألفي عام، باستثناء الفترة من مايو ١٩٣٦م حتى مايو ١٩٤١م حين وقعت تحت الاحتلال الإيطالي.

■ **نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي:** ١٠٠٠ دولار (عام ٢٠٠٦م).

■ **معدّل النمو الحقيقي للناتج المحلي الإجمالي:** ٨,٥٪ (عام ٢٠٠٦م).

■ **العملة الوطنية:** البر.

■ **تاريخ إثيوبيا:** تُعد مملكة أكسوم من أقدم الممالك المعروفة في إثيوبيا، حيث ظهرت في الجزء الشمالي منها قبل الميلاد ببضعة قرون، وظلّت قائمة حتى القرن السابع، وكان ملوكها يحملون لقب «نيجو سانجاشت» (أي ملك الملوك)، ومنه جاءت كلمة «نجاشي»، وبعد زوال مملكة أكسوم ظلّت هذه الكلمة لقباً لملوك إثيوبيا التي كانت تُعرف بالحبشة حينئذ، وقد قام ملوك أكسوم منذ القرن الثالث بعدة حملات على جنوب الجزيرة العربية، من أشهرها حملة أبرهة عام ٥٣٢ التي حاول فيها هدم الكعبة المشرفة، ولكنّ الله تعالى أباد جيشه عن آخره، وقصتهم مذكورة في القرآن الكريم في سورة الفيل.

وتُعد الأسرة السليمانية أقدم الأسر الحاكمة المعروفة في إثيوبيا وأطولها حكماً، وطبقاً للأساطير الإثيوبية المتوارثة فقد نشأت هذه الأسرة عام ٩٧٥ قبل الميلاد حين تزوجت ملكة إثيوبيا «ماكيدا»، المعروفة أيضاً بملكة سبأ، بالنبي سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وأنجبت أول ملوك الأسرة السليمانية في إثيوبيا، وهو الملك «مينليطك الأول» المعروف أيضاً باسم داود، والذي تولّى الحكم عام ٩٥٠ قبل الميلاد. وفي عام ٣٣٠ بعد الميلاد اعتنق النجاشي «ميزانا» المسيحية على يد القديس «أثناسيوس»، وأعلن المسيحية ديناً رسمياً في مملكته.

■ **نظام الحكم:** إثيوبيا دولة جمهورية تأخذ بالنظام البرلماني.

■ **الإسلام في إثيوبيا:** دخل الإسلام إلى الحبشة (إثيوبيا) مع هجرة الحبشة الأولى عندما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عدداً من الصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وذلك في

العام الخامس من البعثة النبوية، وظلّت العلاقات بين المسلمين والأحباش قوية.

وقد هاجر عدد من القبائل العربية واستقرت في السهول الساحلية المحيطة بأرض الحبشة، وبمضي الوقت تحولت المراكز الإسلامية إلى إمارات أو ممالك إسلامية، أطلق عليها بعض المؤرخين اسم «إمارات أو سلطنات الزيلع الإسلامية»، وأطلق عليها المقريزي «ممالك الطراز الإسلامي»، فمثلاً ظهرت مملكة «شوا» الإسلامية التي بلغت أوج عظمتها في القرن السادس الهجري، كما ظهرت إمارات أخرى مثل إمارة هرر، وإمارة إيفات أو (أوفات)، وإمارة عدل، وإمارة هدية، وإمارة الدوارو، ومملكة فطجار أو (أرابين) وغيرها.

يشكّل المسلمون أغلبية في مناطق الأوجادين وهرر وعفر وأوروميه وبني شنقول، وتوجد هيئات ومؤسسات في إثيوبيا منها في أديس أبابا، كما توجد بعضها في ديوداوا وباتي ووالدايا.

وقد سجّل لنا التاريخ مراحل سجال متعددة بين ممالك الطراز الإسلامي ومملكة الحبشة المسيحية، فقد طمع الأحباش في مدّ سلطانهم لهذه الممالك التي تتحكم بحكم موقعها في منطقة القرن الإفريقي في التجارة الخارجية عبر المحيط، ودارت حروب بين هذه الإمارات والحبشة، وبعد القرن الرابع عشر تمكّن ملوك الحبشة من القضاء على معظم هذه السلطنات، وأجبروا معظم أهلها على اعتناق المسيحية، ولم يصمد أمامهم إلا السلطان سعد الدين سلطان زيلع.

وفي القرن السادس عشر اشتبك البرتغاليون مع إمارة عدل الإسلامية القريبة من حدود الحبشة، وكان أميرها الإمام أحمد جران قد استنجد بالعثمانيين فأمدوه بالأسلحة، وبين عامي ١٥٢٨م و ١٥٤٣م تمكّن الأمير جران من فتح بلاد جالا (الأورومو) وهرر وأكسوم وغيرها؛ مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد وعودة السكان إلى الإسلام من جديد. وتعرض المسلمون إلى الاضطهاد في عهد الإمبراطور تيودور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وفي عهد «منليك» خليفة «يوحنا» ظهر النفوذ الاستعماري وأخذ في التدخل للسيطرة على العديد من مناطق شرقي إفريقيا، وقد

قام السلطان «محمد علي» - وهو من سلاطين الأورومو - بمقاومة حكم «منليك»، ولكنَّه هُزم، فاختار التَّنَصُّرَ الظاهريَّ على القتل، وتزوج من ابنة «منليك» وأَنْجَبَ منها ابنه «ليج ياسو».

ولما تُوُفِّيَ «منليك» في عام ١٩١٣م انتقل الحكم لحفيده «ليج ياسو» الذي ما لَبِثَ أن أعلن إسلامه، وأبدل العَلَمَ القديم الذي يحمل الصليب بالعَلَم الجديد الذي يحمل الهلال، والمنقوش عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، لكن ذلك لم يُرض إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا، فعَمِلوا على إقصائه من الحكم، وتعيين «هيلاسيلاسي» الذي قام بوضع «ليج ياسو» في السجن مدَّة عشرين عاماً إلى أن مات هناك في عام ١٩٣٦م.

واستمرَّ حكم «هيلاسيلاسي» مدَّة خمسين عاماً، وقد قامت الحركات التحرُّريَّة والاستقلاليَّة المتتالية من شعب الأورومو المسلم، إلا أنهم ما زالوا في درجة من الضعف لا تُمَكِّنهم من الاستقلال، ثم إنهم ما زالوا مطارَدين من السلطات الإثيوبية.

أما منطقة الصومال الغربي «أوجادين»؛ فقد عُقِدَ اتِّفاق سِرِّيٌّ بين بريطانيا والحبشة في عهد «هيلاسيلاسي» خُوِّل من خلاله «هيلاسيلاسي» من ضمِّ الإقليم المُسْلِم إلى أراضي الحبشة، وعلى الرغم من التاريخ الجهادي الطويل منذ الاستقلال وحتى الآن فإن الحكومة الإثيوبيَّة لا تقدِّم أدنى الاهتمامات لهذا الإقليم الفقير.

والغريب أن المسلمين في إثيوبيا يمثِّلون ثلثي السكان تقريباً ومع ذلك فإن الدِّينَ الرسمي للدولة هو المسيحية، وقد حرص الرئيس «زيناوي» كسابقيه على إبقاء الطابع المسيحي للحبشة؛ فجعل نصيب المسلمين من مقاعد البرلمان ٢٢٪ فقط، ونصيبهم من الوزارات ثلاث وزارات غير سياديَّة من أصل ثماني عشرة وزارة، كما يحرص «زيناوي» على شنِّ الحملات العسكريَّة على تجمعات القوميَّات الإسلامية من حين لآخر دون انقطاع.

■ **علاقاتها مع إريتريا:** اندلعت بينهما حرب حدودية في مايو ١٩٩٨م وتجددت عام ٢٠٠٠م، وعلى الرغم من طرح عدد من المبادرات لتسوية هذا الصراع فإنه ظل قائماً حتى الآن. وحينما أصدرت محكمة التحكيم الدولية قراراً حول المناطق المتنازع عليها بين الدولتين عام ٢٠٠٢م؛ جاء القرار غامضاً وعاماً وتجنّب تحديد مسار خط الحدود بدقة تاركاً ذلك للجنة ترسيم الحدود، وهو ما فتح الباب أمام كل طرف لادّعاء أحقيته في المناطق المتنازع عليها، وبخاصة منطقة «بادمي».

وقد اتهمت إثيوبيا إريتريا بدعم مقاتلي جبهة تحرير الأورومو، وفي المقابل اتهمت إريتريا إثيوبيا بالعمل على زعزعة الاستقرار فيها، وفي ظل هذا الاحتقان وتراشق الاتهامات تبقى العلاقات الإثيوبية الإريترية في حاجة إلى عمل جاد من الطرفين لتسوية القضايا الخلافية بينهما، والتي ما زالت عالقة ومؤثرة في علاقات الطرفين حتى ٢٠٠٧م، وألقت بظلالها على دولة الجوار الصومال.

■ **المصادر:**

١ - دليل الدول الإفريقية. د. محمد عاشور مهدي- معهد البحوث والدراسات الإفريقية.
٢ - موسوعة ويكيبيديا.
٣ - موقع قصة الإسلام.
٤ - صحيفة إفريقيا اليوم الإلكترونية.

فعـــاليات

❋ أقيم في العاصمة التشـــادية إنجمينا؛ تحت رعاية الرئيس «إدريس ديبي إتنو» – رئيس البلاد-؛ في الفترة مـــن ٢-٤ أكتوبر٢٠١٠م؛ المؤتمر الدولي الســـابع الذي نظمته جامعة الملك فيصل عن الســـلام والتنمية بتشاد، وذلك بحضور ومشـــاركة أكثر من (١٠٠) عالم وباحث وأســـاتذة جامعات ومفكرين وإعلاميين؛ يمثلون أكثر من خمســـين دولة، كما حضر عدد من المســـئولين في المنظمات والمؤسســـات الخيرية الإنســـانية العاملة في تشاد، وعدد من مديري الجامعات ورابطة الجامعات الإســـلامية، وقد تناول المشـــاركون قضايا التنمية والســـلام في تشاد من خلال أكثر من (١٠٥) من البحوث وأوراق العمل والدراسات والمداخلات. وقد شـــارك المنتدى الإسلامي ممثلاً له الأستاذ مساعد بن محمد العجلان مدير العلاقات العامة وقد قام بتقديم هدية تذكارية للرئيس التشادي.

مجلة قراءات إفريقية

❋ اختُتمت فعاليـــات (الملتقى التربـــوي للطلاب الجامعيين) الـــذي نظّمه مكتب الندوة العالمية للشباب الإسلامي في السودان على مدى ثمانية أيام في شهر أكتوبر، وقد تضمّن العديد من النشاطات التربوية والصحية والرياضية والإدارية والاجتماعية والثقافية، وضمّ الملتقى أكثر من ٨٠ طالباً جامعياً، ينتمون إلى عدة جامعات، وشاركوا بفعالية في الندوات، ومـــن بينها ندوة حول (الملتقيات التربوية.. تعريفها وأهميتها وأهدافها ووســـائلها)، وندوة (التوفيق بين الدراسة الأكاديمية والقيام بالواجب العام خلال مرحلة الدراسة)، وقد ركّزت المحاضرات والبرامج التدريبية في تفعيل دور الطالب الجامعي في خدمة المجتمع، وكيفية تغييـــر الذات إلى الأفضل، وصفات الطالب الرائد، إلى جانب تقديم دورة في إدارة الوقت، وأخرى في الإسعافات الأولية، تضمّنت ٧ محاضرات نظرية وعملية عن الإسعافات الأولية، قدّمها مدرِّبون من الهلال الأحمر السوداني.

موقع الندوة العالمية للشباب الإسلامي

❋ انعقد الملتقى الإداري الثامن للمنتدى الإســـلامي، بتاريخ٢-١٤٣١/١١/٧هـ الموافق ٩-٢٠١٠/١٠/١٥م، بعنوان: (تطوير الجمعيات الأفريقية- نحو شراكة إستراتيجية فاعلة)، في المدينة العالمية للخدمات الإنســـانية، بمدينة دبي، بدولـــة الإمارات العربية المتحدة، بمشـــاركة أربع عشـــرة جمعية، من اثني عشـــرة دولة إفريقية، بالإضافـــة إلى ممثلين من مكاتب المنتدى الفرعية، ومشـــاركين من بعض المؤسســـات والجمعيـــات الخيرية بدولة الإمارات العربية. وقد امتد الملتقى على مدى ستة أيام متوالية، قدم فيها عدد من الدورات التدريبية والمحاضرات والنـــدوات، كما عقدت فيها عدد من ورش العمل وحلقات النقاش حول مجالات الشراكة.

مجلة قراءات إفريقية

فعـــاليات

❊ قدّمت الدكتورة آمال إبراهيم محمد إدريس، من جامعة القضارف بالســـودان، ورقة بحثية بعنوان «الدور المشـــترك للقادة العـــرب والأفارقة في ظل خصوصية الوضع الإفريقي الراهن»، وذلك خلال المائدة المســـتديرة للأســـاتذة العرب داخل الوطن العربي وخارجه، والتي نظمتها جامعة ناصـــر الأممية، وجاء فيها: إن اتفاقيات تقســـيم المصالح ومناطـــق النفوذ بين الدول الغربية الاســـتعمارية، وبخاصة بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤م ومـــا بعد ذلك من اتفاقيات في نفس الخصوص، كرّســـت حدوداً سياســـية بين دول القارة، وإذا كان الاستعمار أدى إلى تقسيمها فإن خروج الاســـتعمار قد أدى إلى تفتيتها حرفياً؛ ما جعلها أكبر قارات العالم من حيث عدد الدول وأكثر القارات حدوداً... شـــهدت مرحلة التحرر العديد من عمليات التجزئة والتفتيت، فأسفرت عمليـــات التحرر الوطني عن قيام (٥٣) دولة إفريقية مســـتقلة رغم أنها ليســـت أكبر القارات مســـاحة، ولم تعرف أي قارة من القارات الأخرى هذا الحجم الحالي من الحدود الصناعية، مع العلم بأن الحدود الطبيعية في القارة الإفريقية تبلغ فقط (٢٦) حداً طبيعياً، قسمت هذه الحدود المصطنعة القبائل في إفريقيا بشـــكل عشوائي، ومع ذلك أقرها ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية كحدود معترف بها لا تقبل التغيير تفادياً للصدامات بين دول القارة الإفريقية.

موقع صوت إفريقيا

❊ دعا مؤتمر الاســـتثمار الخليجي الأفريقي الذي نظمه مجلس الغرف السعودية بالتعاون مع مركز الخليج للأبحاث بالرياض، يومَيْ ٤- ٥ ديســـمبر ٢٠١٠؛ إلى ضرورة العمل من أجل تعزيز التبادل التجاري والتعاون الاقتصادي بين دول الخليج العربية والدول الإفريقية، والاســـتفادة من الفـــرص المتاحة لكلا الجانبين، وحدد أبرز معوقات عدم تدفـــق رؤوس الأموال الخليجية إلى الدول الأفريقية، وقدم عددا من المقترحات والتوصيات بشـــأنها.. ونوه البيان الختامي الصادر عن المؤتمـــر بالرياض بمضامين الكلمة التي وجهها الملك عبد الله بن عبد العزيز آل ســـعود للمشاركين في المؤتمر من رؤساء دول ووزراء ومسئولين من مختلف الدول الخليجية والمنظمات العربية والإفريقية والدولية.. ورصد المشاركون في المؤتمر واقع العلاقات الاقتصادية الخليجية الأفريقية، ورأوا أن العلاقات الاقتصادية التجارية والاستثمارية بين دول الخليج وإفريقيا لا تزال دون المســـتوى المطلوب، رغـــم توافر كل الإمكانات اللازمة لذلـــك، وتوفر فرص كبيرة لتعزيز التعاون والاستثمار المتبادل بين الجانبين.

موقع مجلس الغرف السعودية

❊ في مدينة الرياض الإثنين ١٤٣٢/١/٧هـ انعقدت الديوانية الإفريقية الشـــهرية ، وحضرها المهتمـــون بالعمل الدعوي في إفريقيـــا ، وكان موضوعها (علماء إفريقيـــا ودورهم في حماية الإسلام) ؟ وقد تركز الطرح على أهمية العلماء ودورهم، ووجوب خدمتهم للقيام بدورهم .

مجلة قراءات إفريقية

المنظمات (الإنسانية) الغربية ... وإفريقيا(*)

الإطار القانوني لعمل المنظمات الإنسانية فى إفريقيا
د. أيمن سلامة

المنظمات الإنسانية الأجنبية فى إفريقيا الوجه الآخر للدوافع النبيلة !!
د. أيمن السيد شبانة

المنظمات الإنسانية الأجنبية في دارفور بين الإنسانية والسياسة
د. الوليد سيد علي

إقليم أوجادين: انتقائية الإغاثة الإنسانية
أ. د. سيد فليفل

تقديم: مجلة قراءات إفريقية

تصحو إفريقيا بين حين وآخر على وقع أقدام غريبة، ففي الماضي كانت أقدام الاستعمار الذي احتل أرضها ونهب خيراتها، والآن المنظمات الإنسانية الأجنبية.

الأطماع لم تنته، والتربص لم يتوقف، ولم يدرك أهل القارة أنفسُهم حتى الآن قيمة الكنوز والخيرات التي أودعها الله تعالى في أرضهم، فصاروا يتقاتلون ويشرّد بعضهم بعضاً، ثم ينتظرون الطامعين الذين ينهبون خيرات القارة ليقدموا لهم العون والإغاثة!

وخُدع كثير من الناس بكلمة (إنسانية)، فصدّق أن تلك المنظمات الأجنبية جاءت للإغاثة البريئة، دون أن يساوره شك في حقيقة أهدافها.

ومساهمة من «مجلة قراءات» في نشر الوعي بالواقع الإفريقي؛ تقدّم هذا الملف الذي يلقي إضاءات حول حقيقة العمل الإنساني والإغاثي وأبعاده، لكي يتبين الواقع الفعلي لعمل المنظمات الإنسانية الأجنبية في إفريقيا، ومدى توافقه مع الإطار القانوني والمبادئ الإنسانية، ونماذج واقعية لعمل تلك المنظمات الأجنبية في أكثر مناطق القارة الإفريقية تدهوراً، في دراسات ومقالات محكَّمة أعدها خبراء متخصصون في هذا الشأن.

*) الملف محكَّم.

الإطار القانوني لعمل المنظمات الإنسانية فى إفريقيا

د. أيمن سلامة(*)

شـــهدت إفريقيا فـــي العقدين الأخيرين تزايداً مضطرداً في عدد النزاعات المسلحة، والتي اتسمت في معظمها بالنزاعات الأهلية، والتـــي دوماً مـــا تُفضي إلى ازديـــاد أعداد الضحايا والمعاناة الإنســـانية الشديدة التي تســـتلزم وجود المنظمات الإنســـانية العامة والخاصة، والتي تحاول المســـاعدة في إنقاذ حياة الأشخاص غير المشتركين في أي نزاع مســـلح وتقديم الضرورات الأساسية للحياة لهم.

■ ماهية المساعدات الإنسانية:

يُعد توضيح مفهوم «المساعدات الإنسانية» أمراً أساســـياً، وذلك من أجـــل معرفة الإطار القانوني الذي تعمل فيه المنظمات الإنســـانية في العالم بشكل عام، وفي القارة الإفريقية على وجه الخصوص.

لقد بيّن معهد القانـــون الدولي في عام ٢٠٠٣م أنه يُقصد بـ «المساعدات الإنسانية» جميع الأفعال والنشاطات والموارد البشرية والمادّية اللازمة لتقديم الســـلع والخدمات ذات الطابع الإنساني – حصراً –، والضرورية لبقاء حياة ضحايا الكوارث وسدِّ احتياجاتهم الإنسانية[١].

وبالرغم من أن العديد من الدول تشارك في أعمال المساعدات الإنسانية بشكل كبير؛ فإنه يسود شعور في القطاع غير الحكومي بأن قيام دولة ما بتقديم مواد الإغاثة الإنســـانية، حين يكون لهذه الدولة مصالح عسكرية واستراتيجية في إحـــدى المناطق، لا يمكـــن أن تكون وراءه دوافع إنســـانية بحتة، ومن ثمّ يجب أن يقتصر اســـتخدام هذا المصطلح على المنظمات غير الحكومية المستقلة والمحايدة[٢].

جدير بالذكـــر أن البروتوكـــول الأول لعام ١٩٧٧م الملحق باتفاقيات جنيف الصادرة عام ١٩٤٩م، والخـــاص بحماية ضحايـــا النزاعات المســـلحة الدولية؛ قد أكـــد أن أعمال الإغاثة ذات الطابـــع الإنســـاني غيـــر المنحاز يجب ألا تُعـــد نوعاً مـــن التدخل أو كعمـــل عدائي (م ٧٠ / الفقرتين ١ و ٢)[٣].

وفي رأيها الاستشاري عن شرعية استخدام أو التهديد باســـتخدام الأسلحة النووية؛ قررت محكمـــة العدل الدوليـــة «أن أحـــد الملامح الجوهرية للمعونة الإنسانية الحقيقية هو أنها «تُعطـــى بدون تمييز» على أيّ اعتبار، وفي رأي المحكمة؛ فإن المســـاعدة الإنسانية يجب ألا تقتصر فحســـب على الأغـــراض المصرّح بها

(*) عضو المجلس المصري للشئون الخارجية- والأستاذ الفخري للقانون الدولي بمعهد حقوق الإنسان - جامعه ديبول - شيكاغو الولايات المتحدة الأمريكية.

(١) انظر: قرار اللجنة السادسة عشرة (المساعدات الإنسانية) الصادر في ٢ سبتمبر / ٢٠٠٣م.

(٢) انظر: Kate Mackintosh, Beyond the Red Cross , The Protection of Independent Humanitarian Organizations and their staff in International Humanitarian Law, International Review of the Red Cross, 2007 - No . 865, PP 125.

(٣) انظر: Protocol Additional 1 (8 June 1977) to the Genva Convention of 12 August 1949.

في ممارسة اللجنة الدولية للصليب الأحمر تحديداً، وهي منع المعاناة الإنسانية أو الحد منها وحماية الحياة وضمان الاحترام للجنس البشري، ولكن المساعدة الإنسانية يجب أيضاً - وفوق أيّ اعتبار آخر- أن تُمنح دون تمييز لجميع من هم في حاجة إليها»[١].

وبناء على ذلك تُعد (الإنسانية، والاستقلال، والحيدة) أهم المبادئ العامة التي تحكم نشاطات المنظمات الإنسانية وعملها.

■ الإنسانية:

يفرض مبدأ الإنسانية أن تتألف المساعدات والمواد الإغاثية من السلع والخدمات الضرورية لبقاء السكان، وألا يتعدى الغرض من تقديم تلك المساعدات تخفيف أعباء المعاناة البشرية وحماية الحياة والصحة والكرامة الإنسانية[٢].

فإذا كان الغرض الأساسي من المساعدات الإنسانية هو تقديم الدعم المباشر أو غير المباشر إلى أحد أطراف النزاع؛ عُدَّ ذلك انتهاكاً لمبدأ الإنسانية الذي يجب أن تلتزم به منظمات المساعدات الإنسانية، ومن غير المحتمل أن تُعد المساعدات غير المحايدة أو المتحيزة مساعدات إنسانية، وفضلاً عن ذلك؛ يلتزم أطراف النزاع المسلح باحترام الطبيعة الإنسانية لمؤن الإغاثة، وينبغي ألا تحاول تغيير مقصدها أو الغرض منها[٣].

ويُعد مبدأ الإنسانية المبدأ الأول من مبادئ عمل الكثير من المنظمات الإنسانية، ومنها اللجنة الدولية للصليب الأحمر، حيث يُلزم ذلك المبدأ المنظمة الإنسانية بالسعي لتدارك الوضع وتخفيف المعاناة عن البشر في جميع الأحوال، بل إن المنظمة الإنسانية تجعل ذلك المبدأ واجباً شريفاً عليها أن تقوم به[٤].

لقد أكدت المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة المبدأ العام الذي يقضي بوجوب احترام الكرامة الإنسانية، وهو ما يشكّل الأساس العام لكلا القانونين: الدولي الإنساني، والدولي لحقوق الإنسان، حيث قضت بأن «جوهر جميع قواعد القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان؛ يكمن في حماية الكرامة الإنسانية لكل فرد بغضّ النظر عن جنسه».

ويهدف مبدأ الإنسانية إلى تحصين الجنس البشري ضد الانتهاكات التي تحيق بكرامة الإنسان، سواء حدثت هذه الانتهاكات نتيجة الاعتداءات غير القانونية ضد جسده أو الحط من كرامته وشرفه[٥].

وفيما يتعلق بالإنسانية كمبدأ من مبادئ العمل الإنساني؛ بيَّنت محكمة العدل الدولية في قضية النشاطات العسكرية وشبه العسكرية في نيكاراجوا «أن مبدأ الإنسانية يفرض أن تتألف تلك المساعدات من السلع والخدمات الضرورية لبقاء السكان، وأن يتم توفيرها إلى المدنيين المحرومين من الضرورات الأساسية للحياة نتيجة للنزاع، وبغرض تخفيف أعباء المعاناة البشرية، وحماية الحياة والصحة والكرامة الإنسانية»[٦].

وأحياناً ما تنشأ معضلة أخلاقية لمنظمات

١) انظر: Legality of the Threat or Use of Nuclear Weapons ., Advisory Opinion, 1996 ICJ Pep. Para 86

٢) انظر: قضاء محكمة العدل الدولة في قضية «الأنشطة العسكرية وشبه العسكرية» في نيكاراجوا وضدها. الفقرة ٢٤٢.

٣) روث أبريل: التنظيم القانوني للمساعدات الإنسانية في النزاعات المسلحة.. الإنجازات والفجوات. مختارات المجلة الدولية للصليب الأحمر، ٢٠٠٤م، القاهرة، ص ٢١٤.

٤) بوارس عبد القادر: نظرية السيادة المحدودة في مفهوم حق أو واجب التدخل الإنساني. رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة سعد دحلب بالبليدة، الجزائر، ٢٠٠٥م، ص ٩٧.

٥) انظر: T, 1/17-Prosecutor v. Furndzigia, No. IT- 95 Judgement, Para, 185 (Dec. 10, 1998) in International , Legal Materials, 1999. pp. 317.

٦) انظر: الأنشطة العسكرية وشبه العسكرية في نيكارجوا، الفقرة رقم ٢٤٢. انظر أيضاً: القرار ٧ للمؤتمر الدولي العشرين للصليب الأحمر والهلال الأحمر، فيينا، ١٩٦٥م.

الإغاثة الإنسانية في كيفية تحقيق المواءمة بين مبدأ الإنسانية والعدالة، ففي الفترة ما بين عام ١٩٩٤م - ١٩٩٦م نشأ ما يُسمى بمجتمع «اللاجئين المقاتلين» في معسكرات اللاجئين في زائير (الكونغو الديمقراطية الآن)، حيث شعر جميع العاملين في منظمات الإغاثة هناك بعدم الارتياح لمساعدة القتلة الذين ارتكبوا جرائم الإبادة الجماعية ضد التوتسي في رواندا عام ١٩٩٤م[١]، حيث أصبح من الواضح أن المساعدة الإنسانية نفسها في هذه الظروف يُمكن أن تؤثر كمساهم كبير في تدمير المجتمع[٢].

■ الاستقلال:

من الواجب على أية منظمة إنسانية موجودة في الميدان ألا تتبنى موقف أحد الأطراف، وأن تتبين أهذه الجهة صديقة أم غريمة، حليفة أم عدوة؟ ومهما يكن الأمر فهناك حالات يصعب فيها الاختيار، وهذا ما يعقّد الأمور بشكل كبير بالنسبة إلى المنظمات الإنسانية، كاللجنة الدولية للصليب الأحمر، والتي تؤسس عملها ونشاطها على أساس مبدأ الاستقلال والحياد من أجل تحقيق رسالتها الإنسانية[٣].

وفي السياق نفسه تؤكد المنظمات الإنسانية حقها في العمل بكل استقلال عن السلطات القائمة، وتطالب تأسيساً على هذا الحق بعدم جواز المساس بصفتها الإنسانية والتعرض لها[٤].

■ الحياد:

يُعد الحياد مبدأ عملياً، وهو وسيلة وليس غاية في حدّ ذاته، وغالباً ما يُساء فهمه، وخصوصاً في أثناء الأزمات، تأثراً بنظرية «إذا لم تكن معي فأنت ضدي».

ويقتضي مبدأ الحياد أن تتبنى المنظمات الإنسانية هذا المبدأ حتى تكون قادرة على تقديم المساعدة الإنسانية لضحايا النزاع، حيث تلتزم بالاتصال بطرفي النزاع على قدم المساواة، ولا تأخذ بجانب أحد الطرفين وتستثني الآخر، وذلك حتى تحظى بقبول لدى الطرفين، وتتمكن من العمل في جو من الثقة، فهدفها هو العمل على تخفيف معاناة الضحايا وآلامهم دون تمييز.

وتكتسب منظمات المساعدات الإنسانية صفة الحياد من طبيعتها الإنسانية والمعاملة التفضيلية المنصوص عليها في القانون الدولي الإنساني[٥].

ويتطلب مبدأ حياد منظمات المساعدات الإنسانية أن تكون المساعدات متناسبة مع احتياجات السكان[٦]، سواء من حيث النطاق أو المدة الزمنية[٧].

ويمكن أن توضح لنا الحرب الأهلية التي وقعت في إقليم بيافرا في نيجيريا منذ عام ١٩٦٧م - ١٩٧٠م؛ التحديات التي تجابه المنظمات الإنسانية في أثناء أداء مهامها الإنسانية، وذلك فيما يتعلق بضرورة توخي الحيدة وعدم التحيز، فقد أدركت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن مساعدة أسرى الحرب والسكان المدنيين يجب تلازمهما، وخصوصاً

١) انظر: Fiona Terry, Condemned to Repeat: The Paradox of Humanitarian Action, Cornell University Press, Ithaca, New York, 2002, p.6.

٢) انظر: Kevin M. Cahill, Traditions, Values and Humanitarian Action, Fordhom University press, 2003.

٣) انظر: Pieer Krahenbuhl, The ICRC approach to Contemporary Security Challenges, ICRC Review, 2004, Vol. 86 No 855, PP 508.

٤) بوراس عبد القادر: نظرية السيادة المحدودة في مفهوم حق أو واجب التدخل الإنساني، رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة سعد دحلب بالبليدة، الجزائر، ٢٠٠٥م، ص ٩٦.

٥) روث أبريل: التنظيم القانوني للمساعدات الإنسانية في النزاعات المسلحة، مرجع سابق، ص ٢١٥.

٦) قضية الأنشطة العسكرية وشبه العسكرية في نيكاراجوا، الفقرة ٢٤٢.

٧) روث أبريل: التنظيم القانوني للمساعدات الإنسانية في النزاعات المسلحة، مرجع سابق، ص ٢١٥.

في أثناء النزاعات الأهلية، وذلك على أساس أن هذا النوع من النزاعات المسلحة هو أكثرها تعقيداً، وقد يُفضي إلى تحديات أخلاقية كبيرة تواجه عمّال المساعدات الإنسانية[١].

ومن ثمّ فقد شكّلت الحرب الأهلية في بيافرا – وبحق – اختباراً قاسياً لحياد اللجنة الدولية للصليب الأحمر، حيث ثار ذلك التساؤل: هل يمكن اعتبار المنظمة الإنسانية محايدة حين تقدّم مساعدتها الإنسانية إلى إقليم متمرد يتطلع للانفصال عن أراضي دولة ذات سيادة[٢]؟

الإطار القانوني للمساعدات الإنسانية:

يُعد تقديم المساعدة الإنسانية لإنقاذ الأفراد الذين تتهددهم الأخطار حقاً ثابتاً للمنظمات الإنسانية؛ نتيجة للشعور الدولي بالتكافل من أجل إنقاذ حياة البشر، وضرورة العمل على التخفيف من الآلام الإنسانية في أثناء الكوارث والنزاعات المسلحة[٣].

لقد أكد مجلس الأمن الدولي أهمية ذلك الدور الفعّال الذي تقوم به المنظمات الدولية غير الحكومية في هذا الشأن؛ حيث أصدر القرارين (٦٨٨ ، ٧٣٣) اللذين أكد فيهما أن ترك ضحايا الكوارث الطبيعية وحالات الطوارئ المماثلة بلا مساعدة يشكّل تهديداً للحياة الإنسانية وإهانة لكرامة الإنسان[٤].

والمساعدة الإنسانية لم تعد من صميم الاختصاص الوطني، بل أصبح لكل دولة مصلحة قانونية لحماية كل إنسان، حيث نشأ التزام دولي لحماية المساعدات الإنسانية[٥]، وأضحت المساعدة الإنسانية حقاً معترفاً به باسم الإنسانية؛ بغضّ النظر عن تنوع المصطلحات المستخدمة في القانون الدولي الإنساني[٦].

واجب احترام أفراد الغوث الإنساني وحمايتهم:

يُعد تأمين السلامة والحماية والأمن للأفراد العاملين في مجال المساعدة الإنسانية شرطاً ضرورياً لا غنى عنه، وذلك لأجل ضمان وصول المساعدات الإنسانية للسكان المحتاجين والضعفاء الذين تتهددهم المجاعة.

ولقد أصبح واجب احترام الأفراد العاملين في مجال المساعدات الإنسانية وحمايتهم أحد قواعد القانون الدولي العرفي المطبقة في مجال النزاعات المسلحة، سواء الدولية وغير الدولية[٧].

وقد تبنّت منظمة الأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى العديد من القرارات التي تستند إلى قاعدة «واجب احترام وحماية أفراد الغوث الإنساني»، وتدليلاً على ذلك فقد حثّ المجلس في مناسبات عديدة أطراف النزاع المسلحة غير الدولية على احترام أفراد عناصر الغوث الإنساني العاملين في المساعدات الإنسانية وحمايتهم في أنجولا[٨]، وليبيريا[٩]، ورواندا[١٠]، والصومال[١١].

وحين تدهورت الظروف المحلية في الصومال، والتي تعمل فيها الوكالات الإنسانية، بادر مجلس الأمن بإصدار القرار ٧٣٣ بتاريخ

---

١) انظر: Eva Wortel, Humanitarians and their Moral Stance in War: the Underlying Values, International Review of Rod Cross, Vol. 91 No 816 Dec. 2009

٢) انظر: Op. cit, pp 794.

٣) فوزي أوصديق: مبدأ التدخل والسيادة.. لماذا؟ وكيف؟. دار الكتاب الحديث، الجزائر، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٩م، ص ١٣.

٤) انظر: UNSC / Res/0688 (1991) 5 April/1991.

٥) موريس تورلي: هل تتحول المساعدة الإنسانية إلى تدخل إنساني؟. المجلة الدولية للصليب الأحمر، العدد ٢٥ - مايو ١٩٩٢م.

٦) كورنيللو سوماروغا: العمل الإنساني وعمليات حفظ السلام. المجلة الدولية للصليب الأحمر، العدد ٣١، ١٩٩٩م، ص ٢٠٩.

٧) القانوني الدولي الإنساني العرفي، المجلد الأول، القواعد، جون ماري هنكرتس ولويز دوزوالد، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٧م، ص ٩٤.

٨) انظر: July/1993/15/UNSC/Res/0581.

٩) انظر: Septemper/2003/19/UNSC/Res/1509.

١٠) انظر: November/1994/30/UNSC/Res/0960.

١١) انظر: April/2010/27/UNSC/Res/9913.

٢٣ يناير ١٩٩٢م، يطالب فيه الأمين العام للأمم المتحدة بالقيام على الفور بالعمل على زيادة المساعدات الإنسانية التي تتكفل بتقديمها الوكالات المتخصصة إلى ضحايا النزاع الصومالي، مشيراً إلى أن هذا العمل يستوجب تكاثف جهود الدول والمنظمات الدولية على اختلاف أنواعها في سبيل ضمان وصول المساعدة الإنسانية إلى الصومال[١].

وحين لم يلق القرار ٧٣٣ التجاوب الفعّال من قبل الأطراف المتصارعة الصومالية؛ لم يجد مجلس الأمن مناصاً من أن يُصدر، وبموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، سلسلة من القرارات؛ أهمها: القرار رقم ٧٥١ بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٩٢م، حيث أنشأ المجلس وبموجب ذلك القرار قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام هناك، وتركزت مهمة هذه القوات الأممية في ضمان أمن موظفي الأمم المتحدة ومعداتها وواردتها في ميناء مقديشيو، وحراسة مواد الإغاثة الإنسانية لضمان وصولها إلى المناطق الصومالية المتضررة[٢].

وبالرغم من أن الحالة في موزمبيق لم ترق إلى مستوى العمليات التي قامت بها منظمة الأمم المتحدة في الصومال؛ فإنها عكست اهتمام منظمة الأمم المتحدة بالقضايا الإنسانية بشكل عام، وبمسألة تأمين عمال الوكالات الإنسانية الذين يقومون بإيصال مواد الغوث الإنساني للضحايا المنكوبين.

من أجل هذا أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٩٩٧ بتاريخ ١٦ ديسمبر عام ١٩٩٢م، وبموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، والذي يسمح فيه بإنشاء عملية الأمم المتحدة في موزمبيق طبقاً لمقترح الأمين العام الوارد في تقريره بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٩٢م[٣].

إن ضرورة الوفاء بالاحتياجات والمساعدات الإنسانية، وضرورة تأمين حماية هذه المساعدات؛ تجد صداها أيضاً في الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان والشعوب، والذي يُسبغ الحماية على المساعدات الإنسانية لجميع الأفراد، وينص على حق الأفراد في التمتع بأعلى مستويات الصحة الجسدية والذهنية[٤].

وختاماً؛ وبالرغم من وجود القواعد القانونية المُنظّمة لعمل المنظمات الإنسانية؛ فلا تزال حقوق الإنسان تتعرض لانتهاكات جسيمة في مختلف أنحاء العالم، ولا تزال هناك حاجة إلى القضاء على عمليات الإبادة الجماعية، والقتل الجماعي، والإعدامات التعسفية بلا محاكمات، والتعذيب، والاختفاء القسري والاستعباد، والتمييز، والفقر المدقع.

١) د. أحمد أبو الوفا: الحماية الدولية لحقوق الإنسان في إطار منظمة الأمم المتحدة والوكالات الدولية المتخصصة. دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م، ص ٨٥ - ٩٠.

٢) انظر: Mario Bettati , Le droit d›ingerence, edition odile Jacob-Paris, 1996, pp 178 - 180.

٣) أحمد صادق محروس: الأمم المتحدة والتطورات الراهنة في النظام الدولي. مجلة السياسة الدولية، الجزائر، العدد ١٢٢، سنة ١٩٩٥م.

٤) انظر: African Charter , Art ١٦.

المنظمات الإنسانية الأجنبية في إفريقيا..
الوجه الآخر للدوافع النبيلة !!

د. أيمن السيد شبانة(*)

■ مقدمة:

تؤدي الحروب والكوارث إلى تردي الأوضاع، وهو ما يُساهم في حدوث الكوارث الإنسانية في المناطق المنكوبة، فمع اندلاع أعمال العنف أو حدوث زلزال مدمّر أو فيضانات عارمة في منطقة ما؛ تتوقف الكثير من النشاطات الاقتصادية والمشروعات فيها، خصوصاً مع الدمار الذي يصيب البنية الأساسية من طرق وجسور ومحطات كهرباء وإمداد مياه.. إلخ، كما يتدنى مستوى الخدمات الاجتماعية، وخصوصاً في قطاعات الغذاء والصحة والتعليم.

وفي ظل هذه الأوضاع يضطر السكان إلى النزوح إلى مناطق بعيدة، وربما يضطرون إلى اللجوء إلى خارج الدولة، حيث يعيش هؤلاء النازحون واللاجئون في أوضاع مادّية ومعنوية سيئة للغاية.

ومع نقص قدرات الحكومات الوطنية على مواجهة مثل هذه الكوارث الإنسانية؛ تتدخل المنظمات الأجنبية العاملة في المجال الإنساني، والتي أسمّيها مجازاً «المنظمات الإنسانية»، لتقديم أشكال مختلفة من المساعدة، تبدأ عادة بتقديم إمداد الإغاثة الإنسانية الطارئة، مروراً بتحسين نوعية حياة الناس عبر برامج التدريب المهني والتأهيل النفسي، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين، وتخفيف حدّة الفقر، وإعادة الإعمار، وصولاً إلى حماية حقوق الإنسان، ودعم التنمية المستدامة.

وقد استجابت الأمم المتحدة لهذا التطوّر بإعادة هيكلة إدارة الشؤون الإنسانية التابعة لها، لتصبح مكتباً لتنسيق الشؤون الإنسانية، وإنشاء «الصندوق المركزي للاستجابة لحالات الطوارئ» في مارس ٢٠٠٦م، كما يشارك العديد من وكالات الأمم المتحدة وبرامجها في تقديم مساعدات الإغاثة الإنسانية، ومن أهمها: مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية، وبرنامج الأغذية العالمي، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

أولاً: افتراض خاطئ:

لا يمكننا إنكار الدور المهم الذي تقوم به بعض المنظمات الإنسانية الأجنبية في إنقاذ حياة البشر، وتخفيف حدّة الكوارث الإنسانية في المناطق التي تعمل فيها، لكن ذلك لا يتحقق في معظم الأحوال، كما أنه تبقى هناك مشكلة أساسية بالنسبة للدراسات التي تتناول عرض دور هذه المنظمات وتحليله، وهي أن إبراز الجانب الإيجابي للعمل الإنساني غالباً ما يطغى في كثير من التحليلات على كثير من الجوانب السلبية، وهو ما يجعل الكثيرين، وبخاصة غير المتخصصين، غير مدركين للأخطار التي ربما تمثلها تلك

(*) مدرس العلوم السياسية - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.

المنظمات على المجتمعات التي تعمل فيها.

يعود ذلك إلى أن كثيراً من المحللين ينطلقون في دراساتهم لدور المنظمات الإنسانية الأجنبية من افتراض خاطئ، وهو أن تلك المنظمات تتحرك انطلاقاً من رغبة إنسانية مجردة في تقديم العون للضحايا في المناطق التي تعمل فيها، وهو ما يجعلهم يتعاملون مع تلك المنظمات باعتبارها أطرافاً محايدة، تُساهم في مواجهة تداعيات المواقف الإنسانية التي يُفترض أن تعمل تلك المنظمات على مواجهتها.

والحقيقة أن كثيراً من المنظمات الأجنبية الإنسانية - شأنها شأن غيرها من الفاعلين الآخرين في المناطق المستهدفة - تتحرك انطلاقاً من إدراكها لمصالحها الحقيقية أو المتصوَّرة، ومن ثمّ فقد تتجه غالباً إلى التنسيق الذي ربما يصل إلى حدّ «الاعتماد المتبادل» مع الفاعلين الآخرين من أجل تحقيق مصالح قياداتها والعاملين بها، وربما مصالح الدول التي تنتمي إليها.

وفي مقدمة هؤلاء الفاعلين تأتي دوائر المصالح الاستعمارية، وأمراء الحرب، وشركات الأمن الخاص، والمهرِّبون، والمشتغلون في غسيل الأموال.. إلخ، وفي أحيان أخرى فإن هذه المنظمات لا تتورع عن الصدام المباشر مع منافسيها إذا ما تهددت مصالحها.

ثانياً: سلبيات الدور الإنساني للمنظمات الأجنبية:

يركّز هذا المقال على الجانب الآخر لعمل المنظمات الإنسانية في القارة الإفريقية، والذي يتخفى غالباً وراء ستار الدوافع النبيلة، وذلك من خلال إبراز الجوانب السلبية لعمل المنظمات الإنسانية وتحليلها، والتي من أهمها:

التركيز على تحقيق الأرباح المالية، والانتقائية في تقديم مساعدات الإغاثة، وانتهاك حقوق الإنسان الأساسية، وتدمير القيم الدينية والاجتماعية، وتعقيد جهود تسوية الصراعات والحروب الأهلية.

١ - التربّح من الكوارث الإنسانية الطارئة:

تستهدف مساعدات الإغاثة الإنسانية الطارئة في المقام الأول إنقاذ حياة البشر وتخفيف حدّة المعاناة الإنسانية، وتجنّب الأزمات الإنسانية المحتملة في المستقبل، وعادة ما يبدأ تقديم هذه المساعدات خلال الأيام الأولى لحدوث الأزمة، وتشمل توفير الطعام والماء أولاً، ثم تدبير أماكن الإيواء والخدمات الصحية، وغير ذلك من المواد الضرورية الأخرى، وقد استفادت بعض الدول الإفريقية من هذا النوع من المساعدات، وبخاصة الصومال وليبيريا، في ظل حالة انهيار الدولة فيهما خلال سنوات الحرب الأهلية.

بيد أنه على الجانب الآخر؛ ارتبط تقديم هذه المساعدات في كثير من الأحيان بالتركيز على تحقيق الأرباح المادّية على حساب حقوق الضحايا، خصوصاً مع المغالاة في تقدير رواتب موظفي تلك المنظمات ومكافآتهم، أو عندما يلجأ بعض موظفيها إلى تحقيق الأرباح المالية من خلال الدخول في صفقات مباشرة، تتخللها العمولات والرشاوي، مع مورّدي مواد الإغاثة الإنسانية من أطعمة وأغذية ومعدات.. إلخ.

ففي رواندا؛ اتخذت الأمم المتحدة قراراً بإنهاء عمل بعثتها الإنسانية إلى هذه الدولة تجنباً لدفع نفقات إضافية للبعثة، وهو ما مهّد لحدوث أكبر عملية إبادة جماعية في تاريخ القارة الإفريقية، حيث قضى أكثر من ٥٠٠ ألف مواطن من جماعة التوتسي حتفهم على أيدي

متطرفي جماعة الهوتو، وذلك خلال شهري أبريل ومايو عام ١٩٩٤م.

وبعد وقوع الكارثة الإنسانية قررت الأمم المتحدة التدخُّل لمساعدة اللاجئين الروانديين، في عملية لم تخل من كثير من الشبهات، حيث أقر كوفي أنان (الأمين العام السابق للمنظمة) بتجاوز تكاليف المساعدات الإنسانية لرواندا ولمنطقة البحيرات العظمى عقب الإبادة الجماعية ٤,٥ مليارات دولار، في حين قدّر الحدّ الأقصى لتكلفة تعزيز بعثة الأمم المتحدة في رواندا بـ ٥٠٠٠ جندي إضافي بما يقارب ٥٠٠ مليون دولار فقط، وبخلاف ذلك لم تفعل الأمم المتحدة للشعب الرواندي أكثر من إقامة بعض النّصب التذكارية تخليداً لذكرى ضحايا الإبادة، وتشكيل محكمة دولية للتحقيق في عمليات الإبادة، وهي المحكمة التي لم تخلص إلى شيء ملموس منذ تشكيلها عام ١٩٩٤م، حتى صدور قرار مجلس الأمن الدولي بإنهاء عملها في مطلع عام ٢٠١٠م، بعد أن أنفقت سدى ملايين الدولارات التي كان الشعب الرواندي أحق بها!

وفي السياق نفسه؛ تتعامل كثير من تلك المنظمات مع تدفقات اللاجئين والنازحين بوصفها مناسَبة مهمة للتحرّك صوب المناطق المستهدفة، إذ يُعد استمرار وجود أعداد غفيرة من هؤلاء الضحايا كمصدر لارتزاق العاملين في تلك المنظمات.

ولا ينطبق ذلك على المنظمات الإنسانية غير الحكومية فحسب، وإنما يشمل أيضاً المنظمات الحكومية،

ففي منطقة البحيرات العظمى؛ أشارت التقارير إلى حالات عديدة تمّ خلالها التخلي عن اللاجئين، وتحريضهم على عدم العودة إلى أوطانهم، أو إعادتهم عن طريق الإكراه؛ من أجل الضغط على الجهات المانحة لتقديم المزيد من التمويل لتلك المنظمات.

وعلى سبيل المثال؛ أكد تقرير - صادر في يوليو ٢٠٠١م عن اللجنة البرلمانية للشؤون الخارجية والدفاع والأمن في تنزانيا - دور مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في إعاقة جهود العودة الطوعية للاجئين الكونغوليين في تنزانيا؛ نظراً لأن ذلك سيجعل موظفي المفوضية بلا عمل، وأكدّ التقرير نفسه أن «الرغد» الذي يعيش فيه موظفو المفوضية لا يتناسب مطلقاً مع حجم «المعاناة» التي يعيش فيها اللاجئون في المناطق المضيفة، وهو ما اضطر السلطات التنزانية إلى اتخاذ قرار بعدم فتح معسكرات جديدة للاجئين، والمطالبة بالعودة الكاملة للاجئين الموجودين فيها بحلول عام ٢٠٠٠م، ومع عدم قدرة حكومة الكونغو الديموقراطية على استقبال آلاف اللاجئين العائدين؛ فقد انتقلت حياة هؤلاء الضحايا من سيء إلى أسوأ.

٢ - انتقائية العمل الإنساني:

يتّسم عمل المنظمات الأجنبية العاملة في المجال الإنساني في كثير من الأحيان بالانتقائية وازدواجية المعايير، فتجدهم يهرعون لإنقاذ المنكوبين في دولة ما؛ في حين يتقاعسون عن القيام بأقل القليل تجاه دول أخرى أكثر احتياجاً إلى تدخُّل تلك المنظمات.

وتمثّل الكارثة الإنسانية في النيجر مثالاً صارخاً على ذلك، ففي هذه الدولة يكابد أكثر من ٣,٦ ملايين مواطن قسوة الجوع الناجم عن موجات الجفاف والتصحّر التي تعرضت لها البلاد، والتي تفاقمت إثر غزو الجراد لمحاصيلها في عام ٢٠٠٤م.

وبالرغم من التغطية الإعلامية الغربية الواسعة لهذه الكارثة الإنسانية، وصدور كثير

من نداءات الاستغاثة التي تؤكد الحاجة إلى معونات إنسانية عاجلة، قُدّرت بنحو ١٦,٢ مليون دولار فقط؛ فإن المنظمات الإنسانية الأجنبية تأخرت جداً في الاستماع لأصوات الضحايا، حتى ما قدّمته من مساعدات فإنه كان أقل كثيراً من الاحتياجات المطلوبة لسدّ الفجوة الغذائية في النيجر، والتي تعرضت لسنوات طويلة إلى عمليات نهب منهجي لثرواتها المعدنية، حيث إنها تنتج وحدها زهاء ٤٦٪ من إجمالي إنتاج اليورانيوم في إفريقيا.

وهكذا قُدّر لشعب النيجر أن يعاني تخاذل المنظمات الأجنبية، ومن يقف وراءها من الدول الغربية، لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تخجل من التقاعس عن تقديم الحدّ الأدنى من المساعدات، بل لم تتورع عن إحكام حصار الجوع والمرض والفقر على شعب النيجر الأعزل كنوع من العقاب لحكومة النيجر، وذلك لرفضها الخضوع للضغوط الأمريكية للموافقة على مشروع قانون يمنح الحصانة للمواطنين الأمريكيين من الخضوع للمحاكمة أمام المحكمة الجنائية الدولية.

٣ - تدمير العقائد الدينية والقيم الاجتماعية:

غالباً ما تستثمر المنظمات الأجنبية العاملة في المجال الإنساني ظروف المعاناة التي تكابدها الشعوب المنكوبة في النفاذ إلى تلك المجتمعات من أجل تدمير عقائدها الدينية، وطمس هويتها وقيمها الاجتماعية، إذ تستغل بعض هذه المنظمات الأزمات الإنسانية، خصوصاً في مخيمات اللاجئين والنازحين، في القيام بكثير من النشاطات التنصيرية تحت شعار «الخبز مع الصليب»، كما أن العاملين في تلك المنظمات يعمدون إلى نقل أسلوب حياتهم في الغرب إلى الدول الإفريقية، حيث يمارسون كثيراً من التصرفات والسلوكيات التي تمثل تهديداً للقيم الإفريقية، خصوصاً في المجتمعات المسلمة.

ففي النيجر؛ استغلت المنظمات الإنسانية ظروف المجاعة في تنصير مواطني هذه الدولة التي يدين أكثر من ٩٨٪ من شعبها بالإسلام، عن طريق دعم الأقلية المسيحية في البلاد، وتوطين عناصر من المنصّرين الكونغوليين في بعض مدن النيجر، وبخاصة العاصمة نيامي، ومساعدتهم في الحصول على جنسية النيجر، ليشكلوا بؤراً تنصيرية عديدة في هذه الدولة، خصوصاً مع إسناد بعض المناصب إليهم في مجال الإغاثة الإنسانية.

وفي الصومال؛ شاركت بعض هذه النوعية من المنظمات في تنصير المسلمين، وفي فرض الثقافة الغربية على مسلمي الصومال، وتدمير القيم الاجتماعية للسكان، وذلك باحتساء الخمور، وممارسة الجنس خارج نطاق الزواج، والاحتفال بالأعياد الوطنية الأجنبية والمناسبات الدينية والاجتماعية الغربية، مثل أعياد الميلاد وعيد الحب، وجعل يومي السبت والأحد هما الإجازة الأسبوعية لتلك المنظمات خلافاً لما هو معمول به في الصومال، ومحاولة إنشاء منظمات نسائية وشبابية ذات قيم مغايرة للقيم الإسلامية.

ولعل ذلك هو ما دفع حركة الشباب المجاهدين في الصومال إلى مواجهة تلك المنظمات، ومطالبتها بالتوقف عن نشاطاتها الهدّامة، وضرورة تسريح موظفيها من النساء، وتعويض أماكن عملهنّ برجال، باستثناء العاملات في المستشفيات ومراكز الصحة، وقد دفع ذلك أغلب المنظمات إلى اتخاذ القرار السهل، وهو الخروج من الصومال، تاركة الشعب الصومالي غارقاً في كارثة إنسانية شديدة التعقد.

٤ – انتهاك حقوق الإنسان الأساسية:

يتورط كثير من موظفي المنظمات الأجنبية العاملة في المجال الإنساني في ممارسات تنطوي على انتهاك لحقوق الإنسان الأساسية، ومن ذلك ضلوع بعض المنظمات الفرنسية في تجربة العقاقير وألبان الأطفال والوجبات الغذائية الجديدة على سكان النيجر، وكذا تورط منظمة «أرش دو زويه» الفرنسية في اختطاف الأطفال من تشاد ودارفور، تحت ستار تقديم المساعدات الإنسانية، وهو ما دفع الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزى إلى الضغط على الحكومة التشادية من أجل الإفراج عن موظفي هذه المنظمة، وذلك في محاولة بائسة منه إلى إنقاذ ماء وجه القطاع الإنساني غير الحكومي في فرنسا، والحفاظ على المصالح الفرنسية في إفريقيا.

لكن الأسوأ من ذلك هو «مبادلة الجنس بالمساعدات»، بما يتنافى مع الشرائع السماوية وأبسط مبادئ حقوق الإنسان، حيث يُجبر موظفو بعض المنظمات النساء والفتيات القاصرات في المناطق المنكوبة على ممارسة الجنس مقابل تقديم المساعدات الإنسانية إليهنّ، حدث ذلك في ليبيريا من جانب العاملين في المناطق الإنسانية، بما في ذلك موظفو برنامج الغذاء العالمي وغيره من المنظمات التابعة للأمم المتحدة، والتي لم تفعل أكثر من أنها وعدت بالتحقيق في الأمر!

٥ – تعقيد تسوية الصراعات الإفريقية:

هناك بعض الحالات التي تُساهم فيها المنظمات الإنسانية الأجنبية في التوسط من أجل تسوية الصراعات الإفريقية، ومثال ذلك الدور الذي قامت به إحدى المنظمات الإيطالية عام ١٩٩٤م في تسوية الصراع بين جبهتي «فريليمو» و «رينامو» في موزمبيق.

بيد أن هذه الاستثناءات يجب ألا تدفعنا إلى افتراض خاطئ، وهو أن كل المنظمات الإنسانية الأجنبية لديها الرغبة نفسها في المشاركة في مفاوضات التسوية السلمية للصراعات، خصوصاً إذا كان لديها مصالح خاصة تسعى إلى تأمينها وتعظيمها عبر استغلال ظروف الفوضى المصاحبة لاستمرار الصراع، والتي تمثل مناخاً مواتياً لازدهار تلك المصالح، لأن الانطلاق من هذا الافتراض يجعل الباحثين يتعاملون مع تلك المنظمات بوصفها مجرد هيئات للإغاثة ضد الكوارث الإنسانية، أو بوصفها من الأطراف المساعدة على التسوية السلمية للصراعات، ومن ثمّ عدم التعامل معها بوصفها عقبة أمام جهود صنع السلم وبنائه.

ينطبق ذلك على كثير من المنظمات الإنسانية الأجنبية العاملة في إفريقيا، ففي كلٍّ من الكونغو الديموقراطية وجنوب السودان وإقليم دارفور على سبيل المثال، أدت تلك المنظمات أدواراً سلبية، وانخرطت في تنفيذ مخططات سياسية والقيام بنشاطات استخباراتية لخدمة بعض الدول الغربية، وهو ما ساهم في تعقيد عمليات التسوية السلمية للصراعات، وإطالة أمدها.

ففي الكونغو الديموقراطية؛ كانت المنظمات الإنسانية تقدّم المساعدات للمتمردين ضد الحكومة الشرعية، وهو ما ساهم في توفير مصدر للدعم استند إليه المتمردون في مواصلة القتال ضد الحكومة والسكان المدنيين، حدث ذلك أكثر من مرة، سواء في أثناء الصراع ضد نظام موبوتو ١٩٩٦م – ١٩٩٧م، أو خلال الصراع ضد نظام لوران كابيلا منذ عام ١٩٩٨م.

لكن تبقى حالة دارفور هي الحالة

الأكثر بروزاً، خصوصاً في ظل تبعية كثير من المنظمات الإنسانية الأجنبية في الإقليم للمنظمات الصهيونية العالمية، مثل «اللجنة اليهودية الأمريكية»، و «منظمة الخدمات الأمريكية اليهودية العالمية»، وغيرهما.

وبالفعل؛ ساهمت التقارير المغلوطة لتلك المنظمات عن أوضاع حقوق الإنسان في دارفور في تدويل هذا الصراع، وزيادة تعقيداته، بالزعم بأنه يمثّل صراعاً بين العرب والأفارقة، وهو ما عرقل جهود تسويته، خصوصاً مع إصدار المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية مذكرة توقيف بحق الرئيس السوداني عمر البشير في مارس ٢٠٠٩م، في سابقة هي الأولى لرئيس دولة إفريقي في السلطة، وهو ما أعاد الأمور في دارفور إلى «المربع صفر»، بعد أن كانت مفاوضات التسوية السلمية قد قطعت شوطاً لا بأس به، عقب توقيع اتفاق سلام دارفور في مايو ٢٠٠٦م، ومفاوضات الدوحة في فبراير ٢٠٠٩م.

٦ – نهب ثروات الشعوب الإفريقية:

يتورط بعض العاملين في المنظمات الإنسانية الأجنبية في نهب ثروات الشعوب في الدول التي يعملون بها، وفي مقدمتها: الماس، والذهب، والكولتان، والنحاس، والكوبالت، والخشب، والثروة الحيوانية، والموارد المالية، وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى تصنيف تلك المنظمات ضمن فئة «أمراء الفقر» التي تضم هؤلاء المنتفعين من الكوارث والصراعات، الذين يسعون إلى تكريس الفقر، والذي تزدهر مصالحهم في ظلّه، عن طريق الاستفادة من الدعم المالي الذي يقدّمه المانحون الدوليون لجهود الإغاثة[1].

وفي كلٍّ من الكونغو الديموقراطية وليبيريا وسيراليون أمثلة واضحة على ذلك، تشهد عليها تقارير الأمم المتحدة الخاصة بالاستغلال غير المشروع لثروات تلك الدول خلال سنوات الحرب الأهلية، إذ غالباً ما ترد في تلك التقارير أسماء بعض قيادات المنظمات الإنسانية الأجنبية ضمن العناصر الضالعة في نهب ثروات الدول المذكورة.

ثالثاً: كلمة أخيرة:

في نهاية هذا المقال تبقى كلمة أخيرة، وهي أن المقال استهدف إلقاء الضوء على الوجه الآخر، بل بالأحرى «الوجه القبيح» للدوافع النبيلة التي تتخفى وراءها المنظمات الإنسانية الأجنبية في إفريقيا، عبر تناول بعض سلبيات العمل الإنساني لتلك المنظمات، ولعل كثرة تلك السلبيات يؤكد صحة الافتراض الذي انطلقت منه هذه الدراسة، وهو أن مصالح تلك المنظمات، وليست الدوافع النبيلة، هي المحدّد الأساسي لسلوكها في إفريقيا.

ومن ثمّ فإن الواجب يحتّم على مواطني الدول الإفريقية الحذر من المخططات التي ترمي إليها الحكومات الغربية، والتي يتمّ تنفيذها عبر أدوات متنوعة، تأتي في مقدمتها المنظمات الغربية العاملة في المجال الإنساني.

كما يجب على أدوات الإعلام في الدول العربية والإسلامية التركيز على ما يحيق بمسلمي العالم، وبخاصة في القارة الإفريقية، من كوارث إنسانية وطبيعية تستوجب مدّ يد العون لهم، وكذا ينبغي لها دعم التنظيمات الإسلامية العاملة في

---

١) ظهر مصطلح «أمراء الفقر» عام ١٩٨٩م، بعد صدور كتاب يحمل العنوان نفسه للباحث Graham Hancock. ويرجع ظهور أمراء الفقر إلى حقيقة أن الدول المانحة ليس لديها مصالح جوهرية في استئصال الأسباب الجذرية للفقر والتخلف، بل إن العكس هو الصحيح، فمصالح تلك الدول تقتضي الإبقاء على حالة التبعية الهيكلية، بما يؤدي إلى ظهور الدول الضعيفة التي يفضلها الإمبرياليون.

المجال الإنســـاني؛ وذلك لسدّ الفراغ في مناطق الكـــوارث، وهو الفراغ الذي تنفذ منه المنظمات الأجنبية العاملة في المجال الإنساني بما تُحدثه من سلبيات، وبما تجلبه معها من قيم دخيلة على المجتمعات الإفريقية.

فالمنظمات الإنسانية الأجنبية في دارفور؛ لـــم تكن لتمارس مثل هذا التأثير الســـلبي في الإقليـــم إلا في ظلّ الدعـــم الكبير الذي تتلقاه من الحكومـــات الغربية، والذي فاق في مجمله حجـــم عمليات الإغاثة التي قامـــت بها الدول العربية كافة في دارفـــور، وهو ما يعكس مدى التشـــابك في المصالح بين السياسات الغربية والمنظمات الإنسانية.

من هنا؛ يجب على الدول العربية والإسلامية أن تتحمـــل مســـؤولياتها إزاء المســـتضعفين والمنكوبين بالصراعات والحـــروب والكوارث الإنسانية في العالم الإسلامي في قارة إفريقيا وغيرهـــا، وتأتـــي أهمية هذا الأمـــر في ظل التضييق الشديد على عمل المنظمات الإغاثية الإســـلامية العاملة من داخل الولايات المتحدة وحلفائها من الدول الغربية والحكومات العميلة، حيـــث غالباً ما توصد أبـــواب تلك المنظمات، وتعلّق نشاطاتها، بعد أن توصم بدعم الإرهاب بلا سند حقيقي.

المنظمات الإنسانية الأجنبية في دارفور
بين الإنسانية والسياسة

د. الوليد سيد علي(*)

■ مقدمة:

وجدت مشكلة دارفور صدىً واسعاً على جميع المستويات المحلية والإقليمية والدولية في فترة وجيزة لم تتجاوز ثلاث سنوات، حيث ظهرت المشكلة في عام ٢٠٠١م، ولم يأت عام ٢٠٠٤م حتى كانت أحداث دارفور تتصدّر نشرات الأخبار في الإعلام المحلي والدولي.

وقد وصفتها الأمم المتحدة بأنها «أسوأ كارثة إنسانية» يشهدها هذا القرن، ومن ثمّ تواترت التقارير الدولية من منظمات حقوق الإنسان واللاجئين حول حاجة الإقليم إلى الغذاء والدواء والأعمال الإغاثية، وهو ما فتح شهية المنظمات الدولية الإنسانية للتدافع حول العمل بالإقليم، حتى وصل عدد المنظمات غير الحكومية أكثر من (٢٠٠) منظمة بها آلاف من العاملين، بجانب ١٥,٠٠٠ موظف محلي يتوزعون في حوالي ٢٦٠ منظمة وطنية.

في هذه الورقة أحاول تسليط الضوء على حقيقة الأوضاع بالإقليم، والدور الفعلي للمنظمات الإنسانية وعملها ووظائفها، وأستعرض أبعاد التساؤل عن ارتباطها بالأجندات السياسية، ومن ثمّ أقدّم تصوّراً لماهية آليات عمل الحكومة السودانية لتحسين الأوضاع الإنسانية بدارفور.

ولعل من باب البُعد المنهجي العلمي للورقة أن يفترض الباحث الآتي:

أن إقليم دارفور قبل اندلاع أزمته في ٢٠٠١م وتصاعدها؛ كان بحاجة إلى تنمية، وخصوصاً في مجالات المياه والبنيات التحتية.

زادت الأزمة من حدّة احتياجات الإقليم إلى المساعدات الإنسانية بصورة واضحة، وخصوصاً على مستوى النازحين في المعسكرات.

ساهمت الحكومة السودانية في إطار تعاونها مع المنظمات الدولية في تقديم مساعداتها للإقليم، وقدّمت خدمات لوجستية لتلك المنظمات.

أدّت المنظمات دوراً مهماً في ازدياد أزمة الإقليم، بسبب ابتعادها عن تفويضها الإنساني والعمل وفقاً لأجندات سياسية، مما دعم حركات التمرد بالإقليم دعماً لوجستياً مباشراً أو دعماً سياسياً غير مباشر بواسطة التقارير حول الانتهاكات الإنسانية في الإقليم، أو الادعاءات الزائفة التي تبلورت في ادعاء المحكمة الجنائية الدولية في حق مسؤولين في الحكومة السودانية على رأسهم رئيس الجمهورية، مما ولّد حالة من الاستقطاب بين الحركات والحكومة وزاد من عقبات التسوية السلمية والسلام بالإقليم.

أولاً: اندلاع الصراع في دارفور:

بدأت المشكلة الحالية كمشكلة بين بطن من بطون قبيلة الزغاوة (أصول إفريقية) وأولاد زيد (أصول عربية) في عام ٢٠٠١م، حيث قُتل

(*) رئيس مكتب حزب المؤتمر الوطني السوداني بالقاهرة.

نفر كثير من الطرفين في هذا الحادث، وقد أوصت لجان الصلح بين القبيلتين بدفع الديات للطرفين، إلا أن شباب قبيلة الزغاوة رفضوا الصلح وتمردوا واختطفوا شيخ قبيلتهم والذي أُطلق سراحه فيما بعد[١].

وقد انضم بعض منتسبي الزغاوة الموجودين في دولة تشاد المجاورة للتمرد، وبدأت المجموعة المتمردة بنهب القوافل التجارية القادمة من الجماهيرية الليبية وسلبها، وكذا العربات التجارية بين مدن وقرى دارفور، ثم تطوّرت الهجمات إلى الهجوم على مراكز الشرطة بغرض الحصول على السلاح والذخيرة، وكذلك على مواقع القوات المسلحة النائية، وبذلك انتقل الأمر من مجرد عمليات سلب ونهب إلى مواجهة ضد الدولة.

وبسرعة تدخلت جهات سياسية داخلية وجهات أجنبية في المشكلة وتبنّت الحركات المسلحة، وتمّ تحويل المشكلة إلى مشكلة سياسية مع إعطائها زخماً إعلامياً، وتمّ الإعلان عن قيام ما يُسمى بـ «جيش تحرير دارفور» و «حركة العدل والمساواة»، وتمّ توجيه عدة مسببات للتمرد المسلح، والتي تركزت فيما يأتي: غياب التنمية، وضعف البنيات التحتية، والقصور الإداري والتنفيذي، وغياب هيبة الدولة، وعدم ممارسة السلطة، وضعف الخدمات التعليمية، وتفشي الفقر والأمية والبطالة، وضعف الإدارة الأهلية.

ثانياً: جهود الحكومة السودانية في البُعد الإنساني:

١ - على المستوى البرامجي: بذلت الدولة جهوداً حثيثة لاحتواء الأزمة على المستوى الأمني والإنساني، وعملت على عودة المواطنين، واستقرار الأمن، وذلك على عدة مستويات، وهي:

أ - مستوى البرامج العاجلة: ويتمثل في إعادة النازحين إلى مناطقهم الأصلية (والذين يُقدّر عددهم بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ نازح داخل الإقليم، و ١٠٠,٠٠٠ لاجىء في معسكرات اللجوء بتشاد وإفريقيا الوسطى)[٢]، ونشر قوات الشرطة، وتأمين المعسكرات بحزام أمني، وإعادة توزيع القوات المسلحة.

ب - مستوى البرامج المتوسطة: ويتمثل في بناء المدارس، وتأهيل المستشفيات، وإقامة مشاريع المياه، وتأمين الطرق، وتنظيم الأسواق، وتهيئة البنية التحتية.

ت - مستوى البرامج طويلة الأجل: وذلك لإعادة النسيج الاجتماعي بدارفور بعد الحرب، والتخطيط للتنمية الشاملة بالإقليم، وإعادة تأهيل المشاريع.

٢ - تعاون السودان في المجال الإنساني مع منظمات الأمم المتحدة:

(أ) قرارات ممثل رئيس الجمهورية لولايات دارفور بشأن الأوضاع الإنسانية:

في إطار التعاون الإيجابي بين الحكومة السودانية والمجتمع الدولي، وإعمالاً لأحكام المادة ١٣٢ من الدستور، أصدر ممثل رئيس الجمهورية في ولايات دارفور ووزير الداخلية السابق الفريق عبد الرحيم محمد حسين في ٢٠٠٤/٦/٢٤م عدداً من القرارات[٣] بشأن تحسين الأوضاع في دارفور، وتسهيل أعمال المنظمات.

١) ن بدايات الأزمة انظر: David Hoile , Darfur Perspective (London: Sudanese Public Affairs Council ,2005) P.8 وما بعدها.

٢) انظر: صلاح فضل وهيام الإبس: مشكلة دارفور والسلام في السودان. (القاهرة: دار الجمهورية للصحافة، ٢٠٠٤)، ٩٧ وما بعدها.

٣) انظر في ذلك: قرارات رئيس الجمهورية بشأن الأوضاع الإنسانية في دارفور في وكالة السودان للأنباء. ملف دارفور (الخرطوم: وكالة السودان للأنباء، ٢٠٠٠).

وفيما يأتي هذه القرارات:

- تعزيز إجراءات الأمن وحماية المواطنين في ولايات دارفور.
- تقديم المساعدات اللازمة للجان وقوة المراقبة الإفريقية.
- تسهيل إجراءات منح تأشيرات الدخول للعاملين بالمنظمات الطوعية العاملة في مجال العون الإنساني بولايات دارفور.
- إعفاء واردت العون الإنساني لولايات دارفور من كل القيود والرسوم الجمركية والرسوم المصلحية.
- إلغاء القيود الإجرائية المتعلقة بالمواصفات علي واردات العون الإنساني بولايات دارفور.
- الإعفاء من الإجراءات الصحية والفنية لواردات العون الإنساني بولايات دارفور.
- إعفاء واردات العون الإنساني بولايات دارفور من رسوم دمغة الجريح.
- تسهيل حركة العاملين بمنظمات العون الإنساني بولايات دارفور.
- تسهيل أعمال لجنة تقصي الحقائق حول ادعاءات انتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة بواسطة المجموعات المسلحة بدارفور.

(ب) برنامج شريان الحياة:

بدأ برنامج شريان الحياة عملياته عام ١٩٨٩م، وتمّ التجديد لاستمراره عام ١٩٩٧م، بهدف إيصال المساعدات الإنسانية للمواطنين المتأثرين بالحرب في ظل استمرار الصراع بالجنوب آنذاك.

وبرنامج شريان الحياة هو مشروع غير مسبوق، وحقق نجاحات كبيرة، وتقف التجربة الآن في دارفور، والخطوات الكبيرة التي اتخذتها الحكومة السودانية في تسهيل الإجراءات، ولا سيما تطبيق ما يُعرف بالمسار السريع للمنظمات العاملة في المجال الإنساني في دارفور، خير شاهد على ما ذهبنا إليه، علاوة على العدد الكبير للمنظمات غير الحكومية الذي يتجاوز مائتي منظمة، والآلاف من العاملين في مجال الإغاثة من الأجانب، وحوالي خمسة عشر ألفاً من الوطنيين.

(ج) العون الإنساني المباشر:

ظلت الأوضاع الإنسانية في دارفور، والتي شغلت بال الدوائر العالمية الآن وما تزال، محل اهتمام الحكومة منذ يناير ٢٠٠٣م.

وقدّمت الحكومة منذ اندلاع الأزمة في دارفور أكثر من ١٥١ مليار دينار إلى جانب ٣٠٠ مليون دينار في شكل تسهيلات جمركية وخدمات طيران للمنظمات الدولية التي تعمل مع السودان لاحتواء الأزمة. وساهم القطاع الخاص السوداني والمنظمات الوطنية بمئات الملايين من الدينارات لصالح دارفور، كما بلغت الإعفاءات من الضرائب ما يفوق ٨٠٠ مليون دولار[1].

وبغرض انسياب المساعدات الإنسانية؛ عملت الحكومة على تسهيل الإجراءات (برنامج السودان الموحّد) كالآتي:

تمّ إعداد وثيقة «نداء السودان الموحّد» بواسطة فريق مشترك من وزارة الشؤون الإنسانية وبرنامج الغذاء العالمي، والنداء عبارة عن نتائج المسوحات المشتركة التي تتم خلال العام، ويتمّ من خلالها تقدير الوضع الغذائي في السودان من حيث الاحتياجات.

وتشترك فيه الوزارة مع برنامج الغذاء العالمي والمنظمات الطوعية غير الحكومية، ويتمّ في المدة من سبتمبر حتى نوفمبر من كلّ عام.

١) وكالة السودان للأنباء، ملف تعاون السودان مع المنظمات الدولية، achr.gov.sd/file/dar٢

وبلغ حجم التمويل لنداء السودان في يوليو ٢٠٠٦ م بلغ حوالي ١,٦٠ مليون دولار لمقابلة الاحتياجات الإنسانية، إضافة إلى ٢٢٠ مليون لبرامج المعافاة والتنمية، والتمويل الكلي المتوقع لبرنامج نداء السودان يبلغ (٣٦٤،١٨٦،٤٤٤) دولار.

وذكرت بعض المصادر أن الدعم الحكومي لولايات دارفور في عام ٢٠٠٣م كان ١٢٠٠٠٠ طن، ارتفع إلى ٦٠٠٠٠٠ طن في عام ٢٠٠٥م، ثم ٧٠٠٠٠٠ ألف طن في عام ٢٠٠٦م، وهو ما يمثل ٥٠٪ من الدعم الحكومي للسودان؛ مما أدى إلى تدني الأسعار بولايات دارفور مقارنة بولايات السودان الأخرى.

أما عن الوضع الصحي؛ فمعدل الوفيات يتراوح بين ٣ - ٤ لكل عشرة آلاف، وهي نسبة أقل من الطبيعية لسكان يُقدّر عددهم بـ ٦,٧٠٠,٠٠٠ نسمة (١٦١ ألف نازح)، ومليون وخمسين ألفاً في تجمعات بالمعسكرات.

ثالثاً: دور المنظمات الإنسانية الأجنبية في دارفور:

كان عدد المنظمات في دارفور قبل عام ٢٠٠٠م لا يكاد يتعدى أصابع اليد، وكان ذلك العدد يتمثل في بقايا المنظمات التي عملت في الجفاف والتصحّر الذي ضرب الإقليم في ١٩٨٣م، وبعض المنظمات الإنمائية شبه الحكومية مثل DED ، GTZ.

ومنذ العام ٢٠٠٣م ونتيجة لتفجّر أزمة دارفور بدأ تدافع المنظمات الأجنبية لدخول المنطقة، حتى بلغ عدد المنظمات في دارفور الكبرى ما يزيد عن مائة منظمة، أي ما يساوى ٥٣٪ من جملة المنظمات العاملة في السودان كله. وقد بلغ هذا التدافع مداه في نهاية العام ٢٠٠٥م ليصل عدد المنظمات المسجلة إلى ١٥٠ منظمة، ويبلغ الآن حوالي ٢٠٠ منظمة، من بينها ١١٨ منظمة طوعية أجنبية تعمل بدارفور.

وتعمل أغلب تلك المنظمات في مجال توزيع مواد الإغاثة التي يتمّ إحضارها بواسطة برنامج الغذاء العالمي WFP، كما أن منها حوالي ١٥ منظمة تعمل في مجال الصحة، و ٥ منظمات في مجال المياه وإصحاح البيئة[١].

وقد قدّمت المنظمات الأجنبية صوراً سيئة لعمل المنظمات ودورها الإنساني، إذ عملت وفقاً لأجنداتها السياسية دون النظر لتفويضها الإنساني، وساهمت في توتر العلاقة بينها وبين الحكومة السودانية، فمنذ تعاظم الدور الكبير لتلك المنظمات بدارفور أبدت تخوّفها من سوء الأوضاع الإنسانية بدارفور، فاتهمت الحكومة المنظمات بأن لها أجندة أخرى، وفي نوفمبر ٢٠٠٤م تمّ طرد مديري منظمتي «إنقاذ الطفولة» البريطانية و «أوكسفام» من الأرض السودانية.

كانت مجموعة الأزمات الدولية قد أصدرت تقريرها رقم (٨٠) عن إفريقيا بعنوان «السودان الآن في دارفور.. يكون أو لا يكون»، وذلك في ٢٣ مايو ٢٠٠٤م، وتناول الكارثة الإنسانية بدارفور، وعملية السلام والمفاوضات بين الحكومة ومسلحي دارفور، وطالب التقرير بشن هجوم دبلوماسي على حكومة الخرطوم. كما أصدرت منظمة العفو وثيقة حول لجنة تقصي الحقائق في دارفور[٢]، واتهمتها بعدم الاستقلالية.

فبالرغم من دور الحكومة في تقديم المساعدات لتلك المنظمات؛ فإنها ما انفكت

١) د. بشير البكري: المنظمات غير الحكومية بين الدور الإنساني والوظيفة السياسية. www.alhadag.com

٢) تمّ تشكيل لجنة وطنية لتقصي الحقائق، برئاسة القاضي وزير العدل السابق دفع الله الحاج يوسف، حول الادعاءات بانتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة بواسطة المجموعات المسلحة بولايات دارفور، بموجب قرار رئيس الجمهورية رقم ٩٧ لسنة ٢٠٠٤م. انظر: وثيقة تقرير لجنة تقصي الحقائق حول انتهاكات حقوق الإنسان في دارفور (الخرطوم: مجلس الإعلام الخارجي، ٢٠٠٥).

تعمل خـــارج نطاق تفويضها الإنســـاني، حيث تعددت أشـــكال الدعم والمساندة والتعاون بين تلك المنظمات الطوعية العالمية وبين المحكمة الجنائيـــة الدولية على الرغم من التســـهيلات والتعاون الذي وجدته من الحكومة الســـودانية لأداء رســـالتها الإنسانية، والتي تبين أنها كانت غطاءً لتنفيـــذ أجندتها الخفية، وســـاتراً عبر «فبركة» المعلومات الكاذبة عن انتهاكات حقوق الإنسان، والترحيل القهري، والإبادة الجماعية، والاغتصـــاب، وجرائم الحرب، ودعوة المجتمع الدولـــي للتدخُّل بدارفور، مخالفة بذلك مبادئ العمل الطوعي والإنســـاني والقوانين واللوائح المنظّمة له واتفاقياتها مع حكومة السودان.

وكانت حصيلة تلك المخالفات ما يأتي:

١ – وقّعت اتفاقيـــات تعاون مع المحكمة الجنائية الدولية.

٢ – أرسلت تقارير ملفقة عن الاغتصاب أو التطهير العرقي والإبادة الجماعية.

٣ – إعداد تقارير تناشد المجتمع الدولي ومجلـــس الأمن وتطالبـــه بالتدخُّل للضغط على حكومة السودان.

٤ – إرسال أفراد كشهود من داخل دارفور إلى دول الجـــوار أو مقر المحكمة الجنائية الدولية.

٥ – إرســـال تقاريـــر وبيانـــات مغلوطة لمنظمات حقوق الإنسان حول الاغتصاب.

وبسبب هذا شهدت العلاقة بين المنظمات الإنســـانية العاملـــة فـــي دارفـــور والحكومة الســـودانية حالة من التوتر منذ فترة ليســـت بالقصيـــرة، أدت في كثير من الأحيان إلى قيام الحكومة بطرد عدد من المنظمات والموظفين العامليـــن فيها من دارفور، وســـوّغت الحكومة ذلك بتجاوز المنظمات لتفويضها المسموح لها وتدخلها في الشـــؤون الداخلية؛ مما يؤثر في الأمن القومي السوداني بفعل نشاطات تخريبية لبعض المنظمات.

ويرى بعض المراقبيـــن أن طرد المنظمات الإنســـانية قد يعود بالضرر علـــى المواطنين المستفيدين من تلك المنظمات، وأن التجاوزات والمخالفات التي تقع من قبل موظفي المنظمات الإنسانية يجب أن تخضع لتحقيق، ومن ثمّ إحكام القانون الذي يُنظّم عمل هذه المنظمات، كما أن طرد المنظمات قد يؤلّب المجتمع الدولي على الســـودان، وخصوصاً أن بعض تلك المنظمات تجد دعماً من دول كبيرة، وهو ما يؤثر سلباً في علاقات السودان مع هذه الدول.

بينمـــا تـــرى الحكومة الســـودانية أن ثمة ترابطاً بين عمل المنظمات في دارفور وقضية المحكمـــة الجنائيـــة الدولية، ولهـــذا أقدمت الحكومة علـــى طرد (١٣) منظمـــة عامة في دارفور عقب صدور قرار المحكمة ضد الرئيس عمر البشير في ٢٠٠٩/٣/٤م.

والمنظمات المطرودة هي:

منظمة الإنقاذ الدولية – أمريكية (IRC)، منظمة كيـــر العالميـــة – أمريكية (CARE)، منظمـــة إنقـــاذ الطفولـــة الأمريكيـــة (SC. USA)، مؤسســـة التعاون والبنـــاء الأمريكية (CHF)، منظمة التضامن الفرنسية – فرنسية (Solidarities)، منظمـــة العمل ضد الجوع – فرنســـية (ACF)، منظمة أوكسفام البريطانية (OXFAM)، منظمة إنقاذ الطفولة البريطانية (SC.UK)، منظمـــة أطباء بلا حدود الهولندية (MSF)، مجلس اللاجئين النرويجي (NRC)، ميرســـي كروب – أمريكيـــة، منظمة أطباء بلا حدود الفرنسية، منظمة باتكو الأمريكية.

وكانت الحكومة في وقت ســـابق قد أبعدت ٣٦٠ عامـــلاً أجنبياً ثبت تورطهـــم في أعمال منافية للعمل الإنساني.

ويرى بعض الدارسين أن الحكومة السودانية تتخوف بشكل عام من قدرات المنظمات الأجنبية في دارفور وإمكانياتها، حيث سبق للحكومة أن كشفت في العام ٢٠٠٩م أن ميزانية هذه المنظمات تبلغ مليار و ٨٨٠ مليون دولار في العام، وأنها تمتلك ٥٨٠٥ جهاز اتصال؛ منها ١٨٥٠ HF للاتصال بعيد المدى و ١٣٥٢ متوسط المدى، يستخدم للاتصال بين الأقاليم، و ٦٣ جهاز V.Sat لنقل الصورة والصوت، و ١٢ جهاز ربيتر لتقوية الاتصال، كما تمتلك ٧٩٤ جهاز ثريا[1].

ولأن البُعد الإنساني في قضية دارفور كان هو أكبر المحركات للزخم العالمي الذي حظيت به القضية، وأن الحركات المسلحة لا تجد تعاطفاً كبيراً من الناحية السياسية في الغرب لضعف أطروحاتها السياسية؛ فإن قرار الطرد وضع الحكومة السودانية في مواجهة مع المجتمع الدولي، وأدى إلى تقويض التسوية السلمية في الإقليم.

وتأسيساً على ما سبق؛ فإننا أمام أدوار غير حقيقية لبعض المنظمات الإنسانية في دارفور، وإنما التوظيف السياسي لتلك المنظمات هو الذي وضعها في دائرة الاتهام.

ويمكننا حصر تلك الأدوار فيما يأتي:

١ - دور استخباراتي:

تشير بعض المصادر إلى أن جملة ميزانيات المنظمات الأجنبية العاملة في دارفور للعام ٢٠٠٨م بلغت مليارى دولار، وتقوم هذه المنظمات بصرف أقل من ٢٠٪ منها على عملها، والباقي يذهب للعاملين في المنظمات نفسها، ولأغراض مشبوهة أخرى، ونلاحظ أن كثيراً من القرارات الدولية التي صدرت في شأن دارفور كان مصدرها التقارير التي تصدر عن المنظمات العاملة في المنطقة.

٢ - دور اقتصادي لمصلحة الدولة الأم:

مع اضمحلال دور الأمم المتحدة كمؤسسة دولية حاكمة ظهر استغلال الدول المانحة عبر المنظمات الإنسانية والمنتشرة، فعمل تلك المنظمات يعود على الدول المانحة بمكاسب ومصالح عديدة في المجال الاقتصادي؛ أهمها الحل الجزئي لمشكلة البطالة في الوطن المانح، وفتح أسواق جديدة، وغير ذلك.

٣ - الدور الثقافي والاجتماعي:

ويتمثل هذا الدور في إشاعة ثقافات وسلوك وأنماط جديدة كثيراً ما تتعارض مع الثقافة المحلية للدولة المضيفة لهذه المنظمات، كما يمتد هذا الدور لدور تعبوي تحريضي للنازحين داخل المعسكرات بتبني آراء معينة ضد توجهات الحكومة السودانية؛ مما أدى لازدياد حدة الاستقطاب بين الحكومة والنازحين داخل المعسكرات.

■ وختاماً:

لا شك أن السودان بوصفه عضواً في المنظومة الدولية له حقوق يحق له أن يستوفيها، وعليه واجبات يجب عليه أن يؤديها، ولهذا فإن قبول مبدأ الاستعانة بالمنظمات الدولية أمر لا خلاف عليه، ولكن يجب أن تتمّ هذه الاستعانة دون آثار جانبية.

وعليه؛ فإن على السودان العمل على:

١ - تحديد الاحتياجات ومواقعها، وكيفية تنفيذها، ثم السماح لمن يرغب في العمل الإنساني تحت هذا الإطار، وفي هذا استجابة لمواثيق الأمم المتحدة التي تعطي حق الملكية والقيادة للخدمات الإنسانية للدول المتأثرة بالكوارث.

٢ - الالتزام التام في مرونة عالية بإنفاذ

١) خالد البلولة: حالة طرد جديد.. الخرطوم والمنظمات الإنسانية جدل متواصل. www.sudanile.com

اللوائح والقوانين؛ مع مراعاة المردود الإجرائي والتنسيق الكامل بين الأجهزة المختلفة.

٣ – الشفافية في التعامل مع المنظمات، وتعريفها بأرضها، والحزم في تنفيذ الإجراءات العقابية القانونية أو السيادية.

٤ – الاستفادة من المنظمات الدولية المناهضة لسياسات الهيمنة وتقوية العلاقات معها، واستقطاب المنظمات الصديقة، وتقوية المنظمات التطوعية الوطنية.

وقد يتفق العديد على بعض إيجابيات المنظمات الدولية الأجنبية والتي ساهمت في سدّ الفجوات الغذائية والدوائية، وإدارة مشاريع التنمية، وإيجاد فرص للتوظيف، وإثراء الحركة الاقتصادية. إلا أن تجاوزاتها لعملها الذي جاءت من أجله شكّل مخاطر عديدة على الأمن القومي السوداني وسيادته بتبنيها توجهات عدائية وأجندة خفية، وعمل سياسي مباشر وغير مباشر، وتضخيم للأحداث، مما أثّر في صورة السودان الخارجية، ووضع المنظمات في دائرة التساؤل والاتهام بين دورها الإنساني ووظيفتها السياسية.

إقليم أوجادين.. انتقائية الإغاثة الإنسانية

أ.د. السيد فليفل(*)

■ مقدمة:

إقليم أوجادين هو أحد الأقاليم الإثيوبية، تعيش فيه أغلبية صومالية، أنكرت النُّظُم الإثيوبية أي حقوق لها، بل إنها تحيط الإقليم بغموض شديد، بالرغم من أنه تعرّض لكوارث تفوق عشرات المرات ما قيل عن حدوثه بإقليم دارفور السوداني، ومع هذا لا نجد فيه دوراً ملموساً لمنظمات الإغاثة الإنسانية الأجنبية أو حتى المحلية، حتى بات هذا الإقليم، الذي تقطنه أغلبية مسلمة، مثل «السجين» الذي يئن خلف قضبان الحكومة الإثيوبية، في ظل تخاذل مخز من جانب المنظمات الإنسانية الأجنبية والمحلية.

وفي هذا المقال سوف نحدّد أولاً طبيعة إقليم أوجادين، وصلته بالحكومة الإثيوبية المركزية في أديس أبابا، والتي أدت سياساتها التمييزية ضد الإقليم إلى معاناة شديدة لأهله، زادت حدتها مع سنوات القحط والجفاف التي ضربت الإقليم، ثمّ نركّز آخر الأمر في موقف المنظمات الإنسانية من الإقليم.

أولاً: الاحتلال الإثيوبي لإقليم أوجادين:

يقع إقليم أوجادين في القرن الإفريقي، حيث يحدّه شرقاً الجمهورية الصومالية، وغرباً إثيوبيا، وجنوباً كينيا، وشمالاً جمهورية جيبوتي والبحر الأحمر، وتُقدّر مساحة أوجادين بنحو ٤٠٠ ألف كيلو متر مربع تقريباً.

ويُقدّر عدد سكان الإقليم المقيمين فيه فعلياً بنحو ٨ ملايين نسمة[1]، كما يوجد بالخارج قرابة مليونين من اللاجئين.

ومع بدء التدافع الاستعماري على إفريقيا غزت ثلاث قوى أوروبية، وهي بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا، منطقة القرن الإفريقي في أوقات متزامنة تقريباً، وسعت هذه القوى إلى كسب صداقة الحبشة من أجل مساعدتها في تنفيذ سياساتها الاستعمارية، وبفضل الدعم الاستعماري البريطاني تمكّنت إثيوبيا من احتلال منطقة «هرر» للمرة الأولى في عام ١٨٨٧م، وعُدّت هذه الخطوة توطئة للاحتلال الإثيوبي لأوجادين.

وفي عام ١٨٩٦م وقّعت بريطانيا اتفاقاً مع زعماء أوجادينيا Ogadenia لضمان سيادة هذا الإقليم واستقلاله، بأيّ حال فإنه سرعان ما اكتشف أهل أوجادين أن شريكتهم في الاتفاق، وهي بريطانيا العظمى، لم تكن لديها نية للحفاظ على هذا الاتفاق حياً[2].

وواصلت بريطانيا تسليح إثيوبيا التي لم تُخف أبداً مطامعها في أوجادينيا، وفي عام ١٨٩٧م وقّعت بريطانيا اتفاقاً مع إثيوبيا اعترفت فيه بالمطالب الإثيوبية في هرر، وظهرت هذه الخطوة بوصفها بداية للانسحاب البريطاني من أوجادين ونقله إلى إثيوبيا، وهو ما عدّه سكان أوجادين انتهاكاً لاتفاق ١٨٩٦م،

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - العميد الأسبق لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.

١) أبو آدم (أكاديمي أوجادين): لمحة عن تاريخ أوجادين. وكالة أنباء أوجادين. ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩م.
www.ogadennet.com/arabic/articles.php?article_id=12

٢) انظر: Political Background of the Ogadenia Struggle, the Ogaden National Liberation Front portal, www.onlf.org

حيث اتخـذت بريطانيا هذه الخطوة المفاجئة دون التشـاور مع زعماء أوجادين، والذين لهم وحدهم حق تقرير مصير الإقليم وفقاً للقوانين الدوليـة، وبالفعل اكتملـت المؤامرة مع مطلع عام ١٩٤٨م عندما سـلّمت بريطانيا الأراضي الأوجادينية.

كانـت هذه هـي البداية لتمزيـق أوصال الصومـال، ففي العـام ١٩٦٠م نالت الصومال استقلالها نتيجة لكفاح حركة المقاومة الوطنية، لتتكون جمهوريـة الصومال، عبر اتحاد الإقليم الصومالـي الشـمالي مع الإقليـم الصومالي الجنوبي، بينما تمّ اقتطاع إقليم (n.f.d) وضمّه لكينيا، ثمّ استقل الصومال الفرنسي عام ١٩٧٧م تحت اسـم دولـة «جيبوتي»، بينمـا ظل إقليم أوجادين قابعاً تحت سطوة الاحتلال الإثيوبي.

لكن تجدر الإشـارة في هذا المقام إلى أن سـكان إقليم أوجادين كانـوا على اتصال قوي بالحركة الوطنية في الصومال، حيث اشـتعلت الثورة في أوجادين لأجل تحرير الإقليم، البداية كانت مـع حركة «نصر اللـه» التي اندلعت في أواخـر عام ١٩٥٩م، والتي كانـت تمهيداً لثورة أوجادين تحت قيادة السـلطان «مختل طاهر»، حيث أسسـت هذه الحركة عـام ١٩٦٣م جبهة تحرير الصومال الغربي، والتي خاضت المواجهة المسلحة مع إثيوبيا في أعوام ١٩٧٦م – ١٩٧٨م؛ بالتحالف مع الجمهورية الصومالية[١].

بعد ذلك قامت نخبة من المثقفين والثوار من شـعب أوجادين بتأسـيس حركـة ثورية مستقلة تأخذ رأيها دون تدخُّل خارجي، ومن ثمّ تأسست «الجبهة الوطنية لتحرير أوجادين» في ١٥ أغسطس ١٩٨٤م[٢].

ثانياً: الوضع الإنساني في أوجادين:

بالرغـم مـن أن الأراضـي المرتفعة في الوسط والشـمال الإثيوبي هي أكثر المناطق تضرراً من المجاعـات في تاريخ إثيوبيا؛ فإن المصادر تشـير إلـى أن المناطـق الرعوية في الشـرق والجنـوب (أوجادين أساسـاً) كانـت تتعرض لضربات مجاعـة على فترات متباعـدة[٣]، كما تؤكـد المصـادر أيضاً أن المجاعات الرئيسـية في القرن العشرين في إثيوبيـا ظلّت تمثّل مصدر تهديـد بالغ القوة لسلطة الحكومة.

وعلى سـبيل المثـال؛ فإن مجاعـة «وللو Wollo» أسـهمت في سـقوط هيلاسيلاسي في عام ١٩٧٤م، بينما أسهمت مجاعة ١٩٨٤م – ١٩٨٥م بصـورة كبيرة نوعاً ما في إسـقاط «نظام الـدرق»، وعندما تولّـت جبهة تيجراي «قـوات الدفاع الثورية عن الشـعب الإثيوبي» Ethiopian People's Revolutionary Defence Forces السلطة في البلاد في عام ١٩٩١م أُعيد تكويـن مفوضية الإغاثة، وإعادة التأهيـل تحت اسـم مفوضية منـع الكوارث والاستعداد لها[٤].

لكن أزمة المجاعـة عام ١٩٩٩م – ٢٠٠٠م كانت هي أقسـى موجات الجفاف التي ضربت إثيوبيا منذ كـوارث مجاعة منتصف ثمانينيات القرن العشرين، وبالرغم من وجود نُظُم تحذير مبكّر بالجفـاف؛ فإن هذه النُّظُـم والوكالات القائمة عليها لم تشـارك بفاعلية في الوقاية من آثـار موجة الجفـاف، أو تحديد المناطق الرعوية الأكثر عرضة لهذه الموجة، خصوصاً مع إخفـاق الحكومة الإثيوبية في الاسـتجابة

١) أبو آدم (أكاديمي أوجادين): لمحة عن تاريخ أوجادين. وكالة أنباء أوجادين. ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩م. www.ogadennet.com/arabic/articles.php?article_id=١٢

٢) المرجع السابق.

3) Lautze, Sue and Maxwell, Daniel, Why Do Famines Persist in the Horn of Africa?, op. Cit., p. 223

4) Lautze, Sue and Maxwell, Daniel, Why Do Famines Persist in the Horn of Africa?, pp. 223-224.

السريعة للأزمة، وسوء إدارة المعونات الغذائية القادمة من الخارج وسوء توزيعها.

وفي خضم هذه الكوارث الإنسانية عانى إقليم أوجادين أوضاعاً إنسانية بالغة السوء، وذلك منذ عقد السبعينيات من القرن المنصرم، وذلك نتيجة لموجات الجفاف التي ضربت الإقليم آنذاك، بالإضافة إلى بعض العوامل الأخرى، ومنها: تفتيت ملكية الأراضي الزراعية، وأدوات الزراعة البدائية، وعدم ملائمة تخزين الحبوب، ونظام ملكية الأرض، والضرائب الباهظة، والحروب الأهلية.

وازداد الطين بلّة بفضل السياسات التمييزية القاسية التي اتبعتها نُظُم الحكم الإثيوبية ضد الإقليم، وذلك منذ عهد الإمبراطور هيلاسيلاسي، حيث سعت تلك النُّظُم بشكل منهجي إلى إفقار الإقليم، ونهب ثرواته، خصوصاً مع إعادة توجيه خطوط النفط والغاز من الإقليم إلى معامل التكرير في الشمال الإثيوبي؛ دون أن ينال الإقليم نصيباً من التنمية. وكانت الطامّة الكبرى أن سعت حكومة منجستو إلى طمس هوية الإقليم وفرض اللغة الأمهرية عليه، واستمر الحال على هذا النحو إلى أن سقط نظام منجستو عام ١٩٩١م.

وفي عهد ملس زيناوي تمّ منح أوجادين حكماً ذاتياً بموجب الدستور الإثيوبي الجديد، واستبشر سكان الإقليم خيراً، وانضمّ الجميع إلى النظام الجديد، لكنه سرعان ما عاد لممارسات هيلاسيلاسي ومنجستو؛ متبعاً سياسة إفقار الإقليم وتجويع أهله، وإهمال عملية التنمية فيه، مع فرض ثقافته الأمهرية عليه.

في المقابل؛ سعت الجبهة الوطنية لتحرير أوجادين بشكل متواصل إلى المطالبة بحق مواطني الإقليم في الحياة الكريمة، وفي إدارة شؤونهم بأنفسهم، ومقاومة السياسات التمييزية للحكومة الإثيوبية، ومن ذلك ما قامت به الجبهة في أكتوبر ٢٠١٠م، عندما أصدرت بياناً استنكرت فيه بيع أصول شركة «بتروناس PETRONAS» في أوجادين لشركة «ساوث وسترن انيرجي South Western Energy» المملوكة للحكومة الإثيوبية، والتي تُعد تجسيداً لوجود النظام الإثيوبي في أوجادين، ومن ثمّ فقد اعتبر مواطنو أوجادين هذه الشركة شريكة في الجرائم المرتكبة ضده[١].

وبينما كان إقليم أوجادين يتلقّى بعض المساعدات من المنظمات الإنسانية الأجنبية، مثل صندوق إغاثة الأطفال «Save Children» التابع للولايات المتحدة الأمريكية، واليونيسيف، والمراكز الأمريكية للسيطرة على الأمراض والوقاية منها US Centers for Disease Control and Prevention؛ فإن الجوع والقحط الذي يعيشه سكان أوجادين حالياً لم يشهد جهوداً ملموسة لمواجهته[٢].

ثالثاً: انتقائية عمليات الإغاثة الإنسانية:

كانت إثيوبيا خلال مجاعة عام ٢٠٠٠م تخوض نزاعاً مسلحاً مع جارتها الشمالية إريتريا، وليس من شك في أن الحكومة الإثيوبية قد تخلّت تماماً عن مواطنيها (الصوماليين) في أوجادين خلال هذه الأزمة، وهو ما زاد من إحساس سكان الإقليم بعدم الثقة في حكومة أديس أبابا التي لم تكترث بأوضاعهم المأساوية، حيث بلغت أعداد الوفيات الناجمة

١) انظر: Sale of PETRONAS Assets to South Western Energy, a statement by the Ogaden National Liberation Front released on October 7, 2010, www.ogaden.com/hornnews/ogaden

٢) انظر: Gill, Peter, Famine and Foreigners: Ethiopia Since Live Aid, Oxford University Press, New York, 2010, p 197.

عن تلك المجاعة أرقاماً غير مسبوقة؛ في الوقت الذي كانت فيه حكومة أديس أبابا منهمكة في الإنفاق على التسلّح.

ويرى المحللون أن الحرب الإثيوبية الإريترية كان لها أثر سلبي بالغ في المعونات المقدمّة لأوجادين، فوفقاً لسجلات الكثير من منظمات الإغاثة العاملة في الإقليم؛ فإن الاعتبارات السياسية والدبلوماسية كان لها دور كبير في إبطاء الاستجابة المناسبة للوضع الذي كان يزداد سوءاً في الإقليم منذ عام ١٩٩٨م[١]، واستناداً إلى إحصائيات حكومية موثّقة فإن بعض الكتاب يشيرون إلى أن إقليم أوجادين لم يتلق إلا ٢٠٪ من احتياجاته التقديرية خلال عام ١٩٩٩م، وهو الأمر الذي عمّق من أثر المجاعة في الإقليم عام ٢٠٠٠م[٢].

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الإثيوبية تحتل الصومال بحجة مقاومة اتحاد المحاكم الإسلامية؛ فقد تعالت دعوات من أماكن متفرقة في العالم من أجل تدخُّل المجتمع الدولي للمساعدة في إنقاذ سكان أوجادين؛ إلا أن ذلك لم يجد آذاناً مصغية لدى المنظمات الإنسانية الدولية، حيث قدّمت تلك المنظمات دعمها بشكل مباشر لحكومة إثيوبيا؛ فيما تصرّفت فيه حكومة إثيوبيا بشكل سياسي لا إنساني، حيث كان نصيب إقليم أوجادين من المساعدات هو الأقل بين أقاليم إثيوبيا الأخرى، بالرغم من الكمّ العظيم من المساعدات الإنسانية الذي تتلقاه إثيوبيا بوصفها رابع أكبر دولة في عدد مرضى الإيدز في العالم، وبحسب تقارير الأمم المتحدة تحصل إثيوبيا على معونات سنوية قدرها ٩٠٠ مليون دولار، بينما تشير إحصاءات أخرى إلى تلقي إثيوبيا معونات سنوية بقيمة ١،٣ مليار دولار؛ منها ٦٠٪ مخصّصة لمعونات الغذاء والمساعدات الطارئة[٣].

وبالرغم من التمييز ضد إقليم أوجادين فإن النظام الإثيوبي لم يتورّع عن الاستمرار في سياسات القمع وانتهاك حقوق الإنسان في الإقليم، مع العمل على تفكيك جبهة تحرير أوجادين، وهو ما دفع الجبهة إلى الرد ببيان قوي، أكدت فيه أن نظام زيناوي يواصل تضليل الرأي العام العالمي، وأنه عازم على مواصلة سياسات الإبادة للآلاف من مواطني أوجادين، فضلاً عن مواصلة إحراق القرى، واعتقال عناصر المعارضة[٤].

في المقابل؛ تفرض الحكومة الإثيوبية تعتيماً إعلامياً عمّا يجري في الإقليم؛ مستغلة في ذلك سيطرتها على جميع أجهزة الدولة، من الأجهزة الإعلامية والأحزاب السياسية والجيش والموارد المالية، إضافة إلى الحصار الإعلامي الذي تفرضه على أوجادين، وذلك عبر منع دخول الصحافيين الدوليين إلى الإقليم، والتشويش على الإذاعات التي تتناول قضايا الإقليم، وهو ما جعل الحكومة الإثيوبية تنفذ سياساتها بعيداً عن أعين العالم دون رقيب يحاسبها على أفعالها[٥].

وليس خفياً أن السياسات الإثيوبية إزاء إقليم أوجادين تتنافى وأبسط قواعد القانون الدولي الإنساني، والذي ينص على أن التحريض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على إبادة مجموعة بعينها يُعد تطهيراً عرقياً،

١) انظر: Gill, Peter, Famine and Foreigners: Ethiopia Since Live Aid, op. Cit., p 198

٢) انظر: Lautze, Sue and Maxwell, Daniel, Why Do Famines Persist in the Horn of Africa?, op. Cit., p 225.

٣) انظر: Shinn, David H., Ethiopia: Governance and Terrorism (in: Rotberg, Robert I., editor, Battling Terrorism in the Horn of Africa), Brookings Institution Press, Baltimore, 2005, p 108.

٤) بيان عسكري للجبهة الوطنية لتحرير أوجادين، ١٦ أغسطس ٢٠١٠م، راجع: http://www.ogadennet.com/arabic/news.php?readmore=327

٥) المرجع السابق.

وهذا محرّم دولياً، وهو ما اعترف بانتهاكه ملس زيناوي نفسه في أحد المؤتمرات الصحافية؛ عندما أكّد أنه يحارب مجموعة معينة من الشعب الأوجادين، وأن هذا يستدعي تدخُّل الجيش ضد هذه المجموعة[1]، كما أفادت مصادر بوقوع حالات كثيرة للقتل والتعذيب والاغتصاب ضد المدنيين في أوجادين، وأن زيناوي أثنى على هذه الممارسات وعدّها عملاً بطولياً وكفاحاً من أجل السلام!

وبهذا طبّق زيناوي على الشعب الأوجادين السياسة نفسها التي استخدمها في الجمهورية الصومالية، حيث قسمها إلى مناطق قبلية، وإلى كنتونات معزولة بعضها عن بعض، مع العمل على تسليح القبائل في مواجهة بعضها بعضاً، كي يسهل إدارتها وسيطرته عليها بأبخس الثمن وأقل التكلفة، ولكي لا تقوم قائمة للشعب الصومالي، وتطول المشكلة إلى أبعد مدى، أمام نظر المجتمع الدولي و (رقابته) وصمته الرهيب!

وإزاء تجمّع ثالوث (العداء الحكومي الإثيوبي، وسيطرة المجاعة، وحالة الفقر)؛ ناشدت الجبهة الوطنية لتحرير أوجادين المجتمع الدولي لكي يضغط من أجل دخول الصحافة الحرّة بكل أنواعها إلى أوجادين؛ لمعرفة الحقيقة، والتأكد من عدم صحة الادعاءات الإثيوبية والمروّجين لأكاذيبها العارية عن الصحة[2] حول التقدّم والتنمية في أوجادين، في الوقت الذي يقبع فيه سكان الإقليم تحت أسوأ الظروف الإنسانية.

استجابت المنظمات الإنسانية بتقديم بعض مساعدات الإغاثة الطارئة إلى الإقليم، إلا أن ذلك لم يمنع تفاقم الأزمة نتيجة لإحجام المانحين الدوليين عن تقديم معونات التنمية، حيث قادت وزارة التنمية الدولية في بريطانيا حملة أوروبية لتجميد معونات التنمية المقدمة لإثيوبيا؛ بسبب تنامي إنفاق الأخيرة على التسليح عاماً بعد عام، وهو ما انتقده رئيس الوزراء الإثيوبي ملس زيناوي بقوله: «نحن في إثيوبيا لا ننتظر ملء البطون حتى نحمي سيادتنا»[3].

وهكذا أصبح سكان أوجادين بين المطرقة والسندان، وذلك بالوقوع ضحية بين حكومة أديس أبابا التي اختارت خوض حرب في أقصى حدودها الشمالية، وبين السياسات الغربية المتحيّزة، والتي دأبت على معاقبة الشعوب جرّاء ذنوب لم تقترفها، وهو ما يعيد إلى الأذهان ما قامت به الدول الغربية خلال الثمانينيات من القرن الماضي، عندما فرضت الجوع على الشعب الإثيوبي، كنوع من العقاب الجماعي ضد إثيوبيا، بسبب اتبّاع منجستو للنهج الشيوعي آنذاك.

فمتى يستجيب ضمير العالم، خصوصاً المنظمات الإنسانية العالمية، لصرخات أهل أوجادين، بالمسارعة في تقديم الإغاثة اللازمة، والتحقيق في مظالم هؤلاء الضحايا، وذلك من أجل كشف حقيقة النظام الإثيوبي، وإنقاذ ثمانية ملايين مسلم يعيشون في الإقليم الذي تعادل مساحته مساحة ألمانيا وبلجيكا معاً؟!

١) المرجع السابق.

٢) بيان عسكري للجبهة الوطنية، صادر في سبتمبر ٢٠١٠م، راجع: http://www.ogadennet.com/arabic/news.php?readmore=347

٣) انظر: Gill, Peter, Famine and Foreigners: Ethiopia Since Live Aid, op. Cit., pp 197 - 198.

الشيخ أحمد ديدات رائد دعوة النصارى إلى الإسلام في القرن العشرين

محمد نور عبد الله(*)

إن من سنن الله الكونية، وأحكامه القدرية؛ أن يختار بعضاً من خلقه، يخصهم بشيء من نِعَمه، ويزيدهم من فضله، سواء في أمور الدنيا أو الدين.

ومنهم من ينصر الله به الدين في باب من أبوابه، وذلك مثل الشيخ أحمد ديدات رحمه الله تعالى.

مما لا شك فيه أن الشيخ أحمد حسين ديدات رجل لم يُنسج على منواله في هذا العصر في مجال مقارنة الأديان من الناحية العملية، وبخاصة فيما يتعلق بمحاورة النصارى ومناظرتهم والرد عليهم، فقد لازم هذا الدرب أكثر من نصف قرن من الزمن، ولم يتقاعس عنه حتى وهو طريح الفراش لتسع سنوات يعاني الشلل الكلي سوى دماغه، لا يستطيع لشيء من أعضائه حِراكاً، ولا يقدر أن يفتح لكلمة فكّه، ومع ذلك واصل جهاده الدعوي دون كلال أو ملل، حتى كان يغشاه النصارى ليناظروه وهو على حاله تلك، فوفقه الله لطريقة فريدة لمحاورتهم عن طريق الإشارة بالعين.

لقد نفع الله بالشيخ أحمد ديدات في هذا المجال نفعاً عظيماً فأسلم بسببه الألوف؛ فقد ناظر النصارى وكبار قساوستهم، وأثبت كذبهم وافتراءاتهم وعبثهم بدينهم وتحريفاتهم، وألزمهم الاعتراف - تصريحاً أو تلميحاً - بأفضلية الإسلام وشرف رسالته وعظمة نبيه صلى الله عليه وسلم، وفيما يأتي تعريف موجز بهذا الداعية الكبير[1]، وبجهوده في الرد على النصارى وأثر ذلك في أفريقيا وفي العالم أجمع:

■ نشأته:

هو أحمد بن حسين ديدات المشهور بـ (المسلم العالم بكتاب النصارى المقدس)، أما هو، فَيُلَقِّب نفسه بـ (خادم الإسلام)[2]، وهذا يدل على تواضعه رحمه الله، وديدات لقب لوالده معناه في لغة «الكُجُرَاتي»[3] العطاء[4].

ولد الشيخ أحمد بالهند في (١٩١٨/٧/١م)، ونشأ بجنوب أفريقيا التي هاجر إليها وهو في التاسعة من عمره، وبقي بها إلى أن توفّاه الله عز وجل، وذلك عام ٢٠٠٥م عن عمر يناهز ٨٧ سنة.

خرج ديدات من أسرة مسلمة متواضعة لم تُعْرف لا بالعلم ولا بالجاه ولا بالمال، لكن منّ الله عليها بابنها أحمد فعمّ به خيرُها وعلا شأنُها. كان أبوه فقيراً يمتهن الفلاحة في قريته في الهند، وكانت الحياة هناك في ذلك الوقت صعبةً جداً، فَبَلَغَ الناسَ أنّ الحياة في جنوب أفريقيا أهنأ من تلك التي في «سُورات» (مسقط

(*) باحث دكتوراه بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١) عن ترجمة ديدات انظر:
«المركز الدولي للدعوة الإسلامية بجنوب أفريقيا» - تقديم تليفزيون الإمارات العربية المتحدة - بالإنجليزية (DVD).

٢) يلتزم كتابة هذه العبارة في نهاية رسائله قبل توقيعه، وفي خاتمة بعض كتبه.

٣) لغة «كجراتي»: هي إحدى اللغات الهندية، وهي اللغة الأم لأحمد ديدات.

٤) حوار مع أخي أحمد ديدات - عبد الله ديدات في جوهانسبرج Johannesburg - بجنوب أفريقيا - عام ٢٠٠٧م.

رأس ديـــدات)، وكانت الهند وجنـــوب أفريقيا كلاهما تحـــت الاســـتعمار البريطاني آنذاك، فَنَزَحَ كثير من أبنـــاء تلك المنطقة، ومن بعض المناطق الهندية الأخـــرى إلى جنوب أفريقيا، منهم حسين ديدات والد أحمد ديدات[1].

كان حســـين والد أحمد ديـــدات رجلاً من عوام الناس[2]؛ لكن يُشـــم من تصرفاته، ومن تربيته لأبنائه، رائحة التدين الصالح، والاعتزاز بدينه، وحب الدعوة إلى الله، يقول قاسم ديدات أحد إخوة أحمد ديدات: «كان أبونا يذكّرنا دائماً بواجب الدعوة إلى دين الله، ويقول لنا أنتم خلفاء الله في الأرض، وقد لخّص الله لكم واجبكم في الدعوة إلى دينه فـــي حرفين اثنين في القرآن الكريم فليكونا دائماً في قلوبكم، وعلى أطراف ألســـنتكم. وهما القاف واللام ﴿قُلْ﴾ في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّـــهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِـــرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [النـــاس: ١]، فالله ســـبحانه وتعالى بإمكانه أن يقول: يا أيهـــا الكافرون أو هو الله أحـــد أو أعوذ برب الفلق أو أعوذ برب الناس.. وهكذا، ويستقيم الكلام، لكن جاء بكلمة ﴿قُلْ﴾ فـــي البداية ليذكركم بواجبكـــم في تبليغ هذه الرسالة إلى الآخرين»[3].

ولا شـــك أنّ هذا التذكيـــر المتواصل أثّر في أحمد ديدات وإخوته، وكثيراً ما ينبّه عليها ديدات في محاضراته، كمـــا كانت كل حركاته وســـكناته ممزوجة بروح دعويـــة عالية، حتى غدا أبرز داعية في دعوة غير المســـلمين إلى الإسلام في هذا العصر.

كان ديدات يتمتـــع بأخلاق نبيلة مما أهَّـــله بعد توفيق الله عز وجل لذلك المقام الســـامي منها: علو الهمة والجلد والحزم والجدِّية والكرم والتواضع والصدق، وســـعة الصدر، والاعتزاز بالإســـلام، وعدم الخوف والجرأة في الصدع بالحق وفضح الباطل.

■ عقيدته:

بما أن أحمد ديدات لا يعد نفسه من علماء الشريعة، وبما أنه اختط لنفسه مشروعاً دعوياً معيناً، وهو دعوة غير المســـلمين إلى الإسلام، والـــرد عليهم؛ فلـــم يكن الكلام عـــن العقيدة والشـــريعة من برامج دعوته، بـــل اقتصر في حديثه إلى المسلمين على بث روح العزة بدينهم فـــي قلوبهـــم، وحثهم على القيـــام بدعوة غير المسلمين إليه، وكيفية القيام بذلك.

وكثيراً ما كان يكـــرر قوله: «أنا متخصص في مقارنة الأديان، فإذا كنتم تريدون شيئاً فيما يتعلق بالفقـــه أو الأحكام فاذهبوا إلى علمائكم ومشايخكم، وأنا لست واحداً منهم».

ولا يـــكاد يخالف هذه القاعدة التي قررها؛ لذلـــك لا يوجـــد من بيـــن مئات الحـــوارات والمحاضـــرات التي ألقاهـــا محاضرة واحدة يتحدث فيهـــا عن ركن من أركان الإســـلام أو الإيمان، أو مســـائل فقهية أو غيرها حســـب اطلاعـــي، وإن تكلم عن تلك الأركان تكلم عنها عرضـــاً دون تفصيل إلا إذا كانـــت مما يدخل تحت تخصصه، مثل الكلام عـــن الله المعبود بحـــق، فبما أن موضوع المعبود من موضوعات مقارنة الأديان مـــن جهة فإنه يتكلم عنه كثيراً، فيتكلم عن مفهوم الإله عند المسلمين واليهود والنصـــارى والهنـــدوس إلـــخ، أو الحديث عن الأنبياء أو الكتب، أو كيفية الصلاة عند الأنبياء عليهم الســـلام قبل بعثة محمد صلى الله عليه

١) انظر: «Challenges of Islam» Blackburn, U.K 10th Aug. 1988, D.V.D.

٢) مقابلة مع قاسم ديدات بتاريخ (١٤٢٨/٩/١٢هـ) الموافق (٢٠٠٧/٩/٢٤م)، في داربن.

٣) مقابلة مع قاسم ديدات في مدينة داربن.

وسلم، وكيفيتها عند المسلمين.

هذا جعل معرفة عقيدته من صريح كلامه من الصعوبة بمكان، وإضافة إلى عدم حديثه عن تلك الموضوعات ما وجدته يقول: إن عقيدتي كَيتَ وكَيتَ، بل يكتفي بقوله أنا مسلم، لكن عند تتبع كتاباته، وتأمل كلامه، وخصوصاً ما يتعلق منه بالجانب العقدي عند مقارنته الإسلام بالأديان الأخرى؛ يتبين لنا أنّ من أهم ما يعتني به في جميع دعوته من الناحية النظرية والدعوية توحيدَ الألوهية.

وتتبعتُ حاله في تحقيقه من الناحية العملية فلم أجد فيه ما يقدح في أصل هذا التوحيد، ولو صرف شيئاً من العبادة لأحد من خلق الله لصرفها إلى محمد رسول صلى الله عليه وسلم، فكل من تتبع حياته وقرأ كتبه واستمع إلى محاضراته؛ عرف أن أحمد ديدات يحب النبي محمداً صلى الله عليه وسلم حباً شديداً، وذلك منذ نعومة أظفاره، وقد فكّر عدة مرات في ترك العمل الوحيد الذي يقتات منه في حياته بسبب المنصّرين الذين يطعنون فيه على مرأى ومسمع منه ولا يستطيع الرد عليهم، قال عن نفسه: «كانت تَمُرّ بي عِدّة ليالٍ وأنا في أَرَق، وعَبْرةٍ تَتَرَقْرَق، لأني لا أستطيع أن أدافع عمن هو أغلى عندي من حياتي، ذاك الذي كان رحمة مهداة إلى الجنس البشري أجمع، وهو محمد صلى الله عليه وسلم»، ومع ذلك لم يكن يغلو فيه، حتى لم أجد له مجرد التوسل به بجاهه أو بذاته عليه الصلاة والسلام، وهذا من أبسط الأمور عند الغالين فيه، فضلاً عن أن يصرف شيئاً من العبادة له، بل كتب تعليقاً على أحد أشرطته يقول فيه:

(من الكفر أن يدعو مسلم باسم محمد)[1]،

وقال في مقدمة محاضرته في «مالديف Maldives» عن محمد صلى الله عليه وسلم الأعظم: «نحن لا نقارن محمداً بالله، والعياذ بالله، فلمّا نقول الأعظم؛ أي بين الناس»[2].

ومن أوسع الأبواب التي كان يدخل منها إلى قلوب المدعوين من اليهود والنصارى وغيرهم شرح الأذان لهم، وقد قام بذلك مرات كثيرة لزوار المسجد، ويقف دائماً عند قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله» ويقرر معناه كما عليه أهل السنّة تماماً بأنه «لا يستحق العبادة أحدٌ إلا الله»، وعند قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله» يقول: «محمد ليس هو معبودنا، بل إنما هو رسول الله إلينا، وليس له من العبودية شيء»[3].

وعليه فإن الأصل فيه سلامة المعتقد في هذا الباب، وأنه على الفطرة، على عقيدة أهل السنّة والجماعة، حتى يدل الدليل على خلافه.

أما من الناحية النظرية، أي بالنسبة لجهوده في الدعوة إلى هذا النوع من التوحيد والرد على المخالفين فيه من غير المنتسبين إلى الإسلام، فيمكن عدّ الشيخ ديدات من أعظم من دعا إليه ودافع عنه في هذا العصر، وهذا قد يبدو غريباً عند بعض الباحثين، لكن سرعان ما تزول الغرابة لمن تأمّل النقاط الآتية:

النقطة الأولى: أنه صرف أكثر من نصف قرن في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام:

لعل الشيخ أحمد ديدات رحمه الله تعالى أبرز داعية عُرف بدعوة غير المسلمين إلى

---

١) علّق بذلك على القصة التي ذكرها القسيس جيمي سواغرت: إذ ادعى سواغرت أن رجلاً مسلماً دعا باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يُستجب له. ثم دعا باسم المسيح فاستجيب له. انظر:
Is the Bible God›s Word?» Debate, Sheikh Ahmad» Deedat Vs Tele- evangelist; Rev. Jimmy Swaggart» In .(Baton Rouge, University of Louisiana, U.S.A. 1986 (DVD

٢) Muhammad (PBUH) the Greatest» Lecture in Maldives» (Island, 9th Dec. 1987. (DVD

٣) يلتزم ذكر هذه المعاني عند شرحه للأذان في كل شريط له عن زيارة المسجد. وكذلك في كل مناسبة أخرى.

الإسلام في تاريخ الدعوة الإسلامية، وكان مرتكز دعوته في ذلك مسألة التوحيد، وقد كان يحترق حزناً من انتشار الشرك في العالم، ومن كون المشركين أكثر من الموحدين، وكان هذا من أشد ما يؤنِّب به المسلمين على عدم القيام بالدعوة إلى الله، وقلّما يلقي محاضرة على المسلمين إلا وعاتبهم بقوله: «يوجد اليوم من يعبد البشر والشجر والحجر والقرود والشياطين والأفاعي أكثر ممن يعبد الله وحده لا شريك له! ... » إلخ[1].

وقال في أحد كتبه بعد أن تكلم كلاماً طويلاً عن عدم قيام المسلمين بالدعوة[2]:

«نحن المسلمين لم نقم بشيء في حق الملايين الذين يعيشون في الظلام في العالم، يجب علينا أن ننقذهم من الشرك (الشرك لفظ عربي ومصطلح عقدي يعني عبادة كائنات أخرى مع الله، وهو أشنع ذنب في الإسلام)، وإلا سَيَهوون بنا معهم في جهنم في هذه الدنيا وفي الآخرة. الذين يعبدون المخلوق أكثر بملايين المرات من الذين يعبدون المستحق للعبادة بحق دون غيره، وهو الله سبحانه وتعالى».

فالتوحيد هو أول ما يدعوهم إليه، وهذا منهجه الذي لم أره خالفه في برامجه الدعوية، وهو منهج الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله.

النقطة الثانية: صرفه حياته كلها في الرد على النصارى ومناظرتهم في شركهم:

منذ أن رفع أحمد ديدات راية الدعوة إلى الله بين غير المسلمين كان النصارى على رأس قائمة من يدعوهم ويرد عليهم، ولم يكن يناقشهم إلا في مسائل عقدية، إلا ما يأتي عرضاً، ووجه دلالة هذه النقطة على عنايته بالتوحيد ودعوته إليه واضح جداً إذا عرفت أن النصارى يشركون بالله غيره في الألوهية والربوبية.

وأبرز من تصدى لهم في هذا العصر هو الشيخ أحمد ديدات رحمه الله، فيكون أبرز داعية إلى التوحيد ومحاربة الشرك فيما يتعلق بهذا الباب (الرد على النصارى)، وهذا يدلك على أن دعوته لهم إلى التوحيد ونبذ الشرك أمر مقصود.

قال رحمه الله في حوار أُجري معه عن أهمية مناظراته، ومدى فائدتها في الدعوة إلى الله: «المقصود بالمناظرة عند المنصّرين أن يجعلوك محايداً ويخدّروك ويجمدوك؛ فهم يعملون لك حفلاً بهيجاً ويسلمون عليك، ويجاملونك بكلمات معسولة تحت شعارات مختلفة، كأن يقولوا يجب أن نلتقي ونتحد لمحاربة الشيوعية والمخدرات لكي يشغلوك، وفي نفس الوقت يسرقون أطفالك».

«هذا كله يحدث في كل اللقاءات السابقة بين المسلمين والنصارى، والنتيجة: المخادعة والتضليل لهذه الملتقيات، ونحن الضحية؛ لأننا لا نحدثهم بما يريده الله، فالله يقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، هذا شرط اللقاء والتحدث مع النصارى، التحدث عن العبودية لله وحده... وبعضنا يقول: إن هذا فيه إحراج لهم، وهم يقولون إننا نعبد إلهاً واحداً. ولكن الله تعالى أخبرنا أنهم يعبدون

---

١) انظر على سبيل المثال: «Da›awa or Destruction?» 14th Nov Lecture in a mosque in New York, U.S.A ١٩٨٦. 2nd Nov .DVD), «Da›awa in the U.S.», Atlanta, U.S.A) DVD)», «A Dire Warning» a Lecture in Cape town) ١٩٩٨٦ (DVD) ,١٩٨٥ (DVD), «From Hinduism to Islam», Durban

٢) انظر: - What is his Name P: 19 .

ثلاثة: الروح والابن والرب».

«فالحديث عن التوحيد شرط التناظر مع النصارى، ولكنهم يستغبوننا ويريدوننا أن نتحدث عن دور المرأة في المجتمع، وما إلى ذلك من المواضيع التي تُطرح!»، «ولكن الأصل الذي يريدنا الله أن نتحدث معهم حوله هو التوحيد، وجدالهم في الشرك الذي هم واقعون فيه، من اعتقاد في المسيح بأنه ابن الله، وأنه صُلب تكفيراً لذنوبهم، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ...﴾ [النساء: ١٥٧] إلخ»[١].

وكان من أوجه ردوده على النصارى التي يركّز عليها بيان أن عقيدتهم الفاسدة هي التي أدّت إلى عبادة الأصنام والأوثان والصور في قبائل الغرب الأفريقي، ثم يقول: «ولو لم يكن من مفاسد العقيدة النصرانية إلا هذه المفسدة لكفى!»[٢].

النقطة الثالثة: دعوته إلى التمسك بالكتاب والسنّة:

يرى أحمد ديدات أن الخلافات الكثيرة بين المسلمين وإخفاقهم في أمور كثيرة مرجعها عدم التمسك بالكتاب والسنّة، وأن التقدم بين يدي الله ورسوله هو أهم سبب لهذا التفرق والتشرذم، يذكر هذا عندما يسأل عن كيفية اتحاد المسلمين أو عما يعانونه من الذل والهوان وبخاصة في فلسطين، فيذكر أن اتحادهم ونصرتهم مرهونان بالعودة إلى الكتاب والسنّة، وعدم تقديم كلام أحد على كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن كلامه في ذلك قوله[٣]:

«الآن هناك نزاعات فيما بيننا، أتعرفون ما السبب؟ السبب (هو أن) لدينا أبطالنا، كل واحد له بطله الخاص، (يقول) أريد أن أعرف ماذا قال بطلي، وأنا أقول: محمد صلى الله عليه وسلم هو بطلك، والقرآن الكريم هو كتابك الذي تتلقى منه أوامرك وتوجيهاتك».

وكان يلتزم هذا المنهج في أطروحاته واستدلالاته إلا ما ندر، فاستدلالاته من جهة الإسلام كلها من القرآن وقليل من السنّة، حتى أنني لم أسمع جريان اسم أحد من العلماء على لسانه في مئات الساعات التي استمعت إليه فيها إلا ثلاثة: أبا حنيفة، وأبا حامد الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، ذكرهم مرة في أحد أشرطته في معرض كلامه عن المقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس، إذ ذكر أن القرآن ليس فيه إلا كلام الله، أما كلام النبي عليه الصلاة السلام ففي كتب السنّة، وأما كلام غيره مما يتعلق بالتاريخ والسير والفقه ففي كتب العلماء مثل: (فذكرهم)[٤].

لكن مع ذلك وجدت أنه وقع في بعض البدع التي تقدح في كمال هذا التوحيد[٥]، مثل مشاركته وتشجيعه لحفل المولد النبوي[٦]، ووقوعه في بعض البدع أو الأخطاء التي تتعلق بالدعوة إلى الله ومنهجها ووسائلها وهي كثيرة، وفي كثير منها نظر أو نزاع في بدعية بعض الوسائل، والتسليم ببعض الأخطاء، ولعل هذا يرجع إلى عدم وجود دراسات علمية محررة عن

١) أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن. ترجمة وتعليق محمد مختار. (ص: ١٢ - ١٣).
٢) انظر: «What is his Name» P: 8.
٣) انظر: «A Dire Warning» a Lecture in Cape town (DVD).
٤) انظر: Sheikh Ahmad Deedat on the UAE Spotlight (Abu Dhabi» (TV), (Interviewed by Abdul-Mun›im Salim» 1994 (DVD).
٥) انظر: -The Choice, Vol. I, Muhammed the Greatest» 1032» Da›awa in the UK at Regents Park Mosque»,» ,104 (London, on Tuesday 21st May 1992 (DVD.
٦) انظر: -The Choice, Vol. I, Muhammed the Greatest» 1032» Da›awa in the UK at Regents Park Mosque»,» ,104 (London, on Tuesday 21st May 1992 (DVD.

هذا النوع من الدعوة – دعوة غير المسلمين إلى الإسلام –, وبما أن أحمد ديدات حامل رايتها في هذا العصر، وبضاعته في العلوم الشرعية مزجاة كما كان يعترف هو بنفسه؛ فمن الطبيعي أن تؤدي به بعض اجتهاداته إلى الوقوع في بدع وأخطاء متعددة.

أما في توحيد الأسماء والصفات؛ فإن الحكم على عقيدة أحمد ديدات في هذا الباب بأنه من فرقة معينة، كأن يقال: إنه سنّي أو أشعري أو ماتريدي من الصعوبة بمكان؛ ذلك لأنه لم ينسب نفسه إلى واحدة من هذه الفرق كما سيأتي، ولأنه لا يتكلم في مسائل الاعتقاد الإسلامية إلا عرضاً عند حديثه عن عقائد الأديان الأخرى وبخاصة اليهود والنصارى، ومن تأمّل كلامه في بعض المسائل التي تطرق لها يظهر بجلاء أنه تأثر بمجتمعه الهندي، ومن المعلوم أن الهنود عموماً ماتريدية في هذا الباب.

أما بالنسبة للطائفة أو الجماعة التي ينتسب إليها، بمعنى هل هو سُنّي أو سلفي أو وهّابي أو شيعي أو إخواني أو بريلوي أو ديوبندي أو قادياني؟ إلخ، وخصوصاً وقد سّماه أو رماه مجموعة من الناس ببعض تلك المسميات! فتتم الإجابة عن هذا السؤال الكبير من خلال السؤال الآتي: هل نسب أحمد ديدات نفسه إلى واحدة من هذه التيارات والجماعات والفِرَق؟

والجواب: لم أجد أحمد ديدات في إنتاجاته المقروءة والمسموعة التي اطلعت عليها نسب نفسه إلى واحدة من هذه الفرق والجماعات إلا فرقة واحدة، ومرّة واحدة، ففي شريطه "A dire Warning" بعد أن تحدّث عن تقصير المسلمين في القيام بالدعوة إلى الله، وأن الله إذا أعطى قوماً من عباده فرصة ثم ضيعوها استبدل بهم قوماً آخرين، مثّل باليهود والنصارى، وبالنصارى والمسلمين، وبالسنّة والشيعة، قال: في سوريا توجد جماعتان، السنة مثلنا، فنحن من أهل السنّة الذين يحاولون أن يترسموا خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلويون، وهم من الشيعة، يعتقدون عقائد باطلة في عليّ رضي الله عنه، فالسنّة هناك تساهلوا في أمر العلويين، واحتقروهم، ولم يدعوهم إلى الحق والصواب، بل كانوا يرسلونهم إلى الشرطة والجيش إلخ، والآن هم الذين يحكمون سوريا، مع أنهم ٢٠٪ فقط من مجموع سكان البلد[١].

هذا هو المكان الوحيد الذي وجدته نسب نفسه إلى أهل السنّة، ومن النظرة الأولى إلى النقل يفهم أنه يقصد السنّة العامة، حيث قابلها بالشيعة.

ثم اجتهدت في طرح هذا السؤال: هل كان أحمد ديدات ينسب نفسه إلى أي فرقة من الفرق المنتسبة للإسلام؟ وذلك على جميع من حاورتهم وقابلتهم في جنوب أفريقيا، وهم من مشارب مختلفة منهم البريلوي الصوفي، ومنهم الديوبندي التبليغي، ومنهم السنّي السلفي،ومنهم من لا ينتسب لفرقة[٢]، فأجمعوا على أنه لا ينسب نفسه إلى أي فرقة من تلك الفرق، بل كان يكره من غيره أن ينسب نفسه إلى واحدة منها، وكان يقول عن نفسه مقتصراً على ذلك[٣]:

«أنا مسلم، وأرجو أن يقبلني الله مسلماً، وأن أموت مسلماً».

١) انظر:«A Dire Warning» a Lecture in Cape town (DVD).

٢) منهم ابنه يوسف ديدات، وأخواه عبد الله ديدات وقاسم ديدات، وصهره وتلميذه عصام مدير، ومدير مركزه العالمي رفيق حسن، وبعض الدعاة من السلفيين، مثل: فاروق أحمد، ويوسف محمد، وبعض الذين عملوا عنده في المركز مثل أيوب كريم، وعمر مليليكي، ومنستر آدم، وبعض أعضاء مجلس أمناء مركزه مثل إبراهيم جدوت، وإبراهيم سالم محمد، وغيرهم كثير.

٣) انظر:
The Qur›an or the Bible, which is God›s Word» Lecture,» University of Colombia, New York, U.S.A, 1st Nov. 1986 ((DVD

ومن هنا تعرف ظلم وجهل من يقول: بما أن في جنوب أفريقيا فرقتين بريلوية وديوبندية فلا بد أن يكون ديدات منتسباً إلى إحداهما، ثم حلا له أن ينسبه إلى شر الفرقتين، وهم البريلوية؛ لأنه نقل نقلاً واحداً عن أحد كبار أئمتهم، وحضر المولد النبوي، بهذين السببين حكم عليه بهذا الحكم الظالم!

■ مرضه ووفاته:

عقد ديدات رحمه الله رحلة دعوية إلى أستراليا في شهر أبريل عام ١٩٩٦م، وكانت من أروع الرحلات الدعوية التي عقدها في حياته، وشاء الله أن تكون هذه آخر رحلة له؛ إذ أصيب بعد عودته منها بأيام بمرض شلّ جميع أجزاء جسده إلا عينيه وذاكرته، وكان يتواصل مع زوّاره والقيام بواجبه الدعوي عبر طريقة فريدة وهي الاتصال بالعين، تعلّمها في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض عندما أمر الأمير سلطان بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية بنقله إلى هناك لمداواته.

وتوفي رحمه الله صباح يوم الاثنين ١٤٢٦/٧/٣هـ الموافق ٢٠٠٥/٨/٨م عن عمر يناهز السابعة والثمانين عاماً، بمنزله في فيرولام في منطقة ناتال بجنوب أفريقيا، وصُلّي عليه بعد صلاة المغرب من اليوم نفسه بإمامة مفتي مِنْك الشيخ إسماعيل مِنْك من زمبابوي خريج كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بوصيته[١]، فرحمة الله عليه رحمة واسعة.

❊ قال الأستاذ أيوب كريم - رئيس مؤسسة (ICRA) وأحد طلاب أحمد ديدات في جنوب أفريقيا: «أن أحمد ديدات وضع مسلمي جنوب أفريقيا على خريطة العالم»[٢].

❊ وقال إبراهيم سالم محمد - أحد أعضاء مجلس الأمناء للمركز العالمي، وابن أبرز من ساعد الشيخ بماله في منطقة كيب تاوون سالم محمد -: «نحن نعتبر أحمد ديدات كمنقذ لنا في كيب تاوون؛ لأنه قبل إتيانه إلى هذه المنطقة قلما تجد من يستطيع الدفاع عن دينه، ولا تكاد تجد فرقاً بين المسلم الهندي والهندوسي، والنصراني الهندي في شيء، فهو الذي بث روح الولاء والبراء بيننا، وبيّن لنا أن المسلمة لا يجوز أن تتزوج من هندوسي أو نصراني، وهكذا»[٣].

«الشيخ ديدات اسم عظيم في الإسلام والنصرانية، وستفهم الأجيال القادمة عظمة ونموذجية المعاني (التي اشتملت عليها) أفكاره المبتكرة وكتاباته ومحاضراته وتقواه».

■ اشتغاله بالرد على النصارى:

المرحلة الأولى: نقطة البدء في "Adam's Mission":

لم يَخْتَطَّ أحمد ديدات رحمه الله طريقه في الرد على النصارى باختيار منه، إنما أُلجأ إلى الخوض فيه كما ذكر هو عن نفسه عدة مرات، وذلك في قصته الخالدة التي طالما قصها كلما تحدث عن بداياته في هذا المجال، وخلاصتها[٤]: أنه لما انتهى من الابتدائية وبدأ بالصف الأول المتوسط؛ عجز عن مواصلة الدراسة لقلة ذات اليد، ولم يتمكن من الحصول على عمل يرتزق منه داخل مدينة دابرن، لصعوبة الحصول على عمل يُسمح بامتهانه

١) مقابلة مع مفتي مَنْك الشيخ إسماعيل منك. عام ٢٠٠٧م. في كيب تاوون.

٢) مقابلة مع أيوب كريم. في دابرن. عام ٢٠٠٧م.

٣) مقابلة مع الأستاذ إبراهيم سالم محمد. في كيب تاوون. عام ٢٠٠٧م.

٤) انظر:
The Choice, vol. II, Is the Bible God›s Word?» P: 142,»
«Sheikh Ahmad Deedat on the UAE Spotlight (Abu Dhabi (TV), (Interviewed by Abdul-Mun›im Salim» 1994 (DVD.

لهنـــدي مثله، ثم حصل بعد كدّ وتعب على عمل خـــارج المدينة فـــي دكّان رجل مســـلم، فكان يساعد صاحب الدكان على بيع الملح والدقيق وغير ذلك ممـــا يبيعه البقّالون، ومعه مجموعة من الشباب المســـلم يعملون معه هناك، وكان ذلك عام ١٩٣٩م، وعمره آنذاك عشرون سنة.

وكان على مقربة من ذلك الدّكان كليةٌ تابعة لـ «بعثـــة آدم»، وهي بعثـــة تنصيرية أمريكية، يُـــدَّرب فيها المنصّـــرون، وتُحشـــى أذهانهم بالشبهات ضد الإســـلام، ثم يأتون إلى ديدات وبقية زملائه لإجراء تطبيقـــات أولية على ما درســـوه في الفصـــول الدراســـية، وصار ذلك دَيدَنهم، كلما جاؤوا لشراء شيء قاموا بإطلاق مجموعة من الشـــبهات عليهم، ومن أمثلة هذه الشبهات قولهم:

- إن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) تزوج كثيراً من النساء فهو شهواني (حاشاه عليه الصلاة والسلام).
- أن دين الإسلام انتشر بحد السيف.
- أن القرآن منتحل من الكتاب المقدس... إلخ.

يقول الشـــيخ عن نفســـه: «كم مرة حدّثتُ نفسي بالفرار بديني وترك ذلك العمل والبحث عـــن عمل آخر، لكن دون ذلك خَـــرْطَ القَتاد»، «فعزمت على دراســـة القرآن والكتاب المقدس وكتب أخرى، لكن اكتشافي لكتاب (إظهار الحق) كان نقطة تحوّل في حياتي، فإذا أنا بين عشية وضحاها أســـتطيع أن أحاور أولئك الشَّـــبَة المنصّرين الذين يدرســـون في كلية «بعثة آدم»، وأشِّـــدد عليهم الخناق، إلى أن بدؤوا يحترمون الإسلام والنبي محمداً صلى الله عليه وسلم».

ومنـــذ ذلك الوقت عَشِـــق مجـــال مقارنة الأديان، والتحدث إلـــى النصارى، ومحاورتهم، والرد عليهم، فكان في كل أســـبوع يبحث عن نصراني يذهب إلى بيتـــه للحوار الديني بينه وبينه[١]، ومنذ أن وقف على كتاب (إظهار الحق) حُبِّب إليـــه كذلك التزام شـــهود المحاضرات المتعقلة بمقارنة الأديان في مدينة داربن[٢].

ثـــم ألقى محاضرة لمجموعة من خمســـة عشر شخصاً من المســـلمين عام ١٩٤٢م في قاعـــة "Durban Movie Theater" بعنـــوان (محمد صلى الله عليه وســـلم رسول السلام)، فكانت هذه أول محاضرة له في حياته[٣].

وبعـــد أن عرف النص الذي يبشـــر بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في العهد القديم، وهو (١٨ أُقيمُ لَهم نَبيًّا من وَسْط إخوَتهم مثلَكَ، وأَجعَلُ كلامي في فَمِه، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ ما أُوْصِيه بِهِ) [ســـفر التثنية: الإصحـــاح ١٨ / ١٨]؛ بدأ يتحيـــن أي فرصة لإلقاء محاضرة في شـــرح هذا النـــص، وجعل الحديث عن هذا الموضوع دَيْدَنه، وشغله الشاغل، وليس لديه شيء يقدمه للمســـتمعين في ذلك الوقـــت غيره، حتى لقبه أصدقـــاؤه بـ (١٨ / ١٨)[٤]، وهو رقم النص في سفر التثنية.

المرحلـــة الثانيـــة: الدعـــوة المحليـــة ثم العالمية:

كانـــت محاضرته التـــي ألقاهـــا بعنوان: (محمد صلى الله عليه وسلم في العهد القديم

---

١) انظر:
Sheikh Ahmad Deedat on the UAE Spotlight (Abu Dhabi»
.(TV), (Interviewed by Abdul-Mun›im Salim» 1994 (DVD

٢) انظر:
,3-The Choice, vol. II, Is the Bible God›s Word?» P: 2»
What the Bible says about Muhammad (P.b.u.h) Lecture»
«(by Sheikh Ahmad Deedat in Cape town, 1984. (DVD

٣) انظر:
Deedat's method of proselytization» by Rafiq Hassan. P: 4»

٤) يقول: «أول شيء بدأت أتحدث فيه، وألقي فيه محاضرات هو (سفر التثنية: ١٨/١٨) حتى لقّبني أصدقائي بـ «١٨\١٨»، ثم كلما وقفت على شيء جديد أضفته إليه، وقمت بتبليغه للناس، حتى بلغ بي الحال إلى ما ترين». انظر:
Arab and Israel conflict or conciliation», Western hotel,»
(Chicago IL. U.S.A, 19th Dec. 1993 (DVD

والجديد) يوم الأحد: ١٩٥٥/١/١٦م من أوائل محاضراته في مقارنة الأديان أمام حشد كبير من الناس من النصارى وغيرهم، ووصفت بأنها الأولى من نوعها في الجنوب الأفريقي قاطبة؛ حيث لم يطرق قبله أحد من العلماء مثل هذا الموضوع أمام الناس[١].

ثم تتابعت محاضراته التي أصبح يشهدها المئات، وأحياناً يصل العدد إلى بضعة آلاف، بل يحتشد له في بعض محاضراته ما يصل إلى خمسين ألفاً وذلك منذ الخمسينيات، وهذا شيء لم يكن لأحد قبله من المسلمين في تلك المنطقة[٢].

وبدأت محاضراته محلياً في مدينته مدينة داربن، ثم بدأ يتنقل إلى بقية مقاطعات جنوب أفريقيا، ثم إلى الدول المجاورة مثل زامبيا، وزمبابوي، وسوازيلاند، وليسوتو، وغيرها من دول الجنوب الأفريقي، وقد كتب الله له القبول والتأثير البالغ في تلك المناطق قبل أن يطل على العالم برحلاته الدعوية التي يعقدها، والتي تستغرق الواحدة منها ثلاثة أسابيع إلى شهر[٣]، يلقي خلالها عشرات المحاضرات، كمحاضرة البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب المقدس، وبعض المناظرات إن أمكن.

■ منزلته وأثره في الرد على النصارى في أفريقيا وفي العالم:

هناك ما يشبه الإجماع في الساحة الدعوية بأن منزلة الشيخ أحمد ديدات في الرد على النصارى ومناظرتهم؛ فوق منزلة كل من في هذا الميدان من المسلمين من معاصريه بمراحل.

ويدل على ذلك عدة أمور:

١ - ترجمة كتبه إلى كثير من لغات العالم منها: اللغة العربية، والفرنسية، والصينية، واليابانية، والبنغالية، والألمانية، والنيرويجية، والروسية، والآرامية، والماليزية، والإندونسية، والهندية، والأردو، والزولو، وبعض لغات أفريقيا، وهذا شيء لم يحصل لكتب غيره في هذا المجال قبله.

٢ - لم يحظ داعية فَرْد بمثل الدعم المادي والمعنوي الذي حصل عليه الشيخ ديدات من الأمة الإسلامية حسب علمي.

٣ - لم يحظ داعية فرد في هذا العصر بالحب الذي حظي به أحمد ديدات في هذا العصر حسب علمي. وكان المسلمون في نيجيريا من أشهر المحبين له حكّاماً ومحكومين حتى سمّى حاكم ولاية كانو (العاصمة الدينية لنيجيريا) - مالم إبراهيم شيكرو- الشارع المؤدي إلى قصر الرئاسة باسم: «شارع أحمد ديدات» في حفل كبير دعا فيه ابنه يوسف ديدات، وشارك في فعاليته وذلك عام ٢٠٠٧م (أي بعد وفاته بسنتين).

٤ - التتلمذ على أشرطته وكتبه في الرد على النصارى؛ فكثير من الذين اختطوا هذا الطريق تلاميذ لأشرطته وكتبه، ومن أبرز من اقتفى أثره وزاد عليه الدكتور ذاكر نايك كما صرّح هو بنفسه عدة مرات.

٥ - أتى على مكاتب الدعوة وقت من الأوقات كانت عمدتها كتب أحمد ديدات في عدد من الموضوعات.

استعانة المسلمين به في الجنوب الأفريقي إذا نشر النصارى طعوناً وشبهات ضد الإسلام، فإليه يرجعون ليقوم برحلات دعوية مكثفة للرد على تلك الشبهات والقضاء عليها[٤].

١) انظر: «The Role and Contribution of the Islamic propagation Centre International in the field of Da›awah» by Riaz Cassim Jamal. P: 103

٢) المصدر السابق.

٣) انظر: «Man-God Relationship in Islam, Lecture, Islamic Cultural Center, Regents Park Mosque, London. 1985 (DVD).

٤) انظر: «The Choice, Vol. I, Al-Qur›an the Miracle of Miracles»

تقليد كثير من الذين يردون على النصارى ويناظرونهم في منهجه وطريقته في الرد والمناظرة وخصوصاً في نيجيريا، حتى كان عدد كبير منهم يُلقبون بـ (ديدات نيجيريا) منهم الأستاذ حمزة شيخو رحمه الله الذي ناظر كثيراً من القساوسة في نيجيريا، وأسلم على يديه آلاف مؤلفة من النصارى، ولم تكن له مراجع في هذا الباب إلا كتب أحمد ديدات وأشرطته كما ذكر لي في مقابلة أجريتها معه[١].

وتقديراً لجهوده ومنزلته في المجال الدعوي مُنح الشيخ أحمد ديدات (جائزة الملك فيصل العالمية) عام ١٩٨٦/٣/٩م، وكان أحمد ديدات أول مسلم من الجنوب الأفريقي يحصل على هذه الجائزة، وقد سُرَّ بها كثيراً؛ لأنها زادت في رفع قدره، والاعتراف العالمي به وبخاصة في العالم الإسلامي، وكان يتحدث عنها كثيراً معبراً عن فرحه وسروره بالحصول عليها.

هذا عند المسلمين، أما عند النصارى فللشيخ ديدات منزلة مهيبة في عيونهم بسبب ردوده عليهم ومناظراته لهم، قال عنه المنصر العالمي المشهور القسيس جيمي سواغرت[٢]:

«العالم البارز في العالم الإسلامي: السيد أحمد ديدات»

وقال القسيس رِيتشَارْدْ جَارْنَفِلْتْ (Richard Järnefelt)[٣]:

«الشيخ ديدات اسم عظيم في الإسلام والنصرانية، وستفهم الأجيال القادمة عظمة ونموذجية المعاني (التي اشتملت عليها) أفكاره المبتكرة وكتاباته ومحاضراته وتقواه».

ومن دلالات عظم منزلته وردوده ومناظراته عندهم الأمور الآتية:

١ – توصية الكنائس للمنصّرين بقراءة كتبه، وبخاصة الذين يقومون بعملية التنصير في أفريقيا، فقد زار وَفْد من الكنيسة المعمدانية Baptist Church مكتب الشيخ في غيابه، وبعد الاطلاع على إنتاجاته في هذا المجال كتبوا مقالة عنه في مجلتهم بعنوان[٤]: «المدافع عن الإسلام: .... إذا أراد أحد أن يقوم بالتنصير بين المتحدثين باللغة الإنجليزية، وبخاصة في أفريقيا، فإنه بكل تأكيد قد يحتاج إلى قراءة آراء المناضل عن الإسلام أحمد ديدات».

٢ – كتب أحد النصارى اسمه John Gilchrist كتاباً بعنوان (التحدي الإسلامي في جنوب أفريقيا)، وأورد اسم أحمد ديدات في الكتاب أكثر من اسمه، واسم ربه المسيح.

٣ – تهرب البابا بولس يوحنا الثاني من مناظرته.

٤ – تهرب النصارى من مناظرته في الآونة الأخيرة، ففي آخر رحلة دعوية له في أستراليا اجتهد في البحث عمن يناظره، مع أن فيها قساوسة كباراً، وأساقفة، لكنهم أبوا، ولما زارته جمعية نسائية في مكتبه وكلهن نصرانيات، وعد كل من استطاعت أن تقنع قسيسها لمناظرته بعشرة آلاف رَنْد Rand (عملة جنوب أفريقيا) مكافأة لها؛ لأنهم أبوا أن يواجهوه[٥].

٥ – تغيير كتبهم (المقدسة) بناء على ملاحظاته، ومن الشواهد على ذلك أن القسيس

١) ومقابلة مع إبراهيم سالم محمد. عام ٢٠٠٧م. P:223.

٢) وذلك في المدينة المنورة لما جاء لأداء العمرة في رمضان عام ١٤٢٧هـ.

٣) «Is the Bible God›s Word?» Deedat, Sheikh Ahmad Deedat Vs Evangelist Rev. Jimmy Swaggart» In Baton Rouge, University of Louisiana, U.S.A. 1986 (DVD).

٤) «Honouring the memory and lifetime work of Sheikh Deedat» by Richard Järnefelt Pg: 15

٤) «Sheikh Ahmad Deedat on the UAE Spotlight (Abu Dhabi (TV), (Interviewed by Abdul-Mun›im Salim» 1994 (DVD).

٥) «Members of the Durban Business and professional (Women›s Club Visit the IPCI 1991 (DVD

الدكتـــور اللاهوتي C.I Scofield في تعليقاته على نســـخة الملك جيمس ومعه ثمانية دكاترة آخرون في علم اللاهـــوت في معرض كلامهم عن (التكوين: ١ / ١)؛ ذكروا أنّ اللفظ العبري لكمة "God" هو "Elohim, El, or Elah"، وأن اللفظة الأخيرة يمكن رسمها هكذا "ALAH"، فاســـتغل الشيخ هذه الفرصة في بيان أن اسم المعبود الحق حتى في النصرانية هو "Allah"، وأن رســـمهم لها بحرف « L » واحد لا يهم ما دام أن النطق يكون صحيحاً، ولعلهم يتشجعون في المرة القادمة بشـــكل أقوى فيزيدونها، ثم تناقل النـــاس عنه هذا التقرير، فحذفوها بكل جرأة في طبعـــة لاحقة مع الإبقاء على التعليق الذي ورد ذكرها فيه كما هو[١]! وهذا لا شـــك يدل على قدر كلامه عندهم، واهتمامهم بتتبع ملاحظاته عليهم.

٦ - استعطاف بعض رؤسائهم وعلمائهم في جـــرأة ســـافرة المركـــزَ العالمي وقفَ طباعـــة كتابه (عُدّة المعركـــة) "Combat Kit"، وسحبه من السوق! لشدة نكايته بهم[٢].

أما بالنسبة لأثر جهوده وردوده في النصارى فهذا أمر مشـــاهد وملموس، فقد أثرت ردوده ومناظراته فيهم تأثيرات عظيمة.

■ وتنكشف هذه النقطة وتتجلى عند الوقوف على أمرين:

الأمر الأول: اجتهاد النصارى وتفانيهم في الدعوة إلـــى دينهم المحرف وتنوع أســـاليبهم فـــي ذلك: لا شـــك أن الجهـــود المبذولة من قبل النصارى في نشـــر دينهم وتقرير عقيدتهم الباطلة، وبث الشبهات عن الإسلام والطعن فيه تكاد تكون في ســـلك القصص الأسطورية التي يصعب تصديقها؛ لولا أنها حقيقة واقعية يمتنع تكذيبها.

خذ مثـــالاً واحداً فقط وهو نشـــر الكتاب المقـــدس لوحده، فقد جاء فـــي تقرير (اتحاد منظمات الكتاب المقدس) أن الكتاب المقدس تمـــت ترجمته - كله أو جـــزء منه - إلى ألفين ومائتيـــن وثلاث وثلاثين لغة من مجموع ســـتة آلاف وخمسمائة لغة في العالم، بالإضافة إلى ستمائة وخمس وثمانين ترجمة على الطريق[٣].

أما ما يتعلق بغير الكتاب المقدس من معاول هدم الإسلام وتشـــييد التنصير من كتب ومواقع وقنوات وإذاعات ومنظمات تنصيرية ومساعدات ماديـــة للفقراء والمنكوبيـــن والمرضى؛ فلم يعد ينضبط، ولا يكاد يدخل تحت حصر.

الأمر الثاني: «أنّ النكاية في العدو بالبرهان واللسان أوقع من نكاية السيف والسنان»[٤]: قال ابن حزم رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ [التوبة: ١٢٠] : «ولا غيـــظَ أغيظُ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهـــم بالحجة الصادعة، وقد تُهزم العســـاكر الكبـــار، والحجة الصحيحة لا تُغلـــب أبداً؛ فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمّة»، إلى أن قال: «وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْـــذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُـــونَ﴾ [الأنبياء: ١٨][٥]، «ولا شَكّ في أن هذا إنما هو بالحجة؛ لأن السيف مرة

---

١) انظر:
The Choice, vol. II, Is the Bible God›s Word?» P: 97,»
29-«What is his Name» P: 26

٢) أفادني بذلك الأستاذ رفيق حسن في مقابلتي معه في رمضان عام ١٤٢٨/ ٢٠٠٧، ٨ وهو الذي وُجّه إليه ذلك الطلب الفاضح بصفته مديراً لمركز الشيخ في ذلك الوقت.

٣) ورد ذلك في مقالة بعنوان: The Bible in various languages ؛ أي (الكتاب المقدس في اللغات المختلفة). انظر: موقع اتحاد منظمات الكتاب المقدس United Bible Societies على شبكة الإنترنت.

٤) الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام. (ص ٤٦).

٥) {فَيَدْمَغُهُ}: يقول الطبري رحمه الله: «فيهلكه. كما يَدْمَغُ الرَّجل الرجلَ بأن يشُجَّه على رأسه شَجَّة تبلغ الدِّمَاغ. وإذا بلغت الشَّجَّة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة» اهـ. تفسير الطبري. (٩ / ١٢).

لنـــا، ومرةً علينا، وليس كذلك البرهان، بل هو لنا أبداً، ودامغٌ لقول مخالفينا، ومُزْهِقٌ له».

فمن تأمل الأمر الأول، وهو الســـعي الجاد من قبل النصارى في نشر النصرانية والتبشير بها في أنحاء العالم، وبثهم الشبهات تجاه الإسلام وأحكامه، ومحاولاتهم إخراج المســـلمين من إســـلامهم إلى اعتقاد عقائدهم والتدين بديانتهم، وبذلهم في ذلك الأموال والأنفس، وســـلوكهم كل طريق موصلة إلى ذلك مادياً واجتماعياً وخدمياً ونفســـياً، وعرفت أن الدول الإسلامية مجتمعة لا تستطيع أن تقاوم تلك الجهود الجبارة، وعرفـــت أن تلك القوى إنما تُقهر بالدليـــل والبرهان فقط (الأمر الثاني)، وعرفت أن المسلمين في العالم الإسلامي، وبخاصة المتحدثون باللغة الإنجليزية، في فترة ليســـت بالبعيدة ليست لديهم أســـلحة برهانية يهاجمون بها ويدافعون إلا كتب أحمد ديدات رحمه اللـــه؛ عرفت عظم تأثير ردوده ومناظراته في النصارى.

هذا، ومن أهم ما ينبغي التنبه له هنا والحذر منه، هو أن الشيخ أحمد ديدات - رحمه الله - قد وقع في بعض الأغلاط، يدركها من له رصيد لا بـــأس به من العلم الشـــرعي، وكان كثير من الذين يحذون حذوه يكررون الأخطاء نفســـها، فينبغي أن يحذروا ويحذّروا منها، وقد ســـبقت الإشارة إلى بعض منها.

وأختم هذه المقالة المقتضبة عن عَـلَم من أعلام المســـلمين في هذا العصر باقتراحات أراها مهمة، وهي:

١ - تدريس منهج الشيخ أحمد ديدات في دعوة غير المسلمين وفي مقارنة الأديان في كليات الدعوة، ومعاهد الدعاة بعد تهذيبه.

٢ - الاستفادة من تجربته الرائدة في المركز العالمي للدعوة الإسلامية الذي كان حيناً من الدهر أكبر وأنجح مركز دعوي في العالم.

٣ - دراسة نظرياته ووسائله في تمويل المشاريع الخيرية، حيث سجل فيه نجاحاً غير مسبوق.

٤ - ضـــرورة أن يلج بعض طلبـــة العلم الشـــرعي في مجال «مقارنـــة الأديان» من الناحيـــة العملية؛ لأن غيابهـــم في الميدان يؤدي إلى هُوّة يصعب ردمها، ويفسح المجال لغيـــر الأكفاء، ومن في قلبهم زيغ، فيتكلمون عن اللـــه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ولا يكتفـــون بنقد القائمين بـــه ممن ظهر صدقهم وإخلاصهم فيشـــغلون أنفسهم عن الكلام فيهم بالعدل والعلـــم حيناً، وبالظلم والجهل أحياناً كثيرة.

٥ - ينبغي لكل من يريد أن يتخصص في دين من الأديان أن يعرف لغـــة ذلك الدين، «فكما أننا نعيـــب على من يتخصص في الإســـلام وهو لا يعـــرف العربية، فكذلـــك يُعاب على مـــن يتخصص في الهندوكيـــة دون أن يعرف اللغـــة الهندوســـية، واللغة العبريـــة على من يتخصص في اليهوديـــة، وهي واليونانية على مـــن يريـــد أن يتخصص فـــي النصرانية، أو الإنجليزية علـــى الأقل؛ لأن أهم كتب الديانة، والبحوث المتعلقة بها موجودة بها»[1]، بل اللغة الإنجليزية ضرورية بالنسبة لمن يريد التعمق في النصرانية؛ لأن كثيـــراً من أوجه النقد لا تظهـــر إلا بها، ومن أقرب الأدلة على ذلك أن نســـخة RSV لا توجد إلا باللغة الإنجليزية، وهي أصح النسخ عندهم، وأقربها إلى الأصل، وأهم الانتقادات الموجهة إلى الكتاب المقدس إنما توجد فقط في هذه النســـخة، زيادة على ذلك أن مئات النسخ للكتاب المقدس المنتشرة في العالم، والتي تتبنى كلَّ نسخة منها طائفة أو فرقة من طوائفهم وفرقهم، لا توجد إلا في اللغة الإنجليزية.

١) من كلام الدكتور ضياء الرحمن الأعظمي حفظه الله. ذكره أثناء دورة (الحوار مع المخالف) التي أقامتها جمعية العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

لماذا لا تزال فرنسا تدعم حكام إفريقيا المستبدين؟(*)

بقلم: بوبكر بوريس ديوب (**)
ترجمة: مجلة قراءات

حالما تمّ انتخاب نيكولا ساركوزي وباراك أوباما للرئاسة بدأ كل منهما التخطيط لجولات رفيعة المستوى في إفريقيا، وبالتأكيد فإن للرئيسَيْن الفرنسي والأمريكي أولويات أكثر إلحاحاً من مجرد الحديث لقارة حُكم عليها لزمن طويل بأنها غير مهمة بالنسبة للشؤون الدولية، ولكن كما اتضح فإن التدريب اللافت للنظر لـ «التحدّث لإفريقيا» قدّم الفرصة المثالية لهذَيْن الرئيسَيْن الغربيَّيْن المبتدئَيْن لإثبات أنهما جسّدَا بالضبط ما قالا إنهما فعلاه: القيادة غير المتزاوجة مع الأمور التقليدية للأعمال كالمعتاد.

إذاً فضَيْفَيْنا قد أتيَا وهما يرسمان نفسَيْهما أصدقاء للقارة، وهما حقّاً يملكان عاطفة عميقة جدّاً لدرجة أنهما كانَا غير خائفَيْن من التفوّه عالياً بكل الحقائق غير الطيبة حول إفريقيا، والتي يتمّ الهمس بها سرّاً، وكمثل الرجل النبيل الذي يحاضر الشحاذ قبل إلقاء قطعة نقدية ضئيلة في جرّته؛ جاءَا إلى إفريقيا بإحساس متأصّل من الاستعلاء، عاطفتهما هذه مأخوذة – في الواقع – من الاعتقاد بأنهما قامَا بكلّ ما في وسعَيْهما لتجنّب حدوث فوضى على خلاف الشحاذين (أي الدول الإفريقية نفسها)، وكما بدَا فإن أوباما وساركوزي كانت تقلقهما الرغبة في استعادة العقل لأكثر دول العالم في جانب عدم المسؤولية.

لكن يا لها من إعادة كتابة سيئة للتاريخ!

بالتأكيد كان أوباما دمثاً بدرجة كافية عند زيارته لغانا العام الماضي، حتى إنه احتاج إلى أن يُذكّر بالحدِّ الذي دفعت إليه «أمريكا الحرب الباردة» بالعديد من الدول لكي يُصبحوا «الدول المخفقة» اليوم.

على الرغم من ذلك فإنه من بين الرئيسَيْن؛ فإن ساركوزي بالتأكيد هو القائد الأكثر استحقاقاً للتوبيخ، فلا يوجد أبداً في التاريخ السياسي الحديث شيء يقارب تآزر القوى غير القابل للانفصال مثلما هو الحال بين فرنسا ومستعمراتها السابقة، ففي اللحظة الأولى لإدراكها أن الاحتلال لا محالة منته؛ دبّرت باريس إحدى الروائع الحقيقية للعبقرية السياسية، وهي القيام بكلّ ما هو ضروري للخروج من إفريقيا بطريقة لا تجعلها تتزحزح عنها بمقدار بوصة في الحقيقة!

جاك فوكارت (المستشار المؤتمن للجنرال شارل ديجول) كان هو مُعد هذه الخدعة الاحتلالية، كانت طرقه بسيطة: تنصيب سياسيين أفارقة مؤتمنين– بعضهم يحملون جنسية فرنسية– حكام لهذه الدول الأربع عشرة

(*) المصدر: فورين بوليسي: http://www.foreignpolicy.com/la_vie_en/21/06/articles/2010

(**) روائي وباحث وصحفي سنغالي. واحدا من أشهر كتاب إفريقيا في العصر الحالي. ولد في (داكار) العام ١٩٤٦ . يهتم في كتاباته بالدفاع عن الثقافات الإفريقية.

الجديدة، والمحافظة على الاستحواذ الفرنسي القوي لمواردها الطبيعية. كان هذا نظاماً يرعى الفساد وعدم الاستقرار بشكل طبيعي، ولا يكاد يستطيع الاستمرار دون انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان[1].

ولكن ذلك لا يهمّ، فديكتاتوريو إفريقيا الجدد يستطيعون أن يستريحوا، فبفضل ٦٠٠٠٠ جندي في القارة؛ فإن الجيش الفرنسي يمكنه الهرع لمعاونتهم خلال لحظة من طلب ذلك، وقد وافق الجيش على ذلك باعتباره جزءاً من اتفاقيات دفاعية بها فقرات مفتاحية معينة تمّ الاحتفاظ بها في سرية. المخابرات الفرنسية أيضاً أقرت عند الضرورة القيام بعمليات قتل الخصوم الأكثر خطراً على عملائها من الحكام المستبدين، وقائمة الشخصيات الإفريقية المعارضة الذين تمت تصفيتهم بأسلوب بشع قائمة طويلة بشكل مفزع!

حقيقة؛ إن الخطأ الأكبر لهذا النموذج الفرنسي ليس أنه موجود بالأساس، لكنه – وبلا إرباك – ظلّ باقياً بعد الحرب الباردة، ففي الوقت الذي كانت موسكو وواشنطن تتصرفان بوحشية أكبر في مناطق النفوذ الخاصة بكلٍّ منهما؛ فإن تطفُّل باريس على إفريقيا كان يبدو معتدلاً نسبياً، لكن اليوم سيكون من غير المتصوَّر أن يُرى رئيس الوزراء البريطاني وهو يتدخل في خلافة الرئيسين الغيني والكيني.

وماذا عن ساركوزي؟ لقد قام بذلك تماماً العام الماضي عندما فاز «علي بونجو» في الانتخابات الرئاسية المتنازع عليها، وذلك بمصادقة الرئيس الفرنسي على خلافته لوالده. ولا عجب! فإن «بونجو» الأب نفسه كان قد نصّبه ديجول من قبل في عام ١٩٦٧م، وبالمثل فقد ساند جاك شيراك ابنَ رئيس دولة توجو الجنرال «ناسينجبي إياديما»، وذلك في عام ٢٠٠٥م.

وهكذا يدور الأمر، ففرنسا تقوّض الاستقرار وتدمّر دول إفريقيا كأن العالم لم يتغير! حقاً إن من بين كل القوى الاحتلالية الأوروبية السابقة فإن فرنسا فريدة في رفضها لإنهاء الاحتلال! أما الدول التي رفضت هذه «الصداقة» مع باريس، مثل فيتنام ومدغشقر والكاميرون والجزائر، فقد دفعت مقابل حريتها مئات عديدة من آلاف الأرواح.

ولتنظر للنيجر، ففرنسا ليست راضية عن استخراج اليورانيوم ببساطة من تلك الدولة، مع أنها تدفع بأسعار دول العالم الثالث، بل إنها تقوم بذلك تحت شروط استغلالية، مثل شفط المياه الجوفية تماماً، وهو مّما أدّى إلى أن أصبحت الزراعة مستحيلة في هذه الدولة الزراعية.

وبموافقة النيجر على إمداد فرنسا بأربعين في المائة من احتياجاتها من اليورانيوم، وربما تكون النيجر ثاني أكبر منتج لليورانيوم في العالم، ولكنها واحدة من أفقر البلاد على كوكب الأرض! وحتماً قد حصلت فرنسا على اليورانيوم، فقد أُشيع على نطاق واسع أن الاستخبارات السرية الفرنسية قامت بالإطاحة بـ «هاماني ديوري» أول رئيس للدولة في عام ١٩٧٤م بعدما قال إن بلده لم تنتفع بأي شيء من استخراج المعادن.

إن عدم الاستقرار الحالي للنيجر – ثلاثة انقلابات منذ ١٩٩٦م، وتمرد داخلي مستمر– يرتبط بشكل مباشر بالإلزام الفرنسي بالتحكم في مصادرها الاستراتيجية.

(١) كان من ضمن ما اتفق عليه ديجول مع هؤلاء الزعماء: السماح بتمركز القوات الفرنسية على أراضي بلدانهم، وتزويد فرنسا بمدد ثابت من المواد الخام بأسعار محددة سلفاً، وقبول جميع ديون الحقبة الاستعمارية المستحقة لفرنسا بلا نقاش، والحفاظ على الفرنك الإفريقي كعملة مشتركة، ومنح الخزانة الفرنسية حق النقض فيما يتصل بالقرارات التي تتخذها البنوك المركزية دون الإقليمية في بلدانهم. (قراءات إفريقية).

افترض العديد لسنين أن هذه التركيبة «الفرنسإفريقية» أصبحت أمراً غير واقعي، وأنها لاحقاً ستذبل أو ستموت موتاً طبيعياً، لكن بشكل أو بآخر فإن هذا التزاوج ما زال مستمراً، في الجابون وتشاد والنيجر وجمهورية الكونغو، بلا علامة واضحة لتحديد ذلك، وفرنسا سعيدة بتحريك الخيوط من خلف الستار بطريقة لا تمكّن أيّ ثورة إفريقية ذات شعبية من استهداف تدخلها.

بدلاً من ذلك؛ فقد فعل القادة الفرنسيون كلّ ما في طاقتهم لتغذية تواطؤ عاطفي عميق في الجريمة داخل شركائهم الأفارقة، يُصِرّ فوكارت (مستشار ديجول) في مذكراته على أهمية الحفاظ على علاقات شخصية عميقة مع الرؤساء الأفارقة أبعد كثيراً مما يقتضيه البروتوكول. ولقد غضب ديجول عندما كان يدعوه «جين بيدال بوكاسا» رئيس جمهورية إفريقيا الوسطى دائماً بـ «بابا»، لكنه كان يمسك لسانه، وذلك بالطبع كيلا تتأثر إمدادات الخشب والماس الاستوائيين إلى فرنسا.

وكما يُعتقد؛ فإن الشركاء الأفارقة شعروا براحة أكبر مع شيراك، فهو أقل تكبراً فيما يخص الطعام الجيد، بل إنه مشجّع للنكات الجنسية الوقحة أو المضحكة، باختصار.. لقد كان رجلاً أقل تعقيداً.

هذه الفلسفة تعتمد على الفكرة غير المريحة بأن الأفارقة «المَرحين بطبعهم» – كما قال شيراك ذات مرة – هم ببساطة «أطفال كبار»! عدم النضج المفترض هذا يخوِّل لفرنسا التصرف بطريقة غير ديمقراطية بشدة في إفريقيا، لدرجة أن ممارساتها لا يمكن تخيلها عند العودة للوطن.

ولسوء الحظ فإن قارتي ليس عليها أن تتخيل تلك الوقائع؛ لأننا نعيش فيها كلّ يوم مع كل مواطن محروم يريد التعليم، والرعاية الصحية، حتى في بعض الأوقات محتاج إلى قصعة من الأرز ليأكل، في الوقت نفسه تظلّ فرنسا راضية تماماً.